956.92
M636tA

طرابلس

في النصف الأول من القرن العشرين

أوضاعها

الأجتماعيّة والعلميّة والأقتصاديّة والسياسيّة

بقلم

محمد نور الدين عارف ميقاتي

سنة

١٣٩٨ هجرية
١٩٧٨ ميلادية

Li02-2290

اهداء

الى روح

الشيخ حسين محمد الجسر

رائد النهضة العلمية والفكرية

في طرابلس في مستهل القرن العشرين

اهدي رسالتي هذه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير الانام وعلى آله وصحبه الكرام وبعد :

فقد اخذت تراودني منذ زمن ، فكرة كتابة رسالة ادون فيها ما كانت عليه مدينتي طرابلس في العقد الاول من القرن العشرين الميلادي ، من اوضاع اجتماعية وعلمية واقتصادية وسياسية ، وما مر بها من احداث وتطورات حتى العقد الخامس منه ، حيث زال منها الكثير من تلك العادات والتقاليد ، واسباب الحياة اليومية ، وحل مكانها ما هو قائم من الاوضاع التي نعيشها اليـــوم .

وعندما صحت عزيمتي على كتابة هذه الرسالة ، حرصت وصممت ان لا اعتمد في التدوين على اي مرجع الا ما وعته الذاكرة وتداولته الالسن وابصرته العين .

وسيرى القارىء من سياق الحديث ان المدينة ، قـــد خرجت خـــلال الخمسين سنة التي مرت من القرن من ايام العصور الوسطى البدائية التي كانت تعيشها الى عصر البخار والكهرباء فالذرة ، وهو العصر الذي اكتملت فيه جميع عناصر الانسانية ورفاهيتها وتقدمها .

كما سيرى ان الكثير من التقاليد والعادات الحسنة التي كانت سائدة في مطلع القرن قد اندثرت معالمها وحل مكانها تقاليد وعادات سيئـــة ، والعكس بالعكس .

وقبل الدخول في التفاصيل اقدم الى القارىء الكريم في هذه المقدمة شريطا خاطفا عن اوضاع المدينة وحياة سكانها اليومية وطريقة معيشتهم في مطلع القرن .

كان عدد سكان المدينة في مطلع القرن لا يتجاوز الثلاثين الف نسمة ولا يزيد الا قليلا عن سكان مدينة الميناء وكانوا يعيشون في المنبسط من المدينة ، اما الاماكن المرتفعة كأبي سمراء ، فلم يكن فيها سوى دور لا تتعدى اصابع

اليد ، واما موقع القبة ، فكان معظم سكانها من الغرباء من ابناء قرى الشمال ، واكثريتهم من قرية حدشيت ، من اعمال قضاء بشري الذين كانوا يقطنون طرابلس شتاء ويرحلون عنها الى قراهم صيفا ، وكانت النساء منهم يقمن بالخدمات المنزلية في دور الطرابلسيين ، اما الرجال فكانوا يقومون بالخدمات اليدوية في بساتين الليمون وكروم الزيتون .

وكان يقطن في قسم من محلتي القبة وباب التبانة ، فريق من الغرباء النازحين لكسب العيش وتعاطي اعمال التجارة مع داخلية البلاد من ابناء جبل العلويين .

وكان سكان القبة وسفحها من الطرابلسيين الاساسيين اسراً قليلة اهمها اسر آل المقدم والبيسار والكيال والعمري ، حيث كانوا يقطنون دورا تتناسب مع وجاهتهم ، اما باقي السكان فكانت دورهم متواضعة لا تختلف في شيء عن دور ابناء القرى ولم يكن في محلة القبة طرق معبدة . بل كانت طرقا ترابية تعمها الحفر والاخاديد .

وكان في منبسط المدينة هذا آثار ثلاثة ابواب يغلقها الاقدمون في اثناء الحصار ، وهي الباب الجنوبي لصق جامع ارغون شاه على طريق مقبرة باب الرمل ، وآخر عند موقع السراي القديم ، وقد زالت معالمها في الثلاثينات ، والثالث في سوق القمح من محلة باب التبانة ما زال قائما حتى اليوم .

وكانت الطرقات كما هو معظمها اليوم ضيقة المسالك مرصوفة بالحجر البحصاصي ، لا تخلو من الحفر لقدم عهدها حتى تجدد رصفها في عام ١٩٢٤ ايام ولاية المرحوم خير الدين بك عدره لرئاسة بلدية طرابلس .

وكانت الدور تنار ليلا بمادة الكاز فقط بمصابيح ذات درجات مختلفة من قوة النور اثنتين الى ثلاثة الى اربعة الى عشرة الى اربعة عشر الى عشرين واعلاها اربعون نمرة ، وهذه المصابيح الاخيرة كانت تحتويها ثريات معلقة في سقوف غرف الاستقبال ونادرا ما يقتنيها الا الاثرياء .

وكانت مواد طهي الطعام مقتصرة على الحطب والفحم ، وعلى هذا فقد كان في مطبخ كل بيت موقد مصنوع خصيصا لذلك ، ولم تظهر بوابير الكاز (البريموس) الا في اول العقد الثاني من القرن ، وقد اعتبر الناس ظهور هذه البوابير نعمة من الله لتخلصهم من متاعب استعمال الحطب فيطهي الطعام .

وكان وجود الخضر في الاسواق مقتصرا على فصول نضجها ، ثم لا تلبث بعد انتهاء موسمها حتى تختفي بانتظار الموسم القادم .

وكان الناس في ايام الصيف وارتفاع درجات الحرارة ، يلاقون الامرين في اطفاء ما يعانون من عطش ، اذ كانت المبردات مقتصرة على الثلج الجبلي الهش والسريع الذوبان ، فلا يكاد المرء يشتري قطعة منه ويضعها في القدح حتى تذوب ، هذا بالاضافة الى ان كمية الثلج التي كان يحضرها المكارون كل يوم من اعالي الجبال ، لم تكن تكفي حاجة المدينة منه ، وعلى هذا فلم يكن يصل النهار الى نصفه او ثلثيه حتى تخلو المدينة منه تماما ، وقد قدم طرابلس من الشام في مستهل العقد الثاني من القرن اخوة عاملون من اسرة السادة البدوي الشامي النجار فشيدوا في محلة قبور اليهود معملا للثلج الصناعي ، فامنوا للسكان حاجتهم من هذه المادة الضرورية ، وكنت اسمع المرحوم والدي يردد عقب كل جرعة من الماء المثلج بالدعاء لآل البدوي الشامي على صنيعهم الجميل بانشاء هذا المعمل .

وكان استعمال الصحون الفخارية والملاعق الخشبية شائعا عند الطبقات المتوسطة والفقيرة الحال ، وكانت الوان الطعام محدودة ، فمن السمك الى القبوات وفتة رؤوس الخرفان والمقادم الى الضلع ، الى الخاروف المحشي ، الى اللحم بعجين الى الرشتاوية في ايام الشتاء ، الى جميع انواع الخضار الموسمية .

وموعد طعام المساء كان بين العصر والمغرب ، وكانت موائد الطعام وتسمى الطبلية حتى في الدعوات عند اغلبية الناس من الخشب المستدير ، المختلفة القياسات وكانت لا تعلو عن الارض باكثر من ثلاثين سانتا ، يلتف اهل البيت او المدعوون حولها قعودا ، وتصف عليها صحون الطعام مرة واحدة ، وكان من آيات تكريم الضيف الاكثار من الوان الطعام حتى تصل احيانا الى عشرة الوان .

وكان على متناول الطعام ان يضرب بملعقته صحن لون الطعام الذي يقع اختياره عليه ، وكثيرا ما تضاربت ملاعق المدعوين بعضها ببعض ، وبعد الانقلاب العثماني في عام ١٩٠٨ وفد الى المدينة عدد كبير من الموظفين الاتراك فاخذت نساؤهم يعلمن سيدات المجتمع الطرابلسي انواعا جديدة من الوان الطعام واصبحوا يضعون الوان الطعام على المائدة على مراحل ، ومنهم اخذنا طريقة عدم تجاوز الوان الطعام في الحفلات على اللونين او الثلاثة ، ثم في ايام الافرنسيين درجت قاعدة تقديم الطعام البارد المتعدد الالوان في الحفلات الكبيرة وتناول الطعام وقوفا او جلوسا في الاماكن المتفرقة المنتشرة في ارجاء البيت كما هي الحال اليوم .

وكانت بيوت السكن لا تتجاوز طبقاتها الثلاث ، واغلبية هذه البيوت كانت مكونة من فسحة سماوية حولها ليوان ومربع وبيت مونة ومطبخ ضمنه المرحاض ويعلو ذلك غرف النوم ، ولم يكن الباطون معروفا ، فكان يستغرق البناء وقتا طويلا .

وكان على الواحد عندما يفيق من نومه ايام فصل الشتاء القاسي البرودة ان يقوم من فراشه الدافىء ويتعرض للهواء والزمهرير حتى يصل الى المرحاض ، واحيانا ما يصادف ان يكون المرحاض مشغولا بسواه ، فما كان عليه الا وان ينتظر في هذا الجو البارد خروج من كان يشغله .

وكان اغلب الناس يتناولون في يومهم وقعة طعام اساسية واحدة ، موعدها بين العصر والمغرب ، اما عند الظهر فيكتفـون بتناول النواشف كالجبن او الحمص بطحينة ، ولا اذكر في حياة الطفولة التي قضيتها من عمري ان تناولت الطعام الدسم عند الظهر ، ولعل الغاية من ذلك بقاء الانسان متمتعا بنشاطه في اثناء النهار ، وهي طريقة صحية لا خلاف في فائدتها .

وكانت السكنى خارج نطاق المدينة القديمة ، تعتبر حتى وعيي على الحياة مغامرة غير محمودة العواقب ، وكان يحدثنا المرحوم والدي ، انه عندما بنيت سراي الحكومة على التل ، وتبع ذلك قيام المغفور لهم مصطفى عز الدين وكامل سلطان واخوته عبد العزيز وعبد اللطيف وعبد الحميد وقيصر نحاس وقيصر نوفل وخلافهم من وجوه المدينة ببناء قصور ودور لهم فيها ، نظر اليهم الناس نظرة استغراب ودهشة مما اقدموا عليه ، واذكر شخصيا ان ساحة التل ومنها الحديقة العامة القائمة اليوم التي انشئت في عهد الحاكم الاداري وقتذاك المرحوم عبد الحليم الحجار في عام ١٩٢٤ كانت عبارة عن واحـة مملوءة بالمستنقعات يحيط بها من جهتها الغربية تلال الرمل ، وكان استاذ الجغرافيا في المدرسة الرسمية يأخذنا اليها ليدلنا على الطبيعة على الجزيرة وشبـه الجزيرة والبحيرة التي كانت تحتويها هذه الواحة وكان نقيق الضفادع فيها يصم اذاننا لكثرتها .

ومن المفارقات الجديرة بالرواية لطرافتها ان المرحوم عمر باشا المحمد احد كبار مقاطعة القيطع في قضاء عكار ، زار يوما في اثناء وجوده في القاهرة احد امراء الاسرة العلوية المالكة في مصر الامير محمد علي ، واثناء تشرفـه بمقابلته ، وعده الامير بزيارتـه في طرابلس ، وكـان الامير كثير الاسفار الاستطلاعية ، وبرجوع عمر باشا الى طرابلس اشترى من البلدية قطعة ارض في الجهة الغربية من ساحة التل ، وبنى عليها قصرا منيفا يليق باستقبال الامير

محمد علي فيه ، وبالفعل فقد حضر الامير في عام ١٩١٠ الى طرابلس ونزل ضيفا على عمر باشا ، ومما شاع في تلك الايام ان عمر باشا قد طحن الذهب ليطلي به سقف بهو الاستقبال في القصر ، وقد قام بهذا المجهود ، وانفق الكثير من الاموال لمجرد هدف واحد هو ان ينزل بضيافته احد الامراء لمدة لا تتجاوز الاسبوع .

ولا بد لي بعد هذه المقدمة التي قصدت بها قدر طاقتي اعطاء الشباب الطرابلسي صورة واضحة عن احوال المدينة في مطلع القرن العشرين ، من ذكر حادث كان له اكبر الاثر في تنمية مداركي ، في سني المبكرة ، وذلك اني عندما كنت في سن السابعة امرني والدي المرحوم الشيخ عارف بمرافقة جدي لابي المرحوم الشيخ علي رشيد بعد ان خف نظره في رواحه وغدوه يوميا الى ومن مقهى التل العالي ، من الساعة الثانية من بعد الظهر حتى السابعة مساء حيث كان يعقد مع اقرانه من رجالات طرابلس وعلمائها ما يشبه الندوة يتذاكرون خلالها الشؤون الاجتماعية والعلمية والتاريخيـة دون الشؤون السياسية ، اذ كان من الحكمة عدم التطرق اليها على الجميع ، وكنت استمع الى هذه الاحاديث بكل انتباه وتشوق فتنطبع في مخيلتي فاعانني ذلك على تفهم الكثير من الشؤون في هذه السن المبكروة .

وقد ضمنت رسالتي هذه الابواب التالية :

الباب الاول — الحياة الاجتماعية

الباب الثاني — الحياة العلمية والادبية والثقافية

الباب الثالث — الحياة الاقتصادية

الباب الرابع — الحياة السياسية

وجعلت في كل من هذه الابواب فصلا او اكثر وفقا لما اقتضته ظروف البحث .

فغاية ما ارجوه ان اكون قد وفقت في مجهودي هذا الذي لم يكن هدفي منه سوى الخير .

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم الوكيل .

في شوال سنة ١٣٩٨ هجرية
في تشرين الاول سنة ١٩٧٨ ميلادية
نور الدين عارف ميقاتي

البـــاب الاول

الحياة الاجتماعية

التمهيـــد

تمهيـــد

ان هذا الباب هو الركيزة الاساسية في رسالتي ، اذ جهدت ان اصور فيه الحياة الاجتماعية التي كانت تعيشها المدينة في مطلع القرن العشرين اوضح تصوير .

وكان لا بد لي حتى يأتي التصوير واضحا ، وصادقا ، وصحيحا ، من ذكر العوامل التي اثرت في تكوين هذه الحياة بالشكل الذي كانت عليه .

وفي يقيني ان الحكم التركي للبلاد العربية الذي امتد قرابة الاربعماية سنة كان له اكبر الاثر في تكوين هذه الحياة التي تخالف من حيث الاساس ، الحياة الفكرية والاجتماعية التي اشتهر بها العرب في صدر الاسلام ، وفي العصرين الذهبيين الاموي والعباسي .

فالحكم التركي للبلاد العربية ، قد جهد في ان يعود ابناء البلاد تقديم مصالح الطائفة على مصالح الوطن ، وتقديم الاقليمية على القومية مع التابعية الوطنية وان يقضي على اللغة العربية فمنع الحكام الترك التعليم بها في المدارس والدوائر الرسمية ، حتى بلغ بهم الامر الى تعليم اللغة العربية الواسعة باللغة التركية الضيقة .

كما منعوا تدريس التاريخ العربي منعا مطلقا ، الا ما كان يتعلـــق منه بايام النبي الاعظم صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدين .

وعلى الرغم من ان الحكام الاتراك ، كانوا قبل الانقلاب العثماني في عام ١٩٠٨ على جانب كبير من التدين والتعلق بالاسلام ، الا ان تدينهم هذا لم يمنعهم من ادارة شؤون البلاد العربية ومنها طرابلس بعقلية استعمارية بحتة ، ثم جاء جماعة تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد والترقي) بثورتهم التي كانت في حقيقتها ، ثورة على المفهوم المألوف للاسلام .

وهكذا نرى ان الحياة الاجتماعية في البلاد العربية ، قد انطبعت خلال العصور الطويلة من الحكم التركي بطابع الغزاة الاتراك الامر الذي ادى بها الى مهاوي الجهل والانحطاط .

وكان من اهم المخططات التي اتبعها الاتراك خلال حكمهم البلاد العربية

ازكاء روح التفرقة بين ابناء المذاهب الاسلامية المختلفة ، وبصورة خاصة ، بين ابناء مذاهب السنة والشيعة والوهابية ، ثم بين المسلمين والمسيحيين تمشيا مع القول المأثور (فرق تسد) .

ومما كان يبثه فينا اساتذتنا الاتراك من سموم ، الترسيخ في اذهاننا ان عرب الجزيرة هم مرتدون عن الاسلام لخروجهم في ثوراتهم المتعاقبة على حكم الخليفة .

وكانت الحرب بين الدولة العثمانية وبين عرب الجزيرة ، وعلى الاخص ابناء اليمن لا تنطفىء لها نار ، وما كان ذنب هؤلاء الناس في هذه الحروب الطويلة الا مجرد مطالبتهم برفع مظالم الحكام عنهم .

وكانوا يزجون ابناء الولايات العربية (سوريا — العراق — فلسطين) بهذا الاقتتال الامر الذي ساهم في تكوين بغضاء عميقة الجذور بين عرب الجزيرة وبين غيرهم من ابناء البلاد العربية الاخرى .

اما اشراف مكة حفدة الرسول الاكرم ، فقد اتبعوا في معالجة اوضاعهم الحسنى ، عن طريق اخذ شبابهم الى مقر الخلافة استانبول ، حيث كانوا يثقفونهم ثقافة تركية بحتة ، ولا يولون منهم امارة مكة الا من يطمئنون لولائه لهم .

وبصورة عامة فان التقاليد والعادات التي كانت تسود طرابلس حتى نهاية العقد الثاني من قرننا الحاضر ، منها ما كان حسنا كاحترام الصغير للكبير ، وعطف الكبير على الصغير ، والتزام كل فرد بحدود مركزه الاجتماعي وتقدير العلماء ورجال الدين واعطائهم حقهم من التبجيل ، والامانة الاصيلة في التعامل بين الناس ، ومن هذه التقاليد والعادات ما كان سيئا كعزل المراة عن المجتمع عزلا مطلقا والحيلولة بينها وبين طلب العلم ، وغير ذلك مما سيأتي ذكره باسهاب في سياق الحديث عن الحياة الاجتماعية .

الباب الاول — الحياة الاجتماعية

الفصل الاول — طبقات الناس

كان المجتمع الطرابلسي في مطلع القرن العشرين يتكون من الطبقات التاليـــة :

أ ـــ طبقة رجال الدين .
ب ـــ طبقة الافندية والاعيان واصحاب الرتب .
ج ـــ طبقة التجار .
د ـــ طبقة العوام .

وكان لكل طبقة من هذه الطبقات وضعها الاجتماعي الخاص بها .

أ ـــ طبقة رجال الدين :

تتألف هذه الطبقة من : قاض الشرع الشريف ـــ المفتي ـــ نقيب السادة الاشراف ـــ المدرسين ـــ خطباء المساجد وأئمتها .

وكان رجال الدين يتقدمون وفقا لسلسلة اعمارهم عن غيرهم من رجال الطبقات الاخرى وكلمة عالم كانت تعني ، المتمكن من علوم اللغة العربية والشريعة الاسلامية والمتبحر في التاريخ الاسلامي ، اذ لم يكن من علماء الا في هذه الحقول ، وكان للمدرسين من العلماء منزلتهم الخاصة كما سيأتي بيانه .

وكان قضاة الشرع الحنيف حتى الانقلاب العثماني في عام ١٩٠٨ يتولون بالاضافة الى القضاء الشرعي ، رياسة المحاكم الجزائية والحقوقية والتجارية ، وكان اعضاء هذه المحاكم يختارهم والي الولاية من وجوه المدينة واعيانها .

وكان القاضي الشرعي يلي المتصرف (المحافظ) في التشريفات ، ومرت فترة من الزمن كانت مدة خدمة القاضي محددة بسنتين ، اذ يتوجب عليه بانتهائها التوجه الى المشيخة الاسلامية في استانبول لتجديد خدمته سنتين اخريين ، او الحصول على مركز جديد في مدينة اخرى ، ومما كانت تتداوله الالسن في تلك الايام ان الهدف من تحديد مدة خدمة القاضي الشرعي بسنتين هو ، تمكين النافذين في المشيخة الاسلامية من الحصول على قسم مما يكون قد جمعه القاضي خلال مدة ولايته من مال حرام .

وكان من بين القضاة ، رجال عمرت قلوبهم بالتقوى والنزاهة ، فكانوا يلاقون من هذا التدبير الامرين ، والكثير منهم كانوا يضطرون لبيع ادواتهم المنزلية للتمكن من السفر الى استانبول والحصول على وظيفة جديدة .

اما مركز الافتاء ، فعلى الرغم من انه في الاصل مركز ديني ، مهمته الافتاء في القضايا ذات العلاقة بالدين ، مستندا في ذلك الى ما تتضمنه شروحات الأئمة الاربعة من كتب الفقه الاسلامي المعتمدة ، وهم (ابو حنيفة ، الشافعي ، مالك ، ابن حنبل) رضي الله عنهم ، فانه يعتبر في طرابلس منذ اكثر من مئة سنة حتى يومنا هذا مركزا تمثيليا اكثر مما هو مركز ديني ، ولعل ما تضمه طرابلس من ابناء شتى الطوائف غير المسلمة السبب الاساسي لهذا الوضع .

وقد بقي مركز الافتاء يتم اشغاله حتى عام ١٩٠٩ بارادة سنية تصدر عن مقام الخلافة ، وقد استبدلت به بعد هذا التاريخ طريقة الانتخاب من قبل هيئات دينية ومدنية معينة ، ويصادق على الانتخاب من قبل المشيخة الاسلامية ، وتصدر به ارادة سلطانية سنية .

وليس ادل على انه كان يعطي لثراء المفتي اهتمام خاص ، ما وقع في عام ١٩١٢ اثر شغور مركز الافتاء بعد وفاة المفتي الاسبق المرحوم رشيد مصطفى كرامي ، وكانت المدينة تزخر بالعلماء الافاضل ، انما معظم رجالات المدينة والكثير حتى من علمائها ايضا ، وقع اختيارهم على ابن المفتي الراحل المرحوم عبد الحميد لاشغال هذا المنصب ، وكان لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وليس على شيء وقتئذ من التفقه في الاحكام الشرعية ، فكرم محتده ، واتساع ثروته وحدهما جعلاه يشغل هذا المركز الخطير .

وقد شغل المرحوم عبد الحميد كرامي مركز الافتاء بكل جدارة واقتدار ، فمثل الطائفة الاسلامية احسن تمثيل ، وقام بخدمات كثيرة لابناء بلده في اثناء الحرب العمومية الاولى ، مما جعله محبوب الجماهير ، وقد امتدت شهرته في ذلك الى جميع البلاد السورية فاحبه رجالاتها اعضاء الكتلة الوطنية واحترموه ، كما سيأتي تفصيل ذلك في باب الحياة السياسية .

وفي عام ١٩١٩ اقال الافرنسيون المرحوم عبد الحميد من وظيفة الافتاء واسندوا المركز الى المرحوم عمي الشيخ رشيد بالتعيين لاستحالة اجراء الانتخاب مع وجود المرحوم عبد الحميد على قيد الحياة ، ومما يذكر ان المرحوم عبد الحميد كان اول من زار عمي مهنئا ، وبذلك قطع بموقفه النبيل هذا السنة الطامعين بالمركز عن مهاجمة عمي تحت ستار الدفاع عن الشرعية .

وكان نقيب السادة الاشراف يسمى في هذا المركز الرفيع بفرمان (مرسوم) سلطاني .

وكان للسادة الاشراف المنتسبين للدوحة النبوية الشريفة ، امتيازات

خاصة ، دامت في اوج وجاهتها حتى خلع السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩ ، وكان من هذه الامتيازات اعفاؤهم من الخدمة العسكرية وتخصيص نقبائهم برواتب شهرية محترمة للانفاق على تكاياهم ، ولمساعدتهم في الظهور بين الناس بالمظهر اللائق بمقامهم .

وكانت الاسر المنتسبة لآل البيت في طرابلس كثيرة ، اشهرها آل الزعبي والسندروسي الحسيني والصيادي والثمين والرفاعي .

وفي ايام طفولتي حتى مطلع شبابي كان المرحوم الشيخ عبد الفتاح الزعبي الجيلاني نقيبا للسادة الاشراف في طرابلس ، وعلى الرغم من افول نجم السادة الاشراف وما يتمتعون به من امتيازات بعد خلع السلطان عبد الحميد ، فقد بقي الشيخ الزعبي رحمه الله محافظا على مكانته المحترمة حتى وفاته في عام ١٩٣٤ حيث انتهت بانتهائه نقابة السادة الاشراف في طرابلس .

وكانت الحرب سجالا بينه وبين بعض منتحلي الشرف اذ كان ينكر عليهم شرف الانتساب .

ولم اشاهده يوما في اثناء تجواله في شوارع المدينة ماشيا على قدميه بل كان يمتطي دوما حمارا ابيض ، ويمشي في ركابه رجلان من اتباعه يمسكان بتلابيبه من كلا طرفيه ، وقد نظم بلبل سوريا المرحوم عبد الحميد الرافعي في مطلع شبابه قصيدة انتقادية لاحوال مشاهير رجالاتها ، اذكر منها مقطعا في وصفه الشيخ الزعبي يقول فيه :

ولولا الماسكان بجانبيه ... لطار الشيخ من فوق الحمارة

وكان بودي نشر القصيدة باكملها ، لما تضمنته من وصف رائع للعادات المتأصلة في تلك الايام عند وجوه البلد ، فلم اوفق لذلك .

وكان الشيخ الزعبي رحمه الله مع عظمة جاهه ، على جانب كبير من كرم الخلق ، وسماحة النفس ، ومما يدل على ذلك ما بدر منه نحو جدي المرحوم الشيخ علي اثر فتور في العلاقة وقع بينهما ، وقد شعر الشيخ بخطئه في موقفه من جدي ، فدخل عليه يوما الى غرفة الاثر الشريف في الجامع الكبير المنصوري ، وحياه تحية النادم والمستغفر ، ولم يتركه الا بعد ما تحقق من رجوع الصفاء بينهما الى سابق عهده .

بهذه الروح العالية والنبالة الاصيلة ، كان الاقدمون يعملون على حل الخلافات فيما بينهم .

ومما كان يتندر به الناس في مجالسهم ، حادث وقع للمرحوم الشيخ الزعبي اثر صدور فرمان سلطاني بتخصيص التكية الجيلانية التي كان يرأسها براتب شهري معين من المال ، وقد اراد المرحوم الشيخ علي شيخ العرب ،

الذي كان يشغل وظيفة مفتي الاسطول العثماني في استانبول ان يزف البشرى بذلك الى الشيخ الزعبي ، فارسل برقية يقول له فيها (اهنئك يا جيلاني بتكية الايمان) فوصلت اليه البرقية محرفة بالشكل التالي (هيك يا جيلاني بتحكي بالالماني) .

ولما كان التكلم بغير اللغة التركية محظورا في تلك الايام ، خشي الشيخ ان تكون هناك دسيسة للايقاع به ، ولم يهدأ روعه الا بعد الرسالة التي الحقتها شيخ العرب بالبرقية ، والتي انجلى فيها واقع الحال .

اما المدرسون في مساجد البلدة ، على ما اعيه ، وما بلغني من اخبارهم فقد كانوا على جانب كبير من التبحر بعلوم الدين واللغة العربية ، وكانوا جميعهم من خريجي الازهر الشريف وكانوا في مجالسهم يتقدمون من عداهم من رجال الدين اذ ان الخطباء والأئمة لم يكن معظمهم في مستوى علمي واحد مع المدرسين .

وكان المدرسون يقومون بعد صلاة مغرب كل يوم بالقاء محاضرات دينية على عامة الناس ارشادا لهم الى ما فرض عليهم معرفته من احكام شرعية تبعدهم عن الزيغ والضلال ، والمحاضرات هذه هي غير الدروس التي كانوا يلقونها نهارا في اروقة المساجد على طلاب العلم .

وسيرى القارىء الكريم بحثا مستفيضا عن مدرسي علوم الدين واللغة في باب الحياة العلمية في هذه الرسالة ، وعن اثر البعض منهم وفي مقدمتهم العلامة الامام الشيخ حسين الجسر في مجال النهضة العلمية والفكرية التي ننعم بها في الوقت الحاضر .

وننهي بحثنا عن رجال الدين بخطباء المساجد وائمتها ، فقد كان لاغلب مساجد المدينة خطيب وامام واحد ، باستثناء الجامع المنصوري الكبير فقد كان له خطيب وأمامان اولهما للمذهب الحنفي وثانيهما للمذهب الشافعي ، وكان هذا الجامع منذ اقدم العصور مركز الموقت الذي كانت مهمته تحديد مواعيد الصلوات الخمس واصدار امساكية شهر رمضان .

وكانت جميع مساجد البلدة والميناء لزمن قريب تتبع في الاذان للصلاة الاشارة التي يطلقها الموقت من سارية مئذنة الجامع .

وكان السلطان عبد الحميد قد امر في اثناء حكمه بانشاء مسجد في طرابلس يحمل اسمه ، واهدى له بعض الاثار النبوية الشريفة ، وقد انشىء المسجد فعلا في محلة الزهرية قرب مدرسة الفرير اليوم ، اما الاثار الشريفة

قد قر الراي بعد وصولها ان تكون في غرفة خاصة في الجامع المنصوري على اعتباره ملتقى رجالات الدولة ووجوه المدينة ، وبالاستناد الى ما ذكر فقد كان للجامع المنصوري مركز خاص بين مساجد المدينة ، كما كان لخطيبه وامامه منزلة مميزة بين سائر خطباء وائمة باقي الجوامع والمساجد .

وكانت وظائف الخطابة والامامة والتوقيت تورث ابا عن جد بموجب ارادة سنية ، بعد انهاء من المحكمة الشرعية ومصادقة المشيخة الاسلامية ، فمنذ مئات السنين ، وآل الزعبي يتوارثون خطابة الجمعة في الجامع المنصوري الكبير ، وآل السندروسي الحسيني امامة المذهب الحنفي وآل الميقاتي امامة المذهب الشافعي مع وظيفة التوقيت والمحافظة على الاثر النبوي الشريف .

ومما هو معروف عائليا ، يذكر للمرحوم مصطفى كرامي الكبير مفتي طرابلس الاسبق ، بالشكر والثناء والتقدير ، انه عقب وفاة جدنا الاكبر العارف بالله الشيخ رشيد ، وقع خلاف بين المرحوم جدي الشيخ علي وبين اخيه الاصغر منه سنا المرحوم الشيخ خير الدين ، على الوظيفتين اللتين خلفهما والدهما ، وهما الامامة والتوقيت ، وقد اوصلهما الخلاف الى المحكمة الشرعية للفصل به ، وقد هال المفتي مصطفى كرامي رحمه الله هذا الخلاف بين ولدي شيخه ، فاقدم حسما للنزاع ، على وقف احد بساتين الليمون التي يملكها في موقع برج رأس النهر على المرحوم الشيخ خير الدين ، ومن بعده على ذريته باعتباره موقتا ثانيا ، فبهذه الاريحية الطيبة والكرم المتناهي في موضعه ، امكنه حسم الخلاف حبيا بين ولدي شيخه ، برا منه بالرابطة الروحية التي كانت تربطه بشيخه .

وعند هذا الحادث الفريد من نوعه اردد ما قاله الشاعر العربي :

اولئك ابائي فجئني بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقد تنازل المرحوم جدي في اثناء حياته ، بعد تقدمه بالسن عن وظيفة التوقيت للمرحوم والدي ، وعن وظيفة الامامة لحفيده المرحوم عبد الستار ابن المرحوم عبد القادر ، الذي توفي بحياته تطيبا لخاطره بعد فقده والده ، كما انتقلت وظيفة التوقيت بعد وفاة والدي لاسمي ، عقب عزوف من يكبرني من اخوتي عنها ، وقد تنازل كلانا ابن عمي وانا عن الوظيفتين للمرحوم ابن عمنا الشيخ محمد رشدي الميقاتي وما زالتا حتى يومنا هذا بحوزة ولده الشيخ ناصر امد الله بحياته .

فيتبين مما قدمت ان الوظائف الدينية كانت حكرا لطبقة معينة يتوارثونها كما يتوارث الناس الاشياء العينية .

وكان رجال الدين موضع عناية خاصة من قبل اركان الدولة من وزراء وولاة ومتصرفين ، ووضعهم هذا ، كان يمكنهم من الوساطة بين الحكام وبين اصحاب الحاجة من الناس في حل مشاكلهم الطارئة .

ومن الادلة على ذلك ما كان يرويه المرحوم جدي الشيخ علي على مسمعي من احداث وقعت معه في حياته ، تعطي اكبر الدليل على ما كان يتمتع به رجال الدين بين الناس من احترام وتقدير .

ومن هذه الاحاديث التي ما زالت ماثلة في ذهني ، انه كان يصطبح في احد الايام في مقهى التل العالي وبمعيته والدي ، فسمع صفير احدى البواخر مؤذنا بقرب ابحارها ، فسأل عن وجهتها فقيل له انها مدينة اللاذقية ، فرغب ان يسافر اليها لزيارة بعض الاصدقاء فيها ، ولم يكن يحمل في جيبه الا دراهم معدودات ، فتوجه الى الميناء ، وقد قدم له وكيل شركة الباخرة المرحوم الحاج عثمان علم الدين بطاقة السفر مجانا ، مع توصية لربان الباخرة بالضيف الكريم ، وما ان اقلعت الباخرة وبعدت عن اليابسة حتى تحرك البحر بنوء شديد اداخ الركاب وافقد الكثير منهم الوعي ، وكان في جملة من تحملهم الباخرة حرم المرحوم كامل باشا الصدر الاعظم الشهير (رئيس الوزراء) وكان وقتئذ واليا على ولاية ازمير التركية ، وما ان عرف المرحوم جدي بذلك حتى دخل الى جناحها زائرا ، فوجدها في حالة اعياء شديد بسبب دوار البحر ، فرقاها وقدم لها قدحا من شراب الليمون الحامض الذي كان احضره معه ، فأرتاحت لذلك واستردت نشاطها ، وعندما اعلن ربان الباخرة استحالة الرسو في ميناء اللاذقية ، واضطراره لمواصلة الابحار الى ميناء ازمير ، دعت حرم الوالي جدي ليكون ضيف زوجها في ازمير فقبل الدعوة شاكرا ، وقد رحب به الوالي كثيرا ، وصادف ان كان في ازمير اسرتان كبيرتان متنازعتان ، فتدخل بطلب من الوالي في اصلاح ذات البين بينهما ووفق في ذلك ، ورأى القوم ان يعربوا لجدي عن تقديرهم لجهوده الخير ، فقدم له كل منهما مبلغ مئة ليرة عثمانية ذهبا .

وعندما عزم جدي على الرحيل ، اشار عليه الوالي بالتوجه الى استانبول للمثول بين يدي السلطان عبد الحميد والحصول على عطفه ورضاه ، فنزل عند المشورة ، وصادف اثناء وجوده فيها حلول يوم ذكرى الاسراء في ٢٧ رجب فقام بتكليف من رجال القصر بتلاوة سيرة المعراج المعروفة فيه ،

وكانت حصيلة ذلك منحه سلطانية بمبلغ مئتي ليرة عثمانية ، مع الوسام المجيدي ورتبة دينية محترمة .

وهكذا كان سفره من طرابلس وهو خالي الوفاض ، ورجوعه اليها ومعه هذا القدر الكبير من المال .

وما ذكرى لهذا الحادث ، وهو واحد من عشرات الحوادث المماثلة الا للتدليل على ما كان يتمتع به رجال الدين من تقدير واحترام ، وان الاموال والهدايا التي كانت تغدق عليهم ما كانت يوما تحمل صفة الصدقة والمنة ، بل كانت على سبيل التقرب منهم ، ومساعدتهم وهم الذين نذروا انفسهم لخدمة الدين على عاديات الحياة .

رجال الدين في الطوائف المسيحية :

ان طائفة الروم الارثوذكس ، تلي الطائفة الاسلامية بعدد السكان في طرابلس ، وكان ابناؤها يزيدون قليلا على ربع سكان المدينة ، اما ابناء الطوائف المسيحية الاخرى فكانوا قلة بعددهم ، وقد بقي تعداد سكان المدينة على هذه النسبة حتى نهاية الحرب العمومية الاولى ، حيث اخذ سكان القرى المارونية المحيطة بطرابلس يتوافدون على السكنى فيها ، فكثر عددهم وكادوا يتساوون في ذلك مع ابناء الطائفة الارثوذكسية .

وكان لابناء طائفة الروم الارثوذكس مراكزهم المرموقة في المجتمع الطرابلسي ، كما كان لمطارنتها المكانة المتقدمة على باقي الرؤساء الروحيين للطوائف المسيحية الاخرى .

ويرى الباحث في تاريخ طرابلس الحديث الاثر العميق للتلاحم الاخوي بين مسلمي ومسيحيي المدينة الذي عمل له مطارنة هذه الطائفة الكريمة منذ فجر القرن العشرين حتى يومنا هذا ، وكان ابرزهم في ذلك المرحوم المطران غريغوريوس حداد الذي شغل هذا المركز ثماني عشرة سنة انتهت بانتخابه في عام ١٩٠٨ بطريركا على الكرسي الانطاكي في الشام .

وكانت روابطه المحبة على اشدها بينه وبين رجالات طرابلس كما كانت صداقته المتينة مع جدي الشيخ علي ، على التخصيص .

وكان يمثل روح التسامح الديني باسمى صوره ، ومما يروى عنه انه قصده يوما المرحوم الشيخ محمد الشميسم احد حفظة القرآن الكريم ، وكان ضريرا رخيم الصوت ، يشكو له احد ابناء رعيته بدين له عنده ، فطيب

المطران خاطره ووعده بتحصيل دينه شريطة ان يتلو على مسامعه سورة السيدة مريم البتول عليها السلام الواردة في الكتاب الكريم ، فلبى الشيخ الطلب وتربع متأدبا واخذ يتلو بصوته الجهوري الجميل السورة الكريمة حتى نهايتها ، ويقول مرافق الشيخ الضرير ان دموع الخشوع قد اخذت تنهمر من عيني المطران على لحيته الكثة وتتساقط منها على صدره ، وبعد ان انتهى الشيخ من التلاوة قام المطران الى غرفته الخاصة واحضر المال المطلوب للشيخ ودفعه له .

وحدثني الصديق السيد فؤاد نادر انه زار يوما المرحوم المطران في دير البلمند المعروف حيث كان ينتجع للراحة ، فابقاه للمبيت عنده ليلته فامتثل لامره ، وفي الصباح الباكر عندما عزم على الرجوع الى طرابلس توجه الى جناح المطران لوداعه ، وما ان قرع باب الغرفة واطل عليه المطران حتى لاحظ ان السرير ما زال على ترتيبه مما يدل انه قضى ليله ساهرا في العبادة والتهجد .

وهناك اخبار كثيرة تروى عن تدينه ووفائه وتسامحه ، ولعل من اشهر هذه الاخبار قضية مبايعته الملك فيصل بالملك على سوريا ، واصراره يوم عزم الملك على ترك الشام بعد دخول الافرنسيين اليها على السفر معه برا لبيعته ولم يعدل عن ذلك الا بعد ان عفاه الملك من بيعته .

وفي اثناء الحرب العمومية الاولى انشأ في مقره البطريركي ملجأ لاطعام الفقراء دون تفريق بين ابناء الطوائف على اختلاف معتقداتهم .

وكان له عطف خاص على زواره من ابناء طرابلس ، وندر ان زاره احدهم دون ان يستضيفه على مائدته ، وكان يوم وفاته رحمه الله يوماً مشهوداً وقد اشترك في الجنازة كبار رجال الدين الاسلامي وعلى رأسهم الشيخ بدر الدين الحسيني المشهور بمكانته الدينية الكبيرة رحمه الله .

وقد تولى من بعده كرسي المطرانية بطرابلس المرحوم الكسندروس طحان وانشأ في ايامه القلاية الحالية في محلة الزهرية ، ثم تلاه المرحوم المطران جحى بعد انتخابه بطريركا على الكرسي الانطاكي ، ومن بعده المرحوم المطران ثيودوسيوس ابو رجيلي احد تلامذة البطريرك حداد ، وقد مشى على سنة معلمه في تعامله مع رجالات طرابلس ، وبعد انتخابه بطريركا على الكرسي الانطاكي تلاه المطران قربان امد الله بحياته .

اما الطائفة المارونية الكريمة فاني اذكر فيما يلي اسماء من اعرف من المطارنة الذين جلسوا على كرسي الابرشية بطرابلس وهم :

المرحوم المطران انطون عريضه الذي تولى ابرشية طرابلس زهاء

خمسا وعشرين سنة ، ثم انتخب بطريركا على الكرسي الانطاكي في عام ١٩٣٣ خلفا للمرسوم البطريرك الحويك ، وكان رحمه الله عمرانيا ويملك ثروة ضخمة وضعها جميعها في خدمة طائفته ، وعمل في ايامه على تأسيس شركتي كهرباء قاديشا والترابة اللبنانية ، كما اشاد قلاية الصليب في اول طريق عزمي .

ثم تلاه المرحوم انطون عبد وقد بنى في ايامه كنيسة مار مارون في شارع عبد القادر باشا المنلا ، جعل الطابق السفلي منها قاعة تقيم فيها جمعية الشبيبة المارونية حفلاتها الادبية والمعارض السنوية ، وكان رحمه الله مقصد كل ذي حاجة ، وعلى جانب كبير من العناية بالمناسبات الاجتماعية .
وبعد وفاته في عام ١٩٧٥ انتخب بدلا عنه المطران انطون جبر حفظه الله .

اما ابناء طائفة الروم الكاثوليك فقد بقي عددهم على مر التاريخ قليلا في طرابلس ، وقد غاب عنها كرسي الابرشية اكثر من مرة ، وكان هـذا الكرسي قد تجدد في عام ١٨٨٠ ، وممن اعرف من مطارنة هذه الطائفة الكريمة المرحوم المطران يوسف كلاس ، ثم المطران اغناطيوس فرح الذي شغل كرسي الابرشية في عام ١٩٦١ وهو اليوم في مستهل كهولته ، يتقن اللغة العربية مع عدة لغات اجنبية وعلى ثقافة تامة امد الله بحياته .

ب — طبقة الافندية والاعيان :

اذا كان رجال الدين يشكلون الطبقة الروحية في المجتمع الطرابلسي ، فاصدق وصف للافندية والاعيان انهم يشكلون فيه الطبقة الزمنية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى .

والفرق بين الافندي والعين على الرغم من تساوي مركزهما الاجتماعي لحد ما هو ان كلمة افندي لقب كان يغدقه الحكام الاقدمون على من يرضون عنه من رعاياهم ، يتوارثونه ابا عن جد ، اما الاعيان فهم من لهم او لآبائهم تاريخ طيب في المدينة ، وكانوا يملكون المال والعقار .

وكان في المدينة حتى اواخر الحكم العثماني فريق مـن رجال الدين والاعيان يحصلون بفرمان سلطاني على رتب مختلفة الدرجات من بيك الى باشا الى ميرميران الى بالا الى باية ازمير المجردة وغير المجردة ، وعلى اوسمة مختلفة الانواع من مجيدي الى عثماني الى مرصع وغير المرصع ، وكان لكل رتبة لباسها المميز والقابها المعينة ، وكان لهذه الرتب والاوسمة فهرس رسمي يحتوي على ما يقارب الثلاثمائة صفحة ، يتضمن درجات كل رتبة او وسام والالقاب التي تطلق على اصحابها ومواقعهم في التشريفات الرسمية .

وكان للعين ان يتعاطى التجارة وغيرها من الاعمال الحرة ، امــا الافندي فلم يكن يتعاطى اي عمل حر .

وكان ابناء الافندية والاعيان يتعيرون من الانتساب للوظائف الحكومية ، وقد بقوا على هذه الحال حتى نهاية الحرب العمومية الاولى ، حيث بدأت تتغير مواقفهم منها ، واخذوا ينخرطون في سلكها .

وكان لجميع افندية البلد ولكثير من اعيانها منازل مفتوحة الابواب من الصباح حتى آخر الهزيع الاول من الليل ، يتلقون فيها مراجعات الناس ويعملون على حل مشاكلهم ، وكانوا مسموعي الكلمة ، مهابي الجانب ، وندر ان تدخلوا بخلاف وفشلوا في حله .

وكان لبعض الافندية ندماء في منازيلهم يقومون بالترفيه عن الزوار بما يروون من حكايات او يأتون من حركات

وكنت اقوم في بعض الليالي بقيادة المرحوم جدي في زياراته لجارنا المرحوم عبد الحميد افندي الشنبور ، وكان يلازم المنزول نديم من آل المنجد لم اعد اذكر اسمه ، وكان يدخل الكثير من المسرور على نفسي ، بما كان يقوم به من حركات مثيرة للضحك والابتهاج .

وكان من عادة الافندية الدخول في صبيحة كل يوم جمعة الى احــد الحمامات العامة للاغتسال ، تهيئة لحضور الصلاة الجامعة في الجامـــع المنصوري الكبير ، وكان يحضر هذه الصلاة المتصرف واركان الحكومة واعيان المدينة دون استثناء ، وفيه كنت اشاهدهم وتنطبــع في مخيلتي اوصافهم فردا فردا .

ومما يروى في هذه المناسبة ان حضر الى حمام النوري في احد ايــام الجمعة بعض هؤلاء الافندية كالمعتاد ، يرافقهم نديم احدهم ، فوجدوا من جملة المغتسلين قائد درك المدينة ، وكان اسود اللون ، وعلى شبه كبير بعلي بجمال من حفدة مماليك الحاكم مصطفى بربر المشهور ، وكان بين الافندية وبين هذا القائد فتور في العلاقات ، لصلابته في تحصيل الضرائب المستحقة عليهم لصندوق خزينة الدولة ، فارادوا اذلاله ، وبعد التشاور فيما بينهم استقر رايهم على تكليف النديم الذي يرافقهم التصدي له بصفعه على

رقبته بحجة انه علي بجمال ، وبعد ان اغروا النديم بالمال اتجه الى القائد وصفعه على رقبته صفعة قوية مردفا الصفعة بقوله (ولا علي بجمال شو جابك الى الحمام في مثل هذا اليوم المخصص للافندية) فظن القائد بعد تلقيــه للصفعة ، ان مرد ذلك هو الشبه بينه وبين علي بجمال المشار اليه ، فعرف النديم بصفته الحقيقية ، فاعتذر له النديم على تسرعه وانتهى الامر عند هذا الحد .

ولم يكتف الافندية بذلك بل ارادوا التعمق في اذلاله ، فطلبوا الى النديم تكرار الصفعة ، وبعد ان وعدوه بمزيد من المال ، انتهز فرصة تغيير القائد للمكان الذي كان يجلس عليه ، فتقدم منه ، وصفعه على رقبته صفعة ثانية مردفا ذلك بقوله له (سبق لي ان وقعت في خطأ مع حضرة القائد اذ ظننته انت ، فما الذي حضر بك يوم الجمعة الى الحمام) فاعاد القائد تعريفه بشخصه ، وكرر النديم اعتذاره من وقوعه بالخطأ الناجم عن تغييره لمكان جلوسه ، فقبل القائد العذر على مضض ، ومنعا لاي التباس محتمل الوقوع ، استحضر لباس راسه العسكري المميز واعتمره ، عندها اراد الافندية اكمال فصول هذه الرواية المضحكة ، فاصروا على النديم بضربة ثالثة مهما تكن النتائج ، ولما رأى النديم اصرار الافندية على ذلك ، ولم يكن بمقدوره مخالفة امرهم ، اتجه الى القائد بخطى متئدة وخاطبه بقوله (والله يا بيك طالما ان هؤلاء الافندية بالوجود لا يمكنني ان افهمك الا علي بجمال) وبادره بالصفعة الثالثة قبل ان يثوب القائد الى رشده .

عندها ادرك القائد متأخرا حقيقة اللعبة فهجم على النديم قاصدا قتله ، وكان النديم اخف منه حركة ، فلاذ بالفرار الى خارج الحمام عاريا ، وكان هذا الحادث بمثابة درس للقائد افهمه حقيقة واقع الافندية وعجزه عن محاربتهم .

وكان الافندية والاعيان يتمسكون بالتقاليد والعادات الخاصة بهم تمام التمسك ، ولا يسمحون لانفسهم او لغيرهم الاخلال بها اطلاقا .

ومن هذه التقاليد والعادات التي كانت تسود المجتمع الطرابلسي ، وبصورة خاصة طبقة الافندية والاعيان حتى اواخر العقد الاول من القرن ، تلك التي تدلنا عليها الحكايات الواقعية التي ارويها على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر :

١ — تمسك الافندية بالقابهم :

مما يروى في ذلك انه جاء احدهم يوما الى جدي الشيخ علي بعريضة

مرفوعة الى المقامات العليا تتضمن بعض المطالب للتوقيع عليها ، ووفقا لما هو متبع في تلك الايام ، قد وضع بجانب توقيع جدي عبارة (سيدنا ومولانا الشيخ علي رشيد افندي الميقاتي) وعندما عرضت العريضة على احد الافندية للاشتراك بتوقيعها وشاهد العبارة المدرجة بجانب توقيع جدي ، خاطب حاملها بقوله (صحيح ان الشيخ علي هو سيدنا ومولانا) ولكن من اين اتيت له بالافندية ؟

لقد قبل الافندي بكل طيبة خاطر ان يكون جدي سيده ومولاه ، ولكنه رفض ان يطلق عليه لقب افندي ، لا لشيء الا لانه ليس من طبقة الافندية ، وهو في نظري على منتهى الحق في موقفه .

٢ — تقليد اعطاء كل ذي حق حقه :

مما يروى في هذا المجال انه كان بين المرحوم رشيد كرامي الكبير ، العضو الطبيعي في مجلس ادارة المتصرفية بصفته مفتيا ، وبين المرحوم عبد الحميد الشنبور ، احد ابرز افندية المدينة والعضو المنتخب في المجلس المذكور ، اختلاف في وجهات النظر ببعض الامور المطروحة على المجلس ، وعندما حان موعد انتخاب اعضاء المجلس الجدد ، رأى المرحوم الشنبور تجنب الدخول في معركة مع المرحوم كرامي ، الذي كان من المفروض حسب ظنه محاربته لعدم تجديد عضويته ، فاعلن عزوفه عن السعي للتجديد ، وعندما بلغ رشيد افندي الخبر ، ادرك بالفراسة سبب هذا العزوف ، فقام بزيارة له في منزوله ، واصر عليه بالرجوع عما عزم عليه لحاجة المجلس الماسة لآرائه الصائبة ، مشيرا الى ان ما بينهما من خلاف في وجهات النظر لا يجوز ان يؤدي الى حرمان المدينة من خدماته التي هي في اشد الحاجة اليها .

٣ — تقليد كيفية التصرف في الاجتماعات الخاصة والعامة :

مما يروى في هذا المجال ، ان المرحوم خير الدين بك عدره ، وهو سليل بيت اشتهر ابناؤه بالتقوى والوجاهة وعمل الخير ، ذهب يوما لزيارة المرحوم رشيد مصطفى كرامي الكبير في منزوله ، وصادف ان جلس دون انتباه او قصد في مكان يعلو مقاما مكان المرحوم عبد القادر بك كباره الذي كان حاضرا المجلس ، فنبهه المرحوم كباره الى ما ارتكبه من خطأ بالتقدم عليه في مجلسه على الرغم من انه لا يحمل ما يحمله من رتبة منعم بها من السلطان ، فكظم المرحوم عدره غيظه ، واذعن لمشيئة المرحوم كباره ، اذ لم يكن من حقه حسب التقاليد الاعتراض على ما اشار اليه به ، الا انه لم يشأ ان تمر هذه

الحادثة دون جواب ، فركب البحر متوجها الى استانبول ، وتمكن من الحصول على رتبة توازي رتبة عبد القادر بك ، وبرجوعه الى طرابلس ، تعمد في احد الايام ان يجلس في منزول كرامي نفسه في مكان يعلو مقاما مكان عبد القادر بك ، وعندما كرر له عبد القادر بك التنبيه ، اجابه بانه يحمل الرتبة نفسها التي يحملها هو ، فلفت نظره الى امر الاقدمية في الحصول على الرتبة ، فاعتذر له خير الدين بك واخلى مكان جلوسه ، ثم توجه ثانية الى استانبول وحصل على رتبة تعلو رتبة عبد القادر بك ، وفي الاجتماعات اللاحقة بينهما لم ير عبد القادر بك من مجال للاعتراض على تقدم خير الدين بك عليه .

ان هذه الحادثة على طرافتها تعطينا فكرة واضحة عن درجة تقيد الناس في تلك الايام وتمسكهم بالتقاليد ، وهي لعمري تقاليد محمودة لو تمسكنا بها لما كان يعمنا ما يعمنا اليوم من فوضى في التشريفات .

٤ — تقليد وقوف كل انسان عند حده :

ان حب السيادة والظهور ، غريزة متأصلة في نفوس البشر ، انما كان لذلك عند الوجوه والاعيان حد لم يفكر احد بتجاوزه ، ولا سولت النفس لاي منهم اسكات الاخرين ليبقى له وحده حق تمثيل المدينة والتصرف بمقدراتها فوجوه المدينة وقادة الفكر فيها سواسية في العمل في حقل الخدمات العامة ، كل في حدود امكاناته ، وضمن نطاق اجتهاداته ، وكان للاثرياء منهم اتباع لقضاء حاجاتهم الخاصة فقط ، كالمناظرة على الاملاك وسواها من الخدمات ، ولم يستعملوا يوما هؤلاء الاتباع في التعرض للاخرين من اقرانهم بسوء ، بل على العكس كانت تقاليدهم تقضي بعدم استخدام هؤلاء الاتباع في مهاجمة امثالهم عند وقوع خلاف فيما بينهم .

ومما يروى في هذا الخصوص انه وقع تنافس بين المرحوم احمد افندي اسماعيل المقدم ، وهو من افندية طرابلس البارزين وبين مثيله من الافندية على عضوية مجلس الادارة ، وبينما كان يوما يتحدث في منزوله مع بعض مؤيديه من وجوه المدينة بشؤون الانتخاب ، تلفظ احد اتباعه بكلام ناب بحق المنافس ، فما كان من المرحوم المقدم الا ان نهره وطرده من حضرته لتجرئه ببذيء الكلام على من يعلوه بالمقام .

٥ — الطريقة المثلى في فض الخلافات بين وجوه المدينة :

كان المرحوم محمود آغا خضر آغا من اعيان مقاطعة الضنية المقيمين في طرابلس وجيها مرموقا ، وقد شغل رياسة بلدية طرابلس مدة من الزمن ،

وكان حاد اللسان مع من يخاصمه ، وقد وقع يوما بينه وبين المرحوم عبد القادر باشا المنلا فتور جعله يتناوله بالذم في منزوله بحضور زواره من وجوه المدينة ، ولما بلغ المرحوم المنلا موقف محمود آغا منه ، عمد الى زيارته في احدى الليالي في منزوله ، وكان للمنزول ممر طويل على الزائر اجتيازه قبل دخول المنزول ، وفي اثناء اجتياز المرحوم المنلا للممر سمع باذنه شتائم الآغا بحقه ، فواصل سيره وما ان دخل المنزول وبادر الناس بالسلام حتى شعر الآغا بفظاعة تصرفاته نحو رجل يحمل في نفسه هذا القدر الكبير من مكارم الاخلاق فاستقبله استقبالا حارا واجلسه في مكانه من المنزول ، وهذا يعني وقتئذ منتهى التكريم للزائر ، وانتهت مع هذه الزيارة خصومة الآغا للباشا ، ورجع يذكره في كل مناسبة بالمديح والثناء .

وهناك امثلة كثيرة عن مختلف العادات والتقاليد التي كان يعيش بجوها افندية البلد واعيانه ، رأيت ان اصرف النظر عن ذكرها بتفصيل خشية ملل القارىء وضجره ، لا سيما وان ما اوردته من هذه التقاليد كاف لاعطاء الصورة الواضحة عن الوضع الاجتماعي الذي كانت عليه هذه الطبقة حتى نهاية العقد الاول من القرن العشرين .

ج ــ طبقة التجار :

ان هذه الطبقة في طرابلس ، تختلف عن مثيلاتها في المدن السورية من حيث المكانة الاجتماعية ، فهي في طرابلس تلتقي على قدم المساوات مع طبقة الوجوه والاعيان ، كما تلتقي معهم في التقاليد والعادات ، وكان جميع رجالات هذه الطبقة من اسر محترمة ذات ماض عريق في تاريخ المدينة ، وما تفريقي لها عن طبقة الوجوه والاعيان الا لمجرد ازالة الالتباس الذي قد يقع به الغير من ابناء باقي المدن السورية في نظرتهم للتجار عندهم .

وكانت التجارة في طرابلس محصورة باسر اسلامية ومسيحية معينة ، فاشهر الاسر الاسلامية هي : عدره ، عويضة ، علم الدين ، عز الدين ، البركة ، الذوق ، البارودي ، السيد اديب عبد الواحد ، واشهرها من الاسر المسيحية هي : كاتسفليس ، نحاس ، البرط ، حبيب ، معتوق ، مسعد ، فاضل ، نصور ، كيروز ، مر .

وكان التعامل التجاري بين تجار طرابلس على اختلاف مذاهبهم الدينية وثيق الترابط والثقة المتبادلة .

د ــ طبقة العوام :

كانت هذه الطبقة تشكل ٩٥٪ من سكان المدينة ، تتعاطى شتى انواع الاعمال من بيع المواد الغذائية المختلفة ، والصناعات المتعددة ، والخدمات المتباينة ، وبصورة عامة فقد كان على اكتافها يقع ثقل بناء المجتمع الطرابلسي .

وكانت الامية تشمل جميع ابناء هذه الطبقة ، وكان القليل القليل منهم من يسعده الحظ بتعلم قراءة القرآن الكريم في الكتاتيب الموجودة في الاحياء للتمكن من القيام بواجبات الفروض الدينية واهمهاالصلاة ، اما تعلم الكتابة فقد كان معدوما بينهم تقريبا .

وبالنظر لهذا الوضع المؤلم فقد قضت الحاجة ان يكون في كل حي من الاحياء رجل على علم بالقراءة والكتابة ومبادىء علم الحساب يمسك دفاتر بالديون التي لكل فرد من باعة المفرق بذمة زبائنهم ، حيث كانوا يأتون اليه في مساء كل يوم فيدون لهم استحقاقاتهم من المدينين ، ثم يقوم في آخر الشهر باخراج قوائم بالديون يسلمها الى الباعة للتحصيل ، وكان هذا التعامل البدائي من الدقة والامانة لدرجة انه لم يكن يقع على ما اعلم اي خلاف بين الدائن والمدين على صحة الحساب وعدمه .

وكان الكثير من ابناء هذه الطبقة يتحلون بمواهب خارقة ، وبالذكاء والفطنة ، وكانت هذه الطاقات تذهب هدرا في خضم الجهل المطبق المحيط بهم .

ومما اتذكره في مجال المواهب الخارقة شاب يدعى بشير مستو صنعته طحان ، بلغ به الذكاء درجة انه مع اميته كان يحل تلقائيا اصعب العمليات الحسابية تعقيدا دون الرجوع الى الورقة والقلم ، وفي يقيني انه لو كتب لهذا الشاب وللكثير من امثاله من ابناء هذه الطبقة فرصة التعليم لاصبحوا من مشاهير العلماء .

وكانت تغلب على معظم ابناء هذه الطبقة الامانة والوداعة والصدق والنشاط في العمل ، والرضى النفسي بواقع الحال ، والدليل على ذلك ما كانوا يركزون على جدران دكاكينهم من لوحات تتضمن الاحاديث الشريفة والاقوال المأثورة المتعلقة بذلك والتي قل ما خلت جدران الدكاكين منها .

فمن الاحاديث الشريفة التي كانوا يزينون بها جدران محلاتهم ، قوله عليه الصلاة والسلام :

ــ اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا ، واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا .

ـــ اية المنافق ثلاث ، اذا حدث كذب ، واذا وعد اخلف ، واذا اؤتمن خان .

ـــ تعس عبد بطنه تعس عبد الدينار .

ومن الاقوال المأثورة :

ـــ القناعة كنز .

ـــ الحسود لا يسود .

ـــ اشكر الهك في الحالين حال رضى   وحال بؤس فان الله ذو كرم

وانظر لمن هو ادنى منك مرتبـــة   ترى بانك في اوج من النعم

ـــ ولدتك امك يـــا ابن آدم باكيا   والناس حولك يضحكون حبورا

فاجهد لنفسك ان تكون اذا بكوا   في يوم موتك ضاحكا مسرورا

وغيرها وغيرها من الاحاديث الشريفة ، والحكم والاقوال المأثورة ، الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر .

وكان كثيرون منهم يقبلون على حضور الدروس الدينية التي تلقى في المساجد بين صلاتي المغرب والعشاء ، وممن اتذكره رجل من العامة كان يحضر درس العلامة المرحوم الشيخ عبد الكريم عويضة في المسجد المنصوري الكبير ، وكان الدرس يستغرق عادة ساعة من الزمن ، وما ان ينتهي الاستاذ عويضة من القاء درسه حتى يكون هذا الرجل الامي قد حفظ الدرس على ظهر قلبه بجميع نواحيه ، فيعيده على مسمعك بكل دقة دون ان يهمل كلمة واحدة مما جاء فيه .

الباب الاول ـــ الحياة الاجتماعية

الفصل الثاني ـــ احوال الناس

كان الناس في طرابلس حتى مطلع العقد الثاني من القرن العشرين ميلادي يعيشون عيشة بسيطة بكل ما في الكلمة من معنى ، وكان نمط الحياة واحدا بين مجمل الناس .

ولم يكن من مجال لترفه الموسرين وتمتعهم بمباهج الحياة ، الا في حدود ضيقة لا تثير حقد المحرومين ، فمما اذكره واعيه مثلا انه لم يكن من عربات خيل خاصة (وهي الواسطة الوحيدة للتنقلات البرية للمسافات البعيدة في تلك الايام) الا لدى افراد قلائل من الاثرياء هم المغفور لهم عبد القادر المنلا ورشيد كرامي مفتي طرابلس ، وعبد الحميد الشنبور ، واحمد اسماعيل المقدم ، وعبد القادر محمد الذوق ، اذ كان اضطرارهم لتفقد املاكهم في الامكنة النائية من اقضية تلكلخ وعكار والكورة يوجب عليهم اقتناء هذه العربات ، اما باقي الناس ممن يملكون جنائن ليمون او كروم زيتون في ضواحي المدينة ، فكانوا يستخدمون الحمير في تنقلاتهم اليها ، وذلك اما بالاقتناء او بطريق الاجرة من اصحاب المواخير المخصصة لذلك .

ولم يكن الاصطياف في الجبال معروفا لصعوبة المواصلات ، فكان العلماء يصطافون في قرية القلمون ، والتجار وبعض الوجوه في قرية المنية والبعض الآخر في قرية سير الضنية ، اما الوجوه المسيحيون فكانوا يصطافون في قريتي شكا وانفه التابعين لقضاء الكورة ، ومن كانت تساعده ظروفه من عامـة الناس ، فيقضون فصل الربيع ، وبعض فصل الصيف في جنائن الليمون او في تخشيبات يقيمونها على شاطىء البحر .

وكان القضاء والقدر يتحكم بمشاعر الناس ، وفي قرارة نفوسهم ، وكان الاعتقاد السائد بينهم ان الفقر والغنى ، والصحة والمرض ، وما يصادف المرء من توفيق في عمله وعدمه ، والربح والخسارة في البيع والشراء ، هي امور تحصل جميعها بقضاء من الله وقدره .

ومن جهة ثانية فقد كان معظم الاثرياء والتجار يؤدون فريضة الزكاة عن اموالهم كاملة غير منقوصة ، وكان موعد توزيع اموال الزكاة شهر رمضان المبارك من كل عام ، وكان يصيب رجال الدين قدر كبير من هذه الاموال ، تدفع اليهم من اربابها مع تقبيل الايدي والشكر على قبولها ، وكانت اموال الزكاة هذه تغطي القسم الاكبر من نفقات الحاصلين عليها كل سنة .

هذا ولم يكن ليطوي فقير احشاءه على جوع خلال ليالي شهر رمضان ، اذ كان يقام في هذا الشهر في اغلب بيوت الاغنياء مائدتا طعام ، الاولى للضيوف المدعوين ، والثانية لمن شاء الحضور من الفقراء المعوزين ، وكان الطعام على كلتيهما من انواع واحدة لا تمييز بينها ولا تفريق .

وكانت اسباب الحياة الهنيئة الرضية متوفرة للسواد الاعظم من الناس ، ومرد ذلك الى عدة اور اهمها :

اولا : ان دخل الفرد مهما ضئل ، كان يبقى متناسبا ، بالنظر لرخص المعيشة ، لا سيما وان بامكان من يرغب تعليم اولاده الحاقهم بالمدرسة الرسمية الوحيدة في المدينة ، او باحد اروقة التعليم التي كانت تغص بها المساجد حيث كان يتولى التدريس فيها افاضل العلماء كما سيأتي شرحه في باب الحياة العلمية من هذه الرسالة .

ثانيا : كثرة الاوقاف الذرية ، وكانت ايرادات هذه الاوقاف تغطي قسما كبيرا من نفقات مستحقيها السنوية .

وعندما نعلم ان طرابلس ، بما تحتويه في معظمها من عقارات وابنية ، وفي كثير مما هو داخل في نطاقها الاداري من جنائن ليمون وكروم زيتون ، مربوطة باوقاف ذرية ، ندرك اهمية ايرادات هذه الاوقاف ، وما كانت تدره من مال وفير على مستحقيها ، وما يؤسف له اشد الاسف هو ان الكثير الكثير من هذه الاوقاف قد انتقلت بعد عملية المساحة التي جرت في عام ١٩٣٢ الى ملكيات خاصة ، وما اعقب ذلك من قانون بيع الاوقاف الذرية حيث لم يبق من هذه الاوقاف الا النذر اليسير .

ثالثا : خلو المدينة من الاماكن التي تستدعي الانفاق كالسينما وغيرها من اماكن اللهو ، فالسينما مثلا لم تدخل حياة المدينة الا في عام ١٩١٠ ميلادية ، وكانت مقتصرة على مناظر محدودة ، كمشاهد الخراب التي تحدثها الزلازل في انحاء العالم ، ومشاهد صيد الطيور والحيوانات المفترسة في الغابات وغيرها من المشاهد العادية .

اما تخوت الطرب كما كانوا يسمونها ، فقد كان معظمها من المغنيين المصريين ، وكانت لا ترتاد المدينة الا اياما معدودات في السنة ، وكان يقتصر حضورها على الشباب ، وكذلك فرقتا التمثيل المسرحي بقيادة الشيخ سلامة حجازي ، وزكي عكاشة واخوانه فقد كانتا بمثابة مدرسة اخلاقية واجتماعية ، بما كانتا تمثلانه على مسرح زهرة الفيحاء الذي كان شيده المرحوم حسن الانجا

على ظهر مخازنه الكائنة في ساحة التل وهو المسرح المعروف اليوم بـ (الباروكه) من روايات تاريخية ، فكان مكوث الواحـدة منهما في طرابلس لا يزيد على الاسبوع او الاسبوعين ، ويمتد غيابها بعد ذلك السنة او اكثر .

قضاء الاوقات :

كان الناس عندما ينتهون من عملهم في عصر كل يوم ، يغلقون ابواب متاجرهم ويتوجهون الى المقاهي حيث يبقون فيها الى غروب الشمس ، وكان معظم الناس بعد هذا الوقت يذهبون الى بيوتهم ، والقلة تبقى في مقهى التل العالي ، لحضور حفلة (قره كروز) او في مقهى الدالاتي قرب سراي الحكومة لحضور حفلة (ابو علي انبويا) كما سيأتي ذكرهما .

وكانوا بين وقت وآخر يقضون ايام الجمعة بالسيارين في احد مواقع بركة البداوي ، برج رأس النهر ، عين ابو حلقة في البحصاص ، عين البرج في المنيه .

وكان اهم هذه السيارين ، هو السيران الذي كان يتم بمناسبة قـرب حلول شهر رمضان .

اما النساء فكن يقمن بدورهن باحياء سيارين مماثلة ، ولكن مع بعضهن وفي داخل جنائن الليمون .

وكان بيع الخمور وتعاطيها ممنوعا منعا باتا الا في الاحياء المسيحية وبصورة سرية ، وكذلك بيوت الدعارة ، فقد كانت سرية للغاية ، ولم تسمح الحكومة بالبغاء الا في عام ١٩١٠ ، وكان الناس يتشددون في محاربة هاتين الآفتين الاجتماعيتين كما كان السكير منبوذا من اهله ومعارفه .

الحاج محمود الحارس — عبد الغني عناني :

عبقريان من عباقرة العقد الاول من القرن العشرين ، على الرغم من انهما لم يعطيا اي نصيب من العلم ، فقد كانا موهبين فطريا بما كانا يقومان به من العاب وحركات وقصص في سبيل تسلية الجماهير والترويح عنها .

فالاول الحاج محمود ، هو طرابلسي المولد ، قد جعل صنعته تحريك خيالات من وراء شاشة صغيرة تنار بالسراج ينصبها صيفا في مقهى التـل العالي وشتاء في احد المقاهي ضمن المدينة ، ويبدأ حفلته بعد صلاة عشاء كل يوم ، واهم ابطال الشاشة رجلان ، الاول يدعى قرهكوز والثاني عيواظ ؛ وهي تمثيليات مأخوذة عن التركية وكان الاول كما يصفه في المشاهد من عامة

الناس اميا واحمق جسورا متزوجا من ابنة احد كبار القوم ، وزوجته على شكله من حيث الجراة والاقدام .

والثاني من اشراف مدينة بورصه في الاناضول ، متعلم ويقرض الشعر ، متمحنك في آرائه ، ضعيف الشخصية ، وزوجته تحاكيه في الثقافة والضعف .

هذان هما الخيالان الاساسيان في الشاشة ، يليهما عدة اشخاص امثال طرمان رئيس الخيمة ، وقاشقو آغا رجل الامن ، وابو الشباب بكري مصطفى مدمن الخمر الشجاع والمهاب ، والمدلل الولد الصغير حبيب والدته وابـو يانطوبو الخاخام اليهودي ، وغيرهم من الخيالات التي تربو على الخمسين ، والتي كانت تظهر على الشاشة حسب الفصول المعروضة ، وكلها من اختراع الحاج محمود المذكور .

وكان كل فصل يبدأ بموال ينشده احد المغنين ، ويبرز الاخوان بالروح عيواظ وقره كروز ، وبعد انتهاء المغني من مواله ، يبادر عيواظ قره كوز بالتحية ويعلن بما في الاسواق في ذاك اليوم من اطايب المواد الغذائية لدى باعتها بطريقة مشوقة ، حيث يكون ذلك بمثابة اعلام للجمهور عن تلك المواد وامكنة بيعها ، ثم يباشران بالفصل المخصص لذلك اليوم ويستمر المشهد حوالي الساعتين .

وكان لكل خيال من خيالات الخيمة صوته الذي يميزه عن الاخرين ، يطلقه الحاج محمود من فمه دون ان يخطئه في اللهجة يوما ، وكان بامكان الواحد من الحضور معرفة صاحب الصوت دون ان يراه ، وكان الحاج محمود يطلق في بعض المشاهد اصوات الخيالات العدة ، فيخيل الى المشاهد ان هذه الخيالات تتكلم جميعها دفعة واحدة مع ان المتكلم واحد .

وكانت المشاهد جميعها تحض في معانيها على حب الفضيلة وتسفيه الرزيلة باسلوب شيق واخاذ ، وكثيرا ما انتقدت تصرفات بعض الحكـــام بالاسوب نفسه ، دون ان يدع اي مجال لمقاضاته .

وكان يحضر هذه الحفلات كبار رجالات البلد حيث يجلسون في الصف الخلفي ، يتقدمهم في الترتيب لجهة الخيمة الشباب ثم الاولاد الصغار الذين يجلسون قرب الخيمة .

اما العبقري الثاني عبد الغني العناني الملقب بابي علي انبوبا فهو دمشقي الاصل استوطن طرابلس في العقد الاول من القرن ، وهو اقل من الاول شهرة ومقاما ، يجلس الناس في الحفلات التي يقيمها في مقاهي البلدة والميناء صفوفا

متقابلة تاركين بينها مجالا بعرض مترين تقريبا ليجول فيه ذهابا وايابا ، راويا الحكايات القديمة وما لاقاه في حياته من الشدائد والاهوال والسجون في اثناء تنقله في بلاد الفرس والترك والعرب ، وكان حاضر النكتة ولو كانت عليه .

وكان في جملة العاملين في مقاهي الاحياء الشعبية ، رواة اخبار عنترة ابن شداد ، او قصة الملك الضاهر ومواقفه مع الصليبيين ، وقصة الملك سيف بن ذي يزن ومغامراته مع الجن ، وابو زيد الهلالي وخلافهم من رجـــالات الاساطير وكان الاقبال على حضورها كبيرا .

وكان بعض الحضور يتشيعون لبطل القصة ، ويتتبعون اخبار مغامراته بكل انتباه وحماسة ، وعندما يصل الراوي في سرد القصة الى مواقف حرجة للبطل ترتسم على وجوههم مظاهر الجزع والخوف ، ويتلفظون بعبارات السباب والشتائم بحق خصوم البطل ، وعندما يخرج البطل من محنته منتصرا تعتريهم موجة من الفرح والسرور ، ويحيونه باجمل تحيات المديح والثناء .

احاديث الجن :

اعتاد اغلب الناس ايام زمان على قضاء لياليهم في البيـــوت فالوجهـــاء يقضونها في منازلهم ، وباقي الناس بعضهم في بيوت بعض بشكل دوري ، وكانت اغلب الاحاديث في اجتماعاتهم هذه تدور حول اخبار الجن ، ولم يكن يقتصر الخوف من الجن على الاشخاص العاديين ، بل كان يشمل ذلك الكثير من الرجال المشهورين بالشجاعة الذين كانوا عند انكار احدهم الخوف من الجن ، يطلبون اليه للتحقق مما انكر الذهاب ليلا الى موقع قبور الغرباء المعروف ، ودق مسمار في شجرة الجميز التي كانت موجودة هناك ، وحصل يوما ان قبل احد الشجعان التحدي ، وذهب الى قبور الغرباء ليـلا ودق المسمار في الشجرة ، فعلق طرف ثوبه بالمسمار اثناء دقه له ، وعندما هم بالرجوع بعد ادائه المهمة منعه الثوب العالق بالمسمار من التحرك ، فخيل اليه ان الجن قد امسكت بتلابيبه فوقع على الارض مغشيا عليه ، ولما استبطاء رفاقه توجهوا مجتمعين الى الموقع ، فشاهدوا رفيقهم فاقد الوعي ، فعملوا على اسعافه حتى استفاق .

الخلوات الصوفية وحفلات الذكر :

كانت الخلوات الصوفية وحفلات الذكر في طرابلس حتى نهاية العقد الثاني من القرن كثيرة وكان المنتسبون لهذه الطرق يعدون بالمئات ، وكان مشايخ الطرق المذكورة يحيون حفلاتهم سرا وعلنا كل ليلة في بيوتهم او في اماكن

العبادة ، وكان من اهم هذه الحفلات ، حفلة تلاوة ورد السحر التي كانت تقام في غرفة الاثر الشريف في الجامع المنصوري الكبير قبل صلاة فجر كل يوم ، وكان لآل المسقاوي الاكارم دار تقع احدى غرفه بلصق غرفة الاثر الشريف ، وكانت ربة البيت تستمع الى الورد من غرفتها ، فاشكل عليها فهم جملة (واغفر ياربي لسلسلتي ولها رق اعلى الدرج) التي تتلى في نهاية الورد ، فاختلط عليها بين كلمة سلسلتي وكلمة سلتي فسألت ولدها المرحوم الشيخ عبد الله يوما وكان من ظرفاء المدينة المشهورين عن المقصود من كلمة سلتي ، فضحك الشيخ رحمه الله لهذا الالتباس واجابها على الفور ان المقصود هو الشيخ علي رشيد الميقاتي مشيرا بذلك الى كثرة حفلات الطعام التي كان يدعى اليها المرحوم جدي ، فكانت نكتة ضحك لها من سمعها من الناس كثيرا لاصابتها المرمى ولو بطريقة غير مباشرة .

وكان للطريقة المولوية حفلاتها العامرة ، بعد صلاة الجمعة من كل اسبوع خلال فصل الربيع يحضرها رجال الحكومة وجمهور كبير من الاعيان وعامة الناس .

وبناء المولوية قائم على منحدر محلة ابي سمراء لجهة نهر ابي علي ، وهذه التكية كان لها عدة اوقاف ينفق ريعها على الدراويش المنتسبين للطريقة ، وكانت حفلات المولوية مزدهرة في ايام شيخ الطريقة المرحوم الشيخ شفيق المولوي ، وقد ابطلت هذه الحفلات بعد وفاته رحمه الله .

وكان الدراويش يقومون بالفتل على طريقة مؤسس الطريقة جلال الدين الرومي قدس الله سره ، على انغام القصبة (المنجيرة) والطبلة بشكل يوحي بالخشوع وينقل الانسان الى عالم الروحانيات .

تقاليد الزواج :

كانت تقاليد الزواج واحدة عند جميع طبقات الناس ، وكان التمسك بعادة حجب الانثى عن عيون الناس ابتداء من سن الثامنة من العمر يؤدي بالراغب في الزواج الى استحالة رؤية المخطوبة المختارة قبل الزواج ، وقد بقيت عادة حجب المراة عن عيون الناس على اشدها حتى منتصف العقد الثاني من القرن .

وكان لكل بيت داية لها عدة وظائف هامة ، منها توليد الحامل ، وتغسيل اناث اهل البيت والذكور الصغار في الحمامات العامة ، اذ لم يكن في البيوت

حمامات خاصة كما هي الحالة اليوم ، والاشراف على الحفلات على انواعها التي تقام في بيوت الزبائن .

وبالنظر لما تقدم من اسباب فقد كانت الداية تتمتع باكرام الناس ورعايتهم ويتحفونها بالهدايا والعيديات ، كل بحسب قدرته .

وعندما يعتزم احد الشباب الزواج كانت والدته تستشير دايتها بالامر ، وبعدما تتزود الداية بالمواصفات التي يرغبها الشاب في الزوجة العتيدة ، تشير الى عدة بنات لزبائنها او زبائن غيرها تكتمل فيهن الصفات المطلوبة ، وبعد ذلك تتفق الوالدة والداية على القيام بالزيارات التقليدية لبيوت هؤلاء البنات لمشاهدتهن عن كثب ، فتتم الزيارات دون تعارف سابق ، وبمجرد دخول البيت المقصود تدرك ربته بالبداهة سبب الزيارة ، ويتم في اثناء الحديث التعارف دون التعرض لسبب الزيارة ، وبعد ان ترتاح والدة المرشح للزواج للمعلومات التي حصلت عليها في اثناء الحديث ، تظهر لربة البيت رغبتها في التعرف ببناتها ، والبنات يكن قد عرفن بالبداهة ايضا سبب الزيارة واختفين عن اعين الزائرات ، فتقوم الوالدة اذا ارتاحت بدورها للحديث بمناداة ابنتها او بناتها اذا كن اكثر من واحدة ، فلا يلبين النداء الامر الذي يضطرها اخيرا للذهاب اليهن واحضارهن عنوة ، وعندما يدخلن الى حيث وجود الزائرتين ، يتقدمن منهما وبعد ان يقبلن ايديهما يقعدن بمنتهى الحشمة والحياء ، والويل كل الويل لمن تمتنع عن تقبيل الايدي ، فهي بنظرهن وقحة وقليلة الادب ، وقد يؤدي موقفها هذا الى صرف النظر عن خطبتها ولو كانت في غاية من الرقة والجمال .

وبرجوع الوالدة الى البيت يكون ابنها على احر من الجمر لسماع نتائج الزيارة ، فتروي له بالتفصيل دقيق اوصاف من يقع اختيارها عليها ، وعندما يحصل الرضى ، يقوم كبير الاسرة بتكليف احد وجوه محلته التوسط بين الاسرتين بامر الزواج ، وبعد ان يتم الاتفاق ، يعين موعد حفلة القران وتكون عادة في بيت آل الخطيبة ، يختفي منها كما جرت التقاليد الخطيب حيث ينوب عنه في اجراء العقد كبير اسرته ، وبعد الانتهاء من تجهيز العروس ينقل الجهاز من بيت العروس الى بيت العريس بزفة يتقدمها كرسي المصحف وعليه القرآن الكريم ، ويليه الادوات المنزلية من مقاعد ومفروشات وخلافها ، وتبقى هذه الادوات موضوع حديث من شاهدها لايام عدة بين منتقد ومستحسن ، ثم يتعين موعد حفلة العرس ، وتكون عادة في بيت احد وجوه المحلة ، ويكون موعدها بعد صلاة المغرب وتمتد الى ما بعد صلاة العشاء ، ويتغيب عن

هذه الحفلة اهل العروس ، وكل من يمت اليهم بصلة القربى ، وفي اعراس العلية يقوم الشعراء من معارف العريس في اثناء الحفلة بالقاء القصائد الشعرية منوهين فيها بصفات العريس ، وكثيرا ما ينهي الشعراء قصائدهم ببيت شعر يكون مجموع الحساب الابجدي لاحرفه تاريخ السنة التي تم فيها الزواج .

اما العروس فتقوم الماشطة يوم العرس بتزيينها على الطريقة المتعارف عليها في تلك الايام ، وهي عبارة عن صبغ اصابع يد العروس بالحناء والنقش والصاق البرهجان والحمرة والبودرة على وجهها حتى تصبح كأنها تهيأ لحفلة كرنفال .

وتنتقل العروس الى بيتها الزوجي عصر يوم العرس ، يرافقها جميع اقاربها ومعارفهم من النساء .

ثم تجلس العروس على اريكة في صدر القاعة مغمضة العينين جامدة الحركة وعليها ان تبقى كذلك الى ما بعد قدوم العريس ، والنساء المدعوات حولها يغنين ويطربن ، والويل كل الويل لها اذا فتحت عينيها او اتت بأية حركة ، فان النساء الحاضرات يصفنها عندها بالقحة وقلة الحياء .

اما العريس فيأخذه رفاقه يوم العرس الى الحمام ويتبسطون في ممازحته وبعد خروجهم من الحمام يتناولون في بيته طعام العشاء ، ثم يلبسونه ثياب العرس ويأخذونه الى مكان الحفلة ويجلسونه بدوره في صدر القاعة ، وعليه ما على العروس من واجب الوقار والاحتشام وعدم الحركة او التكلم مع الغير .

وكثيرا ما كانت القصائد الشعرية التي تلقى في اثناء الحفلة موضع تقدير او استهجان فريق الشعراء والادباء لايام وشهور ، وكانت العادة ان يبتدىء الشاعر بقصيدته بالغزل وتنتهي بمدح صفات العريس .

وبعد اداء فريضة صلاة العشاء يتكون في خارج المكان صفان متقابلان من شباب الحي حاملين الشموع ومنشدين الاناشيد ، ويقف العريس في وسط الطريق يحفه اكابر الحضور واصدقاؤه المقربون من ورائه .

وبوصول الزفة الى باب البيت يتقدم احد رجال الدين فيتلو دعاء يطلب فيه للعريس التوفيق في حياته الزوجية ، وبعد ان يؤمن الناس على الدعاء ينصرف كل منهم بحال سبيله ، ويدخل البيت احيانا لوحده اذا كان والده ميتا او مع خاله وعمه دون سائر الناس بما فيهم اخوته ، فتستقبله والدته وتنثر النقود من فوق رأسه وتقوده الى حيث العروس التي تكون محجبة ببرقع من

الحرير ، فيقدم على رفعه بيد راجفة وقلب خافق ، وهنا تقع المفاجأة ، فجميع النساء مشرئبات الاعناق شاخصات الابصار بالعريس لمعرفة ما سيرتسم على وجهه من امارات الانشراح او الانقباض ، بعد رؤيته وجه زوجته .

وفي الصباح الباكر يقوم العريس بتقديم الصبحية للعروس ، وتكون عادة نقدا او مجوهرات ، وبعد ان يتناول اهل العروس طعام الافطار ينصرفن الى بيوتهن وينقطع كل اتصال بينهم وبين ابنتهم مدة تتراوح بين اسبوع او اسبوعين يأتي العريس بعدها الى بيت حماه ويدعوه الى حفلة عشاء تضم الاقارب والانسباء ، ثم يقم الحمو بالمقابلة حفلة مماثلة تدعى (ردة رجل) وتجري الامور بعد ذلك بين الاسرتين في مجراها الطبيعي .

ومما تجدر الاشارة اليه ، ان الزيجات التي تتم على الصورة المحكية كانت باكثريتها المطلقة لا سيما بين الاسر المعروفة ، مرضية تحفها السعادة ويجتاحها الهناء .

اما الحياة الزوجية ذاتها فبصورة عامة كان ينغصها الخلاف الذي كان يقوم بين الحماة والكنة على محبة الرجل فالاولى ترى فيه انه ابنها قد ربته كل شبر بنذر كما يقال ، وان عليه ان يبقى هو وزوجته تحت كنفها وامرها وكانت الزوجة ترفض هذا التسلط ، وكان اقرباء الطرفين يتدخلون فيما بينهما اما متحزبين واما مصلحين ، وكان الزوج البار لوالدته يقف حائرا لا يدري ما يصنع ايغضب والدته ولو كانت على غير حق في موقفها ، ام يتجنى على زوجته ارضاء لوالدته ولو كانت على حق في تصرفها ، وكان مما يشعل نار الخلاف هذا ويبقيه مستعرا هو سكنى افراد الاسرة مهما بلغ عدد افرادها في بيت واحد .

ان حب الكثير من الامهات لابنائهن كان ينقلب بعد زواجهم الى كره شديد اذا ما اخذوا بجانب زوجاتهم ، وقد اخذ هذا الوضع المؤلم بالتقلص نوعا ما بعد ان درجت عادة استقلال الزوجين بالسكنى لوحدهما .

العلاقة بين الابن ووالديه :

ان العلاقة بين الابن ووالديه ، كانت تتسم دائما بالطاعة والخضوع التامين ، ويبقى الولد رهن مشيئة والده مهما تقدم في العمر ، ومن يخرج عن ذلك من الابناء يعتبر في نظر الناس عقوقا ، ويتجنبون التعامل معه اعتقادا منهم ان الولد العقوق لابويه لا يوفق في حياته العامة .

وللجد مقامه السامي بين اولاده واحفاده ، ومما اذكره ان والدي رحمه الله كان يخصنا على تسمية والده بسيدنا .

وكان صغار افراد الاسرة عندما يعجزون عن الحصول على ما يرغبون به من والدهم يشكون امرهم الى سيدهم ، فيرغم الوالد على تنفيذ الرغبة ، وكان امره لا يرد .

وكان الابناء المرضى عنهم يتقبلون ملاحظات آبائهم بكل قبول ورضى مهما كانت بالنسبة لهم قاسية .

ومما اذكره في هذا المجال ان والدي كان يوما في صحن بيته يتهيأ للوضوء على حوض الماء وكان ينشد بصوت خافت ورخيم القصيدة المشهورة لكعب بن زهير في مدح الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم التي مطلعها (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) وكان يفصل بين صحن البيت والغرفة التي يجلس فيها عادة سيدي الجد في بيته حائط ذونوافذ مطلة على داخل الغرفة هذه ، وكان السيد الجد على ما يظهر متضايقا من امر ما ، فازعجه صوت الوالد وصرخ به باللعنة المشهورة في تلك الايام (مدفع ابو خزام) فتألم الوالد من ازعاجه السيد وسكت مستغفرا ، ولم يظهر على ملامح وجهه ما ينم عن تضايقه من تعرض والده له في داخل بيته .

ومما اذكره ايضا ما كان يرويه الوالد لنا في معرض البر بالوالدين ، انه بعد زواجه وانجابه لولدين من ابنائه صادف يوما ان كان في نزهة مع بعض رفاقه فتأخر عن الحضور الى البيت حتى وقت صلاة العشاء ، فشق ذلك على سيدنا الجد واخذ يزرع الطريق امام البيت جيئة وذهابا ، الى ان سمع صوت والدي في حديثه مع رفاقه فناداه عن بعد ، ولما لبى النداء بادره بلعنته (مدفع ابو خزام) وقد كان من الشائع بين الناس في تلك الايام ان في قلعة طرابلس مدفعا يدعى مدفع ابو خزام ، ويضيف والدي رحمه الله ، انه لم ينقطع بعد ذلك اليوم عن الحضور الى البيت بعد الموعد المحدد من قبل والده مهما كانت الاسباب الداعية لذلك .

وكان شأن والدي شأن جميع الابناء المطيعين لآبائهم ، اذ كان الناس على ايمان عميق بان الولد المغضوب عليه من ابويه لا بد وان يلاقي في مستقبل الايام من اولاده ما لاقاه والده منه من عقوق ، ويروون عن ذلك شتى الحوادث .

التقشف في الحياة :

ان التقشف في الحياة وبصورة خاصة في الملبس والمسكن كان يعم اكثر الناس حتى الاغنياء منهم .

فالدور التي استوطنها حتى نهاية العقد الاول من القرن ، اكابر البلدة

امثال المغفور لهم مصطفى كرامي الكبير مفتي طرابلس واحمد اسماعيل المقدم وعبد الله الثمين ومحمود المغربي ومن بعده ولده عبد المجيد امين الفتوى جميعهم من وجوه المدينة وثراتها بسيطة جدا ومتواضعة .

فاذا قمنا بزيارة تفقدية لهذه الدور التي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا نتحقق بالحس درجة التقشف في الحياة عند هؤلاء الرجال الاخيار اذ انها بلغت من التواضع درجة يعزف معها عن سكناها حتى متوسطو الحال من ابناء هذا الزمان .

ولم يكن هذا التقشف مقتصرا على شكل هذه الدور من حيث البساطة بل يتعدى ذلك الى مظاهر العظمة فيها وقد سمعت من سيادة الوجيه الكريم مصطفى رشيد كرامي امد الله بحياته ان المغفور له جده مصطفى الكبير اراد ان يبدل سقف داره المتداعي سقفا جديدا وقد استحسن ان يعلو به بعض الاذرع ، فاستشار فقهاء المدينة بالامر فلم يرضوا عن هذه الفكرة لما تحمله من مظاهر الابهة فعدل عن ذلك واعاد بالسقف للعلو الذي كان عليه .

الباب الاول ـ الحياة الاجتماعية

الفصل الثالث ـ التعامل الاجتماعي

كان التعامل الاجتماعي بين الناس ، في منتهى التنسيق والتنظيم والروعة اين منه تعاملنا الاجتماعي في ايامنا الحاضرة ، صحيح انه لم يكن في المدينة في مطلع القرن العشرين جمعيات خيرية ، انما كان هناك الكثير من اهل الخير رجالا ونساء ممن امتلأت قلوبهم بالرحمة والشفقة والحنان ، ومن اصحاب الشهامة والاريحية في نصرة المظلوم والاخذ بيد العون للضعيف مهما كان شأنه ، وكانوا يقومون بذلك بكل اندفاع وطيبة خاطر مسترشدين في ذلك بقوله تعالى في كتابه الكريم (والذين في اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) ، وقول الرسول الاكرم صلى الله عليه وسلم (لا يكمل ايمان المرء حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه) .

وكان من التقاليد السائدة احترام صغار السن لكبارهم مهما فرق بينهم المقام الطبقي او العائلي ، ومنها ايضا عدم جواز معارضة صغار السن لكباره مهما كانت الآراء التي يبديها الكبار خاطئة ، وكانت آراء الصغار مصيبة ، ومنها ايضا وايضا اقتصار المجالس على المتقاربين بالعمر ، اذ لم يكن من الجائز ان يحضر صغار السن مجالس الكبار ، وكانت الامانة في التعامل صفة يتصف بها معظم الناس .

وبالنظر لما كان يتحلى به اكثر الناس من صفات النجدة والشهامة ونصرة المظلوم ، فقد كان يكفي لان يقول ملتاع لاخر (انا بوجهك) او (انا دخيل عليك) ليعمل هذا المستحيل في سبيل نجدته وقضاء حاجته ، حتى ولو كان بين المستجير والمستجار به خصومة او فتور في العلاقات .

وعندي من الامثلة المثبتة لذلك الشيء الكثير ، اكتفي منها تحاشيا للتطويل بحادثين وقعا في وقت متقارب من العقد الاول من القرن وكان لهما دوي كبير في الاوساط الطرابلسية .

فملخص الحادث الاول المتعلق بالنجدة ، ان شابا يافعا من آل الساكت يدعى مصباح ، وقد توفي منذ مدة قصيرة رحمه الله كان اقدم على قتل الشاب رشيد البركة رحمه الله دفاعا عن النفس ، وكان من الطبيعي ان تسعى والدة القتيل المفجوعة للاقتصاص من القاتل ، وكانت على شيء من الثراء فانفقت في ذلك المال الوفير حتى تمكنت من الحصول على حكم باعدام القاتل ، فهال ابناء المدينة ان يعدم شاب صغير السن كان جرمه الوحيد الدفاع عن النفس ، فعقدت التجمعات ، وبذلت المساعي الحثيثة للحصول على عفو الوالدة ، ذلك العفو الذي كان من شأنه اذا حصل ابدال السجن المؤبد بحكم

الاعدام ، فذهبت جميع المساعي المبذولة ادراج الرياح وحانت ساعة تنفيذ الحكم ، وحضرت الوالدة المفجوعة الى ساحة التل حيث اعدت المشنقة لتشاهد بام عينها نهاية حياة قاتل ولدها ، واوقف المحكوم على المنصة تحت حبل المشنقة ، وتهيأ الجلاد للتنفيذ عندما تصدر اليه الاشارة بذلك ، وبقي المحكوم على المنصة زهاء ثلاث ساعات ، كان الناس خلالها يعملون على اقناع الوالدة بالعفو دون جدوى ، حتى انه قد بلغت الحماسة بالمرحوم محمد البابا الثري المشهور بحرصه على ماله ، ان يضع تحت تصرف الوالدة جميع ما يملك من عقار ومال شرط ان تعفو عن القاتل ، فبقيت مصرة على الرفض ، وفي آخر لحظة من حياة المحكوم ، وبعد ان هم الجلاد بسحب المنصة من تحت قدميه ، حصلت المفاجأة السارة عندما صرخ المحكوم موجها كلامه الى شقيق القتيل المرحوم علي (انا دخيل عليك يا علي) فعملت هذه الكلمة عمل السحر في نفس علي رحمه الله ، وتحركت فيه عوامل النجدة والنخوة ، فلبى نداء الاستغاثة ، وتقدم من والدته مصوبا فوهة مسدسه الى صدغه وبادرها بالقول ، بمجرد اعدام الشاب المستغيث بي ساطلق الرصاص على رأسي منهيا بذلك حياتي بانتهاء حياته ، عندها وبعد ان تحققت الوالدة مما عزم عليه ابنها نطقت بكلمة العفو دون ان تتقاضى غرشا واحد .

اما ملخص الحادث الثاني ، الذي فيه بالاضافة الى النجدة ، الاخذ بناصر المظلوم ، هو انه في عام ١٩١٠ كان في ميناء طرابلس طريد للعدالة من آل العيلة لارتكابه جرم قتل قائد الدرك المرحوم رديف بك في اثناء مطاردته له في موقع البحصاص ، وكان رديف بك هذا وحيد والدته ، فعز ذلك على المرحوم الوجيه رشيد آغا عوض والد الصديق حسام لما تربطه بالضابط القتيل من روابط الصداقة ، فانبرى متطوعا بدافع النخوة ، لمطاردة القاتل بجميع ما يملك من وسائل ، وقد تضايق القاتل من هذه الملاحقة فصمم على قتله تخلصا من مضايقاته ، فتربص له وراء سياج احد بساتين طريق الميناء ، وبمرور رشيد آغا على صهوة مهره من هناك اطلق عليه عدة عيارات نارية اصابته في شتى انحاء جسمه وتركته بين الموت والحياة عدة شهور ، وبعد ابلاله من اصاباته ، وبينما كان في احدى الليالي في بيت سكنه في ملك المرحوم عبد اللطيف سلطان الواقع على بعد امتار من سراي الحكومة ، اذا بباب الدار يقرع واذا القارع الشقي نفسه ، وما ان اصبح منه رشيد آغا وجها لوجه حتى ارتمى على قدميه مستجيرا به وطالبا منه العفو والصفح فاجاره رشيد آغا وادخله البيت واستضافه عنده تلك الليلة ، وفي الصباح الباكر ايقظه من نومه ، واطلق سراحه بعد ان افهمه انه قد اجاره في بيته بدافع المروءة ، ولكنه لم يعف عن

قتله صديقه الضابط ظلما وعدوانا ، ولم تمض ايام حتى وفق رشيد آغا بواسطة بعض اعوانه الى محاصرة القاتل في احد بيوت قرية دده وتم الاجهاز عليه ، ولم يرتح بال رشيد آغا حتى احضر مع عدد من اعوانه جثة القتيل الى قبر الضابط في مقبرة باب الرمل قرب قبور آل المقدم ، وخاطبه من وراء اللحد بقوله : لقد انتقمت لك يا رديف من قاتلك وهذه جثته ملقاة قرب ضريحك فنم نومتك الابدية هانىء البال قرير العين .

هاتان الحادثتان قد عشت في جوهم فعرضتهما عرض من سمع وشاهد واطلع .

الباب الاول ــ الحياة الاجتماعية

الفصــل الرابــع ــ متفرقــات

اللباس وتقاليده :

كان اللباس الخارجي عند الناس في مطلع القرن العشرين ، وحتى نهاية العقد الثالث منه اشكاله وتقاليده ، وكان لكل طبقة من طبقات الناس اللباس الخاص بها ، ولم يكن يلبس اللباس الافرنجي المعروف اليوم سوى موظفي الدولة ، اما سائر الناس فكانت البستهم كالتالي :

١ — رجال الدين — لم يختلف لباسهم في مطلع القرن ، عما هو عليه اليوم ، باستثناء ان منهم من كان يوسع يد الجبة بحيث يجعل قطر فوهتها بحدود الستين سانتا ، ويرسل من قماش عمامته الشاش الابيض على ظهره قطعة بطول عشرين سانتا تسمى بالعتبة ، وكانـوا يلبسون السروال المعروف ، ثم اخذ البعض منهم يلبس ما عرف بالبنطلون الاستانبولي ، وهو في شكله ما بين السروال والبنطلون العادي .

٢ — الافندية — كان جميع افندية البلد يلبسون لباس رجال الدين العمامـة البيضاء والجبة والسروال ، وكانوا يتعمدون ان تكون العمامـة ارق سماكة من عمامة رجال الدين ، ويغلب على ظني ان مرد ذلك هو عدم الالتباس في المظهر بينهم وبين رجال الدين .

٣ — الوجوه والتجار — يتكون لباسهم من الطربوش الاحمر العادي ، الملفوف بقطعة بعرض عشرة سانتات من القماش المعروف بالاغباني ، وبسوكة عادية طويلة حتى تحت الركبتين .

٤ — عامة الناس — كان لباسهم يختلف باختلاف اوضاعهم المادية ، وبصورة عامة فان البسة هذه الطبقة هي ، الغمباز الحرير او الديما او غير ذلك من الاقمشة والسروال الملفوف عند البطن بشملة عرضها عشرة سانتات وطولها يتراوح بين خمسة وعشرة امتار ، والسوكة ، وكانت السوك على اشكال متعددة ، منها السوكة العادية المعروفة ، ومنها السوكة المخرجة بالحرير في صدرها وعلى اطرافها ، وكان البعض يعتمر الطربوش العـادي ، او الطربوش المغربي ذي الشرابة السوداء او الزرقاء الغليظة ، ومما يروى ان اول من اعتمر الطربوش هو السلطان عبد العزيز العثماني اخذه عن اليونان ، وان الناس قد استنكروا وقتئذ ذلك على اعتبار انه لباس غير المسلمين ، ثم مع مرور الايام ، اعتـاد عليه الناس وعم لبسه بينهم .

وكانت الاكثرية المطلقة من الناس يطلقون لحاهم بعد ان ينبت الشعر في ذقونهم وكانوا يحتفلون بجمع الاقارب والاصدقاء عند اول مرة يمرر الحلاق موس الحلاقة على ذقن الشاب ، دلالة على دخوله طور الشباب .

وكان رجال الدين والاعيان يلبسون في فصل الشتاء الجبة المبطنة بالفرو اما في فصل الصيف فكان البعض منهم يلبس الغمباز والمضربية الشامية التي تحاكي الجبة .

وكان من غير المسموح لاي كان من الناس حسر الراس حتى ولو كانوا داخل محلات عملهم ، وكان يتوجب على من جاءه زائر الى بيته او محل عمله ان يبادر الى اعتمار لباس راسه والا اعتبر مستخفا بالزائر .

مراسم الاعياد :

كان تعطيل الدوائر الرسمية في الاعياد مقتصرا على ثلاثة ايام لعيد الفطر السعيد واربعة ايام لعيد الاضحى المبارك ، ويوم واحد لكل من عيدي ولادة السلطان وجلوسه على عرش الملكة ، ثم اضيف اليه بعد اعلان الدستور عيد الحرية ، وقد بقي هذا التقليد الى ما بعد جلاء الاتراك عن البلاد العربية .

وهكذا نلاحظ ان ايام العطل للاعياد ايام الحكم العثماني لم تكن تتجاوز عشرة ايام في السنة .

وكان المتصرف يترأس هذه الاحتفالات يحف به رجال الدولة ووجوه المدينة واعيانها ببزاتهم الرسمية السوداء المقصبة وسيوفهم المذهبة التي كانوا يتمنطقون بها ، وكان لرجال الدين رتبهم الخاصة تختلف الوان جببها باختلاف درجات الرتب التي يحملونها ، فمن جبة خضراء اللون الى اخرى زرقاء فسوداء فبنفسجية ، وكانوا يلفون عمائمهم بشارات مقصبة يتدلى منها عتبة بطول عشرين سنتا .

وكان منظر هؤلاء الناس وهم يتهادون في صحن الجامع الكبير ما ينشرح له الصدر وترتاح له النفس .

وكان يقف على باب قاعة الاستقبال في السراي فرقة يحمل افرادها الطبل والدربكات يكون قرعها عند استقبال احد القادمين من الشدة والرخاوة بنسبة ما يحمله من رتبة احيانا او بالنسبة لما يغدقه عليها من مال .

وكانت تزين ليلا ساعة التل وواجهة السراي وعلى امتداد طريق التل بالاعلام والمصابيح المختلفة الالوان .

مراسم الوفاة :

وعندما يتوفى احد الناس كان يعلن عن ذلك بواسطة مناد يطوف احياء المدينة طالبا من الناس الدعاء له بالرحمة والغفران .
اما اذا كان المتوفي من العلماء ، فكان يتم الاعلان عن ذلك من على مآذن الجوامع .

وكانت مراسم تشييع الميت من العلماء تتم بمنتهى الابهة والتعظيم اذ يتقدم النعش فرقة المنشدين تتلو قصيدة البردة وامامها حملة الوية مشايخ الطرق .

وبعد ان يتم دفن الميت وقبول اهله لتعازي المعزين يتقدم احد وجوه حي المتوفي بدعوة كبار المشيعين الى داره او منزله حيث يقدم لهم المرطبات .

وكانت مدة الحداد على الميت في مطلع القرن اربعين يوما ، ثم اقتصرت بعد وفاة عمي الشيخ عبد القادر بحياة والده على سبعة ايام ، تقبل خلالها التعازي في دار الفقيد او دار احد وجوه الحي من الصباح حتى آخر الهزيع الاول من الليل .

وكان من المحتم على اهل الميت مع الخلص من اصدقائهم ، التوجه بعد صلاة عصر كل يوم حتى الاربعين من تاريخ الوفاة الى المقبرة وتلاوة سورة ياسين على روحه .

وكان على اهل الميت من جميع الطبقات باستثناء الفقراء توزيع بعض المال عند الضريح على المحتاجين في ايام الثالث والاسبوع والاربعين ، مع تقديم الطعام والحلوى لهم في المساء من امام باب الدار .

وهكذا كان الفقير المعدم يجد في يومه من يطعمه احسن الطعام واشهاه لندرة خلو المدينة من يوم من هذه الايام الثلاثة .

وقد حصل لي اثناء الحرب العمومية الاولى في هذا المجال حادث رايت ان اطلع القراء عليه لما فيه فضلا عن الطرافة من سماحة في النفوس الطيبة في تكريم أمواتها ، ومن اثر حسن في نفوس المحرومين .
لقد توفي في اول سنة من سني الحرب العمومية الاولى المرحوم عبد الحي الملك ، فعز على اولاده المغفور لهم الشيخ فؤاد ورشاد ونهاد وجواد هذا المصاب ، واخذوا يقيمون في دارهم الواقعة على طريق المولوية بعد صلاة

عشاء كل يوم جمعة حفلة قراءة ختم القرآن الكريم عن روحه ، ويعقبونها بمائدة عليها ما لا يقل عن عشرة صدور كنافة مع مقبلات من سلطة البقدونس بطحينة والزيتون والشلط المصنوع من الطحين الابيض الصافي .

وكنت مع بعض الرفاق ممن حضروا هذه الحفلات لروابط الصداقة التي كانت تربطنا بالمرحوم جواد .

وكانت المجاعة على اشدها في المدينة ، وكنت من السعداء من الناس الذين كانوا يتمكنون من الحصول على وثيقة الخبز الذي كانت توزعه البلدية على جماهير ابناء المدينة ، ولم يكن لهذا الخبز على ردائته من طعم يعرف ولون يوصف ، ولا انكر اني طيلة مدة الحرب العمومية الاولى التي امتدت اربع سنوات لم اذق طعم الخبز الابيض والكنافة بقشطة او بجبنة مع مقبلاتها الا في دار آل الملك الكرام وعن روح والدهم طيب الله ثراه .

وقد علمتني هذه الواقعة معنى الحرمان وتأثيره على نفسية المحروم ، كما جعلتني آسف اشد الاسف على زوال عادة اطعام الفقراء في مناسبة الموت .

الحالة الصحية والجهاز الطبي :

كانت الحالة الصحية في المدينة في العقد الاول من هذا القرن سيئة جدا لعدم الاهتمام بالنظافة والوقاية ، وتلوث مياه الشرب ، وانتشار البعوض ، ولترك كثير من مجارير المياه المالحة مكشوفة ، فنتج عن ذلك تفشي كثير من الامراض التي كان بعضها مستوطنا ، كالملاريا والزحار ، وكان هذان المرضان ينغصان على الناس حياتهم للمدة الطويلة التي يلازمان فيها المريض ، كما كان يفد بين حين وآخر اوبئة خطيرة كالهواء الاصفر والتيفوئيد ، وفي اثناء الحرب العمومية الاولى وفد وباء التيفوس وقضى على عدد جم من السكان ، ولم يكن في المدينة خلال العقد الاول سوى ثلاثة اطباء قانونيين ، الاول المرحوم مصطفى الحكيم الميقاتي خريج معهد القصر العيني الذي انشأه الخديوي محمد علي في مصر والاخران هما المرحومان ابراهيم الخولي وميخائيل ماريا خريجا كلية الطب الافرنسية في بيروت .

كما لم يكن في المدينة سوى صيدليتين الاولى للمرحوم عبد العزيز مخلوف والثانية للمرحوم بيوس دويا .

ومنذ مطلع العقد الثاني من القرن اخذ عدد الاطباء والصيادلة القانونيين يتزايد سنة بعد سنة ، وكان الرعيل الاول منهم المغفور لهم الاطباء عبد اللطيف

البيسار وحسن رعد ، رمزي زيني ، اسكندر غريب ، عادل الشيخ رحمهم الله ورشاد الحجة الذي ما زال يزاول المهنة حتى يومنا هذا امد الله بحياته ، وقد بلغوا في نهاية النصف الاول من القرن بالعشرات .

وكان اول طبيب جراحي في طرابلس هو المغفور له عبد اللطيف البيسار ، ومستشفاه في القبة وكان اول المستشفيات ، اما في الميناء فكان فيها مستشفى البعثة الاميركية الانجيلية ، وكان على ادارته في اول القرن الدكتور هرس ثم تعاقب على التطبيب فيه عدة اطباء اميركيين كان آخرهم الدكتور (بويز) وقد اغلق المستشفى ابوابه بعد وفاته في الخمسينات ، وتلا المستشفى الاميركي في الميناء مستشفى الدكتور وهيب نيني امد الله بحياته .

وكان الحلاقون بالاضافة الى مهنة الحلاقة يتعاطون معالجة المرضى الفقراء ، كما يتعاطون عمليات قلع اضراس واسنان الفم ، اذ لم يكن من اطباء اسنان قانونيين سوى الطبيبين مصطفى عويضة وسليم خير .

المواصلات بين طرابلس والخارج :

كانت المواصلات بين طرابلس والخارج حتى نهاية العقد الاول من القرن تتم على الشكل التالي :

١ — بين طرابلس وبيروت عن طريق البحر ، بواسطة البواخر التجارية ، ولم يكن لها مواعيد معينة ، فكان على المضطر للسفر ركوب عربات الخيل العادية او امتطاء الدواب عن طريق الكورة ، اذ لم يكن قد انشأت الطريق الساحلية المستعملة اليوم ، فالطريق هذه قد انشأت عقب الانتداب الافرنسي .

وكان السفر يستغرق بالبحر اربع ساعات ، وبالبر يومين كاملين .

٢ — بين طرابلس واللاذقية على ظهور الدواب ، اذ لم تكن يومئذ طريق معبدة ، فالطريق الحالية قد انشأت بعد دخول الافرنسيين البلاد ايضا .

٣ — بين طرابلس وحمص ، بواسطة عربات (شركة الشوشة) التي انشأها مدحت باشا رحمه الله عندما كان واليا على سوريا ، وعهد بادارتها الى المرحوم عبد القادر باشا المنلا ، وهي عربات كبيرة تجر كلا منها اربعة بغال ، وكانت تتحرك بصورة منتظمة عند فجر كل يوم وتصل الى حمص في المساء .

٤ — بين البلدة والميناء بواسطة عربات تجرها البغال ايضا على خط حديدي

كان مدحت باشا قد انشأ شركة لها وعهد برياستها الى المرحوم عبد القادر باشا ايضا . ثم خلفه بعد وفاته اخوه المرحوم محمود بك وقد بقيت بعهدته الى ما بعد الغاء الترامواي في عام ١٩٣٠ .

وبصورة عامة فقد كان السفر قطعة من العذاب ، لما يتحمله المسافر من مشقات بالغة القسوة ، وكانت حركة السفر بين المدن بطيئة جدا ، ومما اذكره ان اخوتي بعد ان اتموا الدراسة الاعدادية في المدرسة الرسمية بطرابلس التحقوا باعدادي بيروت ذي السنتي دراسة ، وقد اعتبر وقتئذ انتقالهم الى بيروت حدثا هاما فاجتمع رجال الحي وشبابه على المرفأ لوداعهم ، ولم يكن يسمح لهم بالحضور الى طرابلس خلال السنة الدراسية وكان غيابهم يمتد تسعة اشهر مدة الدراسة .

الحمامات :

كان في البلدة عدة حمامات اشهرها ، النوري — العبد — عز الدين — الحاجب — الجديد — النزهة ، وفي الميناء حمامان : العتيق — الجديد .

وكانت هذه الحمامات تواصل قبول المغتسلين ليلا نهارا على مدار ايام السنة ، اذ لم تكن قد عرفت حمامات البيوت ، وكان يؤمها الناس من جميع طبقات المجتمع ، وكانت تخصص من بعد الظهر للنساء ، وكانت عندما تكون مخصصة للنساء يوضع على بابها قماشة حمراء لمنع دخول الرجال اليها .

ويتكون الحمام عادة من البراني ، وهو المكان المخصص لنزع الالبسة والتلحف بالمناشف ، ثم الوسطاني ، وهو المكان المخصص للاستراحة بعض الوقت بعد الاغتسال ، وفيه يبدل المغتسل المناشف التي يكون قد بللها العرق بعد الاغتسال ، ثم مكان الاغتسال ، وهو مكون من فسحة بوسطها مسطبة من الرخام لجلوس المغتسلين عليها تستمد الحرارة من موقد النار ، وعلى جوانب الفسحة غرف في جانب منها جرن كبير من الرخام الابيض ، وفوق كل جرن صنبوران الاول للماء الساخن والثاني للماء البارد ، ويتكون سقف الحمام الداخلي من فتحات صغيرة للنور مسدودة بكاسات من الزجاج ، وكان كثير من الناس عندما يقبل شهر رمضان في فصل الشتاء يسهرون في الحمام حتى وقت السحور .

ولم يكن في مطلع القرن للحمامات البحرية من اثر في شواطىء طرابلس ، وكان الناس في معظمهم خلال فصل الصيف يقصدون شاطىء البحر وبصورة خاصة جهة الكازخانه ويتمتعون بالاغتسال في البحر على الطبيعة ، وهكذا

فقد كنت ترى الشاطىء الممتد من برج راس النهر حتى موقع البحصاص يعج بالمستحمين دون ان يصرف الواحد منهم بارة الفرد في هذا السبيل .

وكان محرماً على النساء التمتع بهذه المتعة الصيفية المحببة ، وبقي الامر على هذه الحال حتى الثلاثينات حيث انشأ المرحوم الفرد حكيم حماماً بحريا في موقع البحصاص مكون من غرف خشبية ، وهو بصورة عامة كان عملا بدائيا انما قد امن للناس بعض الراحة ، كما انشأ فيه مقصفاً ومقهى ، وقد كان السيد حكيم اول من اعتنى بالشؤون الترفيهية والسياحية في المدينة .

الباب الاول ــ الحياة الاجتماعية

الفصل الخامس ــ الاسر الطرابلسية

الاسر الطرابلسية :

ان جمال الطبيعة في طرابلس ، واعتدال مناخها ، واهمية موقعها الجغرافي ، وحسن معشر ابنائها ، كل هذا على ما اعتقد من اهم الاسباب لتفضيل الكثير من سكان مختلف الاقطار العربية النزوح اليها والسكنى فيها .

وبعد جلاء الصليبيين عن البلاد تكون في طرابلس مع الزمن مجتمع ضم عددا وفيرا من الاسر الكريمة ، تحدثنا اسفار من ام طرابلس من مشاهير البحاثين والمؤرخين عما توالد من هذه الاسر من رجال عرفوا بغزارة العلم وكمال الفضل والادب .

واني اتماما للفائدة المرجوة رأيت ان افرز في رسالتي هذه فصلا اتحدث فيه باختصار كلي عن اشهر الاسر الطرابلسية ، وعن الخدمات التي قام بها بعض ابنائها عبر السنين وحتى يومنا هذا في مجالي العلم والاجتماع .

ولا بد لي من التنويه ان بحثي هذا قد اخترت الكثير منه من كتاب (عائلات طرابلس) للوجيه المؤرخ المرحوم عبد الله حبيب نوفل .

آل الاحدب :

من الاسر الطرابلسية القديمة كان معظم ابنائها من ملاكي جنائن الليمون ، اشتهر من هذه الاسرة الكريمة في القرن الماضي المرحوم الشيخ ابراهيم حسين الاحدب ، الذي بعد ان انهى دراسته للعلوم اللبيانية والادبية على استاذه العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي ، نزح الى بيروت وشغل فيها عدة وظائف عالية منها عضوية مجلس معارف الولاية ، كما امضى اعواما طوالا وهو يحرر جريدة ثمرات الفنون .

وفي مطلع هذا القرن اشتهر من ابنائها المرحوم حسين بك ابراهيم الاحدب وقد تقلد في حياته عدة وظائف ادارية منها محافظ طرابلس ثم بيروت ، وقد شغل بعد ذلك وزارة الاشغال العامة ، وفي ايام توليه هذه الوزارة بدا استعمال الزفت في تعبيد الطرقات العامة .

ومن ابناء هذه الاسرة احمد بك محي الدين الاحدب الذي شغل عدة وظائف قضائية منها رياسة ديوان المحاسبة .

آل الادهمي :

اصل هذه الاسرة الكريمة من قرية عكار العتيقة وكانت قديما بلدة عامرة ، جاءوا منها الى طرابلس منذ ثلاثماية سنة ونيف نبغ من ابنائها الكثير من الشعراء والادباء ، كان اشهرهم الشيخ احمد صالح من مواليد القرن الثاني عشر هجري ومحمد اسحق والمرحومين عبد الحليم والد الاصدقاء رشاد وسليمان والمرحوم عبد السلام وعبد الغني والد الصديقين محمد ومحمود صاحب جريدة الانشاء وعبد اللطيف والد الصديق ياسر .

آل الارنؤوط :

جد هذه الاسرة كان البانيا وقائدا في الجيش العثماني في مدينة عكا ، وحين حاصرها نابوليون قدم منها الى طرابلس مع ولده حسن فسكنا بحكم وظيفته العسكرية قلعة طرابلس وتوفي فيها ، اما نجله حسن فقد دخل في سلك العسكرية كأبيه ، وفي حرب القرم بين الروس والاتراك ترأس فرقة عسكرية من ابناء طرابلس وسافر للحرب ، وقتل في احدى المعارك الكبيرة مخلفا ولدين الاول يدعى عثمان والاخر يدعى عمر ، وقد خلف عمر ولده عبد القادر الذي مشى على خطى والده في تعاطي الاعمال التجارية ، وجمع منها ثروة طائلة ، وقد فقد في اثناء الحرب العمومية الاولى ولده الوحيد فاحزنه ذلك ، وكان محبا للاعمال الخيرية ، فتبرع بقسم كبير من ثروته لكلية التربية والتعليم ، كما تبرع بالكثير من القسم الباقي في هذا السبيل رحمه الله .

آل الامام :

اسرة معروفة وقديمة في طرابلس ، انجبت ادباء ووجهاء عرفوا بلين العريكة وحسن الطوية ، اشهرهم المرحوم الشيخ محمود محمد الامام، واحسان بك امير الاي الجيش العثماني في حمص اثناء الحرب العمومية الاولى ، وللمذكور اياد بيضاء على الطرابلسيين يذكرها له كل من خدم في الجيش وتنئذ بكل تقدير .

آل البركة :

اسرة قديمة في طرابلس اصلها من مدينة مكة المكرمة ، تتصل بنسبها بآل البيت ، وهي وآل الدبوسي من اصل واحد ، عرف ابناؤها بالوجاهة والادب وقد اشتهر منهم المغفور لهم درويش الذي شغل منصب القضاء الشرعي في طرابلس ومحمود ومصطفى وراغب ، وكانوا جميعهم على جانب كبير من العلم

والفضل ، وممن اعرف شخصيا منهم المرحوم كمال وشقيقه الصديق الحاج حسن احد كبار تجار صناعة الصابون بطرابلس .

آل البارودي :

يتكنى بلقب البارودي اسرتان ليستا من ارومة واحدة ، الا ان كلتا الاسرتين قديمتا العهد في طرابلس ، من اشهر رجالات الاولى العلامة المفضال الشيخ عبد الغني والحاج محمود التاجر المعروف ، اما الثانية فمنها رجال الصلاح والتقوى العالم العامل الشيخ وهيب واولاده الحافظ لكتاب الله الشيخ نصوح والشيخ سلمان ،والاديب غياثي والشاعر رجائي .

آل البيسار :

اسرة قديمة في طرابلس ، هي وآل الرافعي من فرع واحد ، تتصل بنسبها لامير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب ، اشتهر من ابنائها في القرن الماضي الشيخ عبد اللطيف والعارف بالله الشيخ عمر ، اما في عصرنا الحاضر فكان منها الجراح الكبير الدكتور عبد اللطيف وولده الدكتور عمر ، وابن اخيه نابغة الطب الجراحي الدكتور عبد الله .

وبالنظر للمكانة العالية التي وصل اليها الدكتور عبد اللطيف في عالمي الطب والوطنية الحقة فاني افرد لترجمة حياته هذه النبذة :

تخرج طبيبنا الانساني رحمه الله من كلية الطب العسكرية في اواخر العقد الاول من القرن العشرين ، وبرجوعه الى بلده طرابلس انشأ مستشفاه المعروف في القبة ، واخذ يتعاطى مهنة التطبيب بفرعيها الداخلي والخارجي ، وقد حالفه التوفيق في عمله واخذت شهرته تنتشر شيئا فشيئا حتى اصبح مستشفاه على بساطته محجا يقصده المرضى من شتى انحاء البلاد العربية ، فجمع من ذلك ثروة كبيرة ، وكان يقصد بين زمن وآخر المانيا للتعرف على ما استجد من اكتشافات طبية حديثة ، وقد دأب على ذلك طيلة مدة حياته ، وكان هادىء الطبع بعيدا عن حب الظهور ، يعمل للخير لمجرد انه الخير ، وكان وطنيا صافي العقيدة ، وهذا ما جعله يتعاون مع المرحوم الزعيم عبد الحميد كرامي في خدمة القضايا الوطنية تعاونا صادقا ومخلصا حتى اواسط العقد الثالث من القرن ، حيث ابتعد عنه دون ان يعاديه او يقاومه ، وقد سعى خصوم الزعيم كرامي الى استمالته لجهتهم ، فكان يتملص من ذلك بتهذيب ، وكان سخي الكف في بذل المال للقضايا الوطنية ، وكثيرا ما كان تبرعه لقضية ما من القضايا

الوطنية يعادل ما جمع من اثرياء البلدة في هذا السبيل ، وكان له عطف خاص على مشروع كلية التربية والتعليم ، وكثيرا ما امدها بالمال في ساعات ضيقها ، وكان له الفضل في انقاذ مشروع المياه من براثن الشركات الاجنبية ، التي كانت تسعى للحصول على امتياز استثماره .

هذه شخصية ذلك الطبيب البارع المحسن الذي احبه الطرابلسيون فاغلقوا متاجرهم يوم وفاته في عام ١٩٤٠ حزنا ولوعة عليه رحمه الله .

آل التدمري :

بنو التدمري قدماء العهد في طرابلس ، ولقد ذكرهم في رحلته الكبرى الشيخ عبد الغني النابلسي ، عند ذكره اسماء من اجتمع بهم من علماء طرابلس وكبار ادبائها ، ويرجح ان اصل الاسرة من مدينة تدمر عاصمة الملكة زنوبيا ، ومن مشاهير ابنائها الشيخ درويش وقد جاء ذكره في بحث علماء طرابلس ، وحفيده الاستاذ درويش ، ورد ذكره في بحث شعراء طرابلس من هذه الرسالة .

آل الثمين :

اسرة كريمة قديمة العهد في طرابلس ، اشتهر افرادها بالوجاهة والعلم كالمرحوم خليل ونجله علي ، وقد شغل كلاهما نقابة اشراف طرابلس ، والمرحوم عبد الله بن المرحوم علي ، وكان عضوا في مجلس ادارة طرابلس ، ومات عن ثلاثة اولاد هم المغفور لهم تحسين ومدحت وسميح ، وقد صرف المرحوم تحسين حياته في مقاومة الانتداب الافرنسي ، وكان احد اعضاء الكتلة الوطنية بطرابلس ، كما كان يد الزعيم عبد الحميد كرامي اليمنى في حياته السياسية .

آل الجسر :

من اقدم واعرق الاسر الطرابلسية حسبا ونسبا ، اصلها من اشراف مدينة دمياط في مصر وتدعى بيت المائي ، من ابنائها ولي الله الشيخ محمد بن الشيخ مصطفى ، وابنه العلامة الاشهر الشيخ حسين ، وحفيداه الشيخ محمد والشيخ نديم ، وقد وردت ترجمة الشيخ حسين والشيخ نديم في بحث علماء طرابلس من هذه الرسالة ، اما الشيخ محمد الذي لعب ادوارا بارزة ورئيسية في حياة البلاد السياسية منذ عام ١٩٠٩ حتى عام ١٩٣٢ وقد برهن الشيخ في كل المراكز الرسمية التي تولاها خلال هذه الحقبة من الزمن عن كفاءة

نادرة في مجالات النزاهة والتجرد وبعد النظر والتسامح الديني ، كانت موضع اعجاب وتقدير جميع رجالات البلاد الخصم منهم قبل الصديق .

ان اول مركز رسمي تولاه الشيخ هو مديرية المدرسة الاعدادية في طرابلس ثم اللاذقية منذ عام ١٩٠٧ حتى عام ١٩٠٩ ، وفي عام ١٩١٢ انتخب ممثلا لطرابلس في مجلس المبعوثان العثماني ، وفي اثناء الحرب العمومية الاولى عام ١٩١٤ عطلت الدولة الحياة النيابية ، حيث عاد لطرابلس وكلف بنيابة رياسة المجلس العمومي لولاية بيروت ، باعتبار ان الوالي كان هو الرئيس ، وكان المجلس هذا بمثابة مجلس نيابي مصغر ، وكلف بالاضافة الى ذلك بمهمة مراقبة توزيع الاعاشة على الملاجىء والمياتم ، فكان خلال عمله هذا مثال النزاهة والتجرد والبعد عن التعصب الديني ، وقد اجمع ابناء مختلف الطوائف الدينية على تقدير مواقفه الانسانية هذه ، وبعد جلاء الاتراك عن البلاد استمر الشيخ في رياسة مجلس العموم حتى عام ١٩١٩ حيث استقال منها لخلاف وقع بينه وبين حاكم لبنان الافرنسي السيد (اوبوار) على طريقة وضع الموازنة ، وعقد العزم على افتتاح محل تجاري مع احد ابناء (شقير) في ساحة البرج .

في عام ١٩٢٠ عين رئيسا لمحكمة الجنايات في بيروت ، ثم مدعي عام لمحكمة التمييز ، وفي عام ١٩٢٣ تولى منصب نظارة الداخلية ، ثم نقل في عام ١٩٢٤ لنظارة المعارف .

وبعد تنظيم الحياة الدستورية في لبنان عين بقرار من المفوض السامي رئيسا لمجلس الشيوخ ، وبعد الغاء مجلس الشيوخ في عام ١٩٢٧ انتخب رئيسا لمجلس النواب ، وقد بقي في هذا المركز حتى ١٩ ايار سنة ١٩٣٢ يوم علق المفوض السامي الدستور ليحول دون وصول الشيخ الجسر لرياسة الجمهورية التي كان رشح نفسه لها ، واصر على الترشيح على الرغم من جميع المغريات التي قدمها له المفوض السامي لينصرف عن هذا الترشيح .

وقد اظهر الشيخ كفاءة نادرة في اثناء هذه المدة الطويلة من خدماته ، وكم كنت اتمنى لو تسمح الظروف للتبسط في تقديم الشواهد الكثيرة التي اعرفها عن هذه الشخصية الفذة ، وحسبي اني قد اشرت اليها ، اما من يريد التوسع في معرفة حقيقة الشيخ في النهج الذي اختطه لنفسه لا سيما في حياته السياسية ، فعليه الاطلاع على المراجع الكثيرة التي تطرقت لهذا الموضوع ، ومنها الاطروحة التي اعدها الاستاذ نصوحي العكاوي للحصول على شهادة الكفاءة في التاريخ .

آل الحداد :

اسرة قديمة في طرابلس المعروف منها في عصرنا المرحوم محمود عثمان الحداد الذي اشتهر بأدبه ورجاحة عقله ، واتقانه اللغات العربية والتركية والفارسية ، شغل وظائف حكومية عدة ثم انصرف لتعاطي الاعمال التجارية ، وقد ترك من بعده اولاد ثلاثة هم كمال الذي عمل امين سر مفتي فلسطين امام المجاهدين الشيخ امين الحسيني وسليم وعادل الذي سار على خطى ابيه في تعاطي التجارة ، ومنها المرحوم عبد الفتاح ، وقد شغل رياسة البلدية لاكثر من مرة .

ومن افرادها ايضا الشيخ عبد القادر وولده صبحي الذي شغل مديرية مدرسة التهذيبية الرسمية في ميناء طرابلس ثم انصرف الى تعاطي التجارة .

آل الحسيني :

الاسرة الحسينية قديمة العهد في طرابلس تنتسب للامام الحسين سبط حضرة صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ، نبغ منها افراد اعلام عرفوا بسعة العلم ، منهم الشيخ محمد الذي وردت ترجمته في بحث علماء طرابلس ، ومنهم الرجل الخلوق والطبيب الانساني الكبير الدكتور هاشم الذي احبه واحترمه الطرابلسيون ، فارسلوه ممثلا عنهم في المجلس النيابي دورات متوالية ومنهم النطاسي البارع الدكتور عبد القادر والمحامي القدير الاستاذ محمود والمهندس المبدع عبد الرحمن .

آل الحافظ :

يبدا تاريخ هذه الاسرة الكريمة في طرابلس من القرن التاسع عشر ميلادي يوم قدم اليها من بلدة بني احمد التابعة لمديرية المنيا في القطر المصري العلامة الكبير نابغة عصره الشيخ اسماعيل بن الشيخ احمد الاحمدي نسبة الى قبيلة بني احمد ، وقد لقب بالحافظ لقوة حافظته ووفرة ذكائه وغزارة علمه ، وقد شغل وظيفة امانة الفتوى في عهد المفتيين عبد الحميد كرامي وولده مصطفى ، انجب ولدا وحيدا يدعى عبد الحميد ، كان مثال ابيه في العلم والتقى ، ترك من بعده ولدا وحيدا هو العلامة الشيخ اسماعيل الذي ورد البحث عنه في فصل علماء طرابلس من هذا الكتاب ، ثم ان مولانا الشيخ اسماعيل هذا قد خلف ايضا ولدا وحيدا هو الدكتور امين الذي لا يقل عن والده وجده علما وفضلا واخلاقا وسماحة ، وقد مثل الامين طرابلس في الندوة اللبنانية في الدورتين

الاخيرتين من حياة المجلس النيابي ، وشغل رياسة اللجنة الخارجية في المجلس النيابي لمرات متعددة ، فاظهر من البراعة في ادارة شؤون هذه اللجنة الهامة ما جعله موضع تقدير واحترام زملائه النواب ، وكلف في عهد رئيس الجمهورية الاستاذ سليمان فرنجية برياسة الوزارة ، وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها في هذه المهمة فقد اسدى لبلاده خلالها الكثير من الخدمات القيمة .

آل الحامدي :

الاسرة الحامدية قديمة العهد ، تنتسب الى عبيد الله بن عبد الله بن الخليفة عمر بن الخطاب ، نزحت من الجزيرة مع من نزح من الفاتحين واستقرت بفلسطين زمنا ، وفي اوائل القرن العاشر الهجري قدم جدها الشهير بعبد الحق الى طرابلس واستقر فيها ، وقد نبغ من هذه الاسرة قديما كثير من العلماء والادباء ، ومن ابرز ابنائها في القرن العشرين الوطني المجاهد عادل حفظه الله الذي امضى حياته في مقارعة الاستعمار ، واشترك بجيش الانقاذ لتحرير فلسطين بقيادة البطل الطرابلسي فوزي القاووقجي ، وشغل مديرية بلدية طرابلس مدة من الزمن .

آل خـلاط :

آل خلاط قدماء العهد في طرابلس ، قدموا اليها من مدينة خلاط حاضرة بلوخستان ، انجبت العديد من الرجال الافذاذ شغلوا مراكز رفيعة في طرابلس ومصر ، منهم جرجس بك قنصل دولة العجم بطرابلس ، وديمتري مؤلف كتاب سفر السفر وجول بن تيودور رئيس لجنة البورصة في الاسكندرية ، ولطف الله منشئي جريدة الحوادث ، وهكتور الشاعر المشهور باللغة الافرنسية والقاضي الكبير جبرائيل بن لطف الله ، وغيرهم ممـن عرفوا في عالم العلم والادب والتجارة .

آل الخطيب :

اسرة قديمة وكريمة في طرابلس من مشاهير افرادها في عصرنا الشيخ محي الدين خريج جامعة الازهر ، انقطع في حياته للوعظ والارشاد والتدريس في المدرسة العلمية التابعة للجمعية الخيرية الاسلامية ، وولداه القاضيان الشرعيان رشاد ووجيه .

والشيخ عبد الحميد خريج الجامعة الازهرية ايضا وولده ظافر وقد شغل وظيفة محاسب في دوائر مالية طرابلس ، ومراقب مالي لدى بلدية طرابلس .

اسرة الخولي :

اسرة كورانية الاصل عرف افرادها بميلهم للعلم والادب منهم بولس احد كبار اساتذة الجامعة الاميركية في ايامه ، والطبيب المشهور الدكتور ابراهيم وولده الوحيد ميشال ، الذي كان صديقا موثوقا من رجال الانتداب الافرنسي ولعب دورا هاما في خدمة من يقصده في حاجة لدى رجال الانتداب .

آل الذوق :

اسرة قديمة العهد بطرابلس ، جدها الاعلى يوسف بن عمر بن عبد الله كان من جلة العلماء والشعراء في القرن الثاني عشر الهجري ، وغلب على افراد هذه الاسرة تعاطي الاعمال التجارية والمصرفية ، ومن اشهرهم رأس الاسرة في عصرنا الحالي محمد الذي تولى رياسة البلدية وعضوية مجلس الادارة وابناه عبد القادر من تجار الحرير وفؤاد الذي تولى رياسة البلدية اكثر من مرة ، وقد بقيت هذه الاسرة بعيدة عن الوظائف الحكومية حتى الثلث الاول من القرن حيث شغل منها المرحوم حازم بن بشير رياسة محكمة بداية طرابلس فعرف عنه الاستقامة والتجرد ، والقاضي الكبير محمد بن حسني الذي تقلد عدة مراكز قضائية وادارية كبيرة ، اهمها رياسة مجلس الجمارك الاعلى .

آل رعـــد :

اسرة قديمة في مقاطعة الضنية ، وكانت تحكم هذه المقاطعة لسنين طويلة من الزمن ، تربطها بـــآل كرامي وسلهب روابط المصاهرة ، وكانت مصايفهم في قرية سير ملتقى النخبة المختارة من رجالات طرابلس ، استوطن احد افراد هذه الاسرة علي طرابلس ، من اولاده الدكتور حسن والصيدلي حسين ، وكان الدكتور حسن وطني النزعة انتسب في اثناء دراسته الطب في استانبول للمنتدى الادبي العربي ، الذي كان يضم في عضويته احرار العرب ، التحق في اثناء الحرب العمومية الاولى بالجيش العثماني ، فقام نحو ابناء بلده طرابلس بخدمات قيمة قدروها له ، ولـــه جـــولات كثيرة في الخدمات الاجتماعية ، وتولى في عام ١٩٤٢ رياسة بلدية سير فنهض بالبلدة نهضة مشكورة كانت موضع تقدير المصطافين الطرابلسيين ، وقد ترك من بعده ثلاثة اولاد هم الدكتور علي والمهندسان سؤدد وسعود .

ومن مشاهير هذه الاسرة زعيم الضنية في عصرنا الحاضر المغفور له محمد بك ، وتبعه من بعده في الزعامة المرحوم نصوح آغا الذي مثل الضنية في المجلس النيابي اكثر من مرة .

ومن أبناء هذه الاسرة ايضا المرحوم اسعد بك الذي تقلب بعدة وظائف حكومية ، واولاده المرحومان آصف الذي تلقد وظائف قضائية عالية منها مدعي عام ديوان المحاسبة والطبيب المخبري محي الدين ، والدكتور شمس الدين احد كبار اطباء مستشفى بعبدا الحكومي .

آل الرافعي :

الاسرة الرافعية قديمة العهد في طرابلس ، تنتسب للفاروق عمر بن الخطاب ، وهي وآل البيسار من فرع واحد ، كان احد ابنائها العلامة الشيخ عبد القادر اول من تلقب بالرافعي ، اذ قال له احد مشائخه الكبار انت من رافعي لواء العلم ، فلقب بذلك ، والاسرة الرافعية من اكثر الاسر الاسلامية عددا ، انجبت في طرابلس ومصر الكثير من مشاهير العلماء والادباء والشعراء منهم في مصر ، مصطفى صادق وامين منشئي جريدة الاخبار ، ومنهم في طرابلس بلبل سوريا عبد الحميد الرافعي ، وقد ترجمت حياته في بحث شعراء طرابلس وولده الاديب الكبير سمير الذي كان التحق في اثناء الحرب العمومية الاولى بثورة الملك حسين ، ومنهم العالم والاديب كامل شقيق عبد الحميــد ومنهم الطبيب الانساني والقائد الوطني المناضل الدكتور عبد المجيد الامين القطري لحزب البعث العراقي في لبنان ومثل طرابلس في المجلس النيابي اللبناني وغيرهم من اكابر العلماء والادباء في القطرين المصري واللبناني .

آل الزعبي :

بنو الزعبي اسرة كريمة وقديمــة العهــد في طرابلس ، تنتسب للامــام عبد القادر الجيلاني ، احد حفدة صاحب الرسالة ، ومنبت الاسرة حوران وقد تفرعت لفروع شتى ، فهم في حماه يلقبون بآل الكيلاني ، وفي بغداد بالجيلاني والكل من نبع واحد ، واشهر افراد الاسرة في القرن العشرين الشيخ عبد الفتاح نقيب السادة الاشراف ، وخطيب الجامع الكبير المنصوري ، وقد تولى من بعده الخطابة ولده الشيخ علي ، ثم خلف الشيخ علي ولده الشيخ معتصم .

آل الزيني :

اسرة عريقة وقديمة بطرابلس ، كان افرادها في القرن الماضي على جانب كبير من الوجاهة والثراء ، من ابنائها في عصرنا الحاضر الرجل الخلوق رشيد الذي توفي دون عقب وشقيقه الدكتور رمزي الذي خدم في الجيش العثماني في اثناء الحرب العمومية الاولى ، وقام بخدمات طيبة لابناء بلده وترك من بعده ولداه فوزي وعصمت .

آل زريق :

اسرة زريق اصلها من حوران توطن جدهم الاعلى طرابلس وقد اشتهر منها رجال عرفوا بالتجارة والوجاهة والادب ، اعدم منها السفاح جمال باشا اثناء الحرب العمومية الاولى الاخوان انطوان وتوفيق من ابنائها المعاصرين قيصر ميخائيل زريق وولده شاعر الفيحاء سابا وقد ورد ذكره في بحث شعراء طرابلس وحفيده قيصر والمحامي فريد وولداه اسكندر والفرد .

آل سلطان :

تنحدر اسرة سلطان من سلالة الامير يونس بن الامير بهادر سليماني احد حكام طرابلس في زمن الاقطاع ، وكانت هذه الاسرة تقطن الشام وتعرف بأسم الاصيل نسبة للامير محمد الاصيل ، ثم ان احد ابنائها الامير حسين بن يونس الاصيل جاء الى طرابلس مما يقارب الثلاثماية سنة ونيف واتخذها موطنا له ، ومن مشاهير هذه الاسرة في القرن الماضي القاضي احمد بن محمد سلطان ، وقد عرف بسعة العلم وجلالة القدر ، وشغل القضاء الشرعي بطرابلس اكثر من مرة ، اما في عصرنا الحالي فقد اشتهر من ابنائه عبد اللطيف وقد ورد ذكره في بحث ادباء طرابلس ، وعبد العزيز ، ومن احفاده وجلهم من حملة الشهادات العالية ، القانوني الضليع عثمان الاستاذ في معهد الحقوق السوري وعضو المؤتمر السوري في ايام حكم الملك فيصل ، وولده فيصل السفير اللبناني وشقيقاه هاشم وعبد الغني اولاد كامل وراشد بن عبد العزيز نقيب المحامين الاسبق والقاضي اكرم والاديب سعد الله ولدا عبد اللطيف ، وقد ورد ذكر سعد الله في بحث ادباء طرابلس .

آل السلكا :

اصل هذه الاسرة من مدينة ادرنة ، هاجر جدهم الاعلى احمد الى دمشق واستوطنها ، ورزق فيها ولده صالح الذي دخل في خدمة الدولة العثمانية وتعين متسلما لطرابلس ، واختارها وطنا له ، وقد رزق فيها جميع اولاده وهم عبد اللطيف جد الصديق حكمت وعزيز وابراهيم وعارف واحمد ، وقد تقلبوا جميعهم في وظائف حكومية كبيرة .

آل سلهب :

اسرة قديمة العهد في طرابلس اشتهر من ابنائها في القرن الماضي الشيخ محي الدين الذي تتلمذ للشيخ عبد الغني الرافعي ، وقد شغل عدة وظائف

دينية منها القضاء الشرعي في قضاء تلكلخ ، وامانة الفتوى بطرابلس ، ومن ابرز ابنائها في عصرنا المهندس الكبير رشدي المخطط والمنفذ لمشروع جر مياه نبع رشعين الى طرابلس وزغرتا والميناء ، وولده المهندس فريد وقد شغل مديرية الطرق في وزارة الاشغال العامة مدة ، ثم ترك الوظيفة لينصرف الى الاعمال الحرة وصادف في ذلك نجاحا كبيرا ، كما ان منها المحامي الاستاذ كمال بن الشيخ صلاح وشقيقه سيف الدين .

آل السندروسي الحسيني :

تنتسب اسرة السندروسي للامام الحسين رضي الله عنه ، وهي قديمة العهد في طرابلس ، اشتهر منها في القرن الماضي الشيخ محمد فكان فقيها بارعا ، اما في عصرنا فقد كان على رأس الاسرة السيد ابراهيم الامام والمدرس في الجامع المنصوري والسيد سعد الله ، ومنهم القانوني النزيه والوطني الصادق عبد الستار الذي شغل وظائف قضائية كبيرة في حكومة شرق الاردن ، وفتح بيته في عمان لرجال الثورة السورية ايام الانتداب الافرنسي ، وكان يقدم لهم كل الخدمات الممكنة مع قلة مادياته ، وكذلك شقيقه حسن الذي لم يكن يقل عن اخيه حماسة في مديد المعونة المادية للقضايا الوطنية ، وقد مات جميع من ذكرت دون عقب باستثناء عبد الستار الذي خلف بعض الابناء الذكور والاناث .

آل الشنبور :

هذه الاسرة قديمة العهد في طرابلس ، ويقال ان جدها الاعلى من النبلاء الافرنسيين في الحملة الصليبية المعروفة ، انتحل الاسلام وتوطن في طرابلس ومن اشهر ابنائها في القرن الماضي المرحوم درويش الذي لم يكن من العلماء ، ولكنه كان اصيل الرأي خبيرا في سياسة زمنه ، اداريا ، نافذ الكلمة ، دخل في خدمة الدولة العثمانية وتقلب في مناصبها ، الى ان استقر عضوا في مجلس الادارة ، فكان بيده زمام المجلس ، وكان واسع الثراء ، اما في قرننا الحالي فمن اشهر ابنائها المرحوم عبد الحميد ، وقد كان كنسيبه درويش عريض الجاه ، نافذ الكلمة ، وكانت قاعة الاستقبال في بيته القريب من بيتنا مشرعة الابواب طول النهار والهزيع الاول من الليل يستقبل فيها ارباب المصالح للاستشارة او طلب المعونة ، شغل عضوية مجلس الادارة زمنا ، وقد ترك من بعده اربعة اولاد هم شفيق وراشد وحمدي ورياض ، لم يتزوج منهم سوى شفيق وحمدي ، وقد خلف شفيق رأفت وعبد الحميد ، اما حمدي فلم يرزق سوى ابنة وحيدة .

آل الشهال :

اسرة كريمة قديمة العهد في طرابلس ، يمتون في نسبهم لآل سيفا حكام طرابلس في زمن الاقطاع ، من اشهر ابنائها في القرن الماضي الشيخ محمود بن عبد الله ، وكان شاعرا مطبوعا ، اما في عصرنا فمن اشهرهم الشيخ محمد بن علي الذي انكب على تلقي علومه عن الشيخ الامام حسين الجسر ، ثم سافر لتوسيع معارفه الى الاستانة ومن مؤلفاته رسالة في كيفية تبزير دود الحرير ، واخرى في كيفية اخراج الزيوت من النباتات ، وكان ذا ميل للصناعات وتركيب الاجزاء وله رسالة في علم الفلك ، ومنهم ايضا القانوني الضليع جميل ، وقد تولى القضاء المدني وترأس المحاكم في طرابلس الغرب وصيدا وطرابلس ، عرف بنزاهته وتجرده ، وولده رضوان الفنان المبدع في الرسم التصويري ، تعتمده في رسومها اكثر المجلات العربية ، ومنهم ايضا الاصدقاء بشير وفضل ومحمد ورشاد اولاد عبد الرحمن والاديب الشاعر رشيد بن محمود الذي اختطفه الموت في عنفوان شبابه .

آل صادق :

من الاسر الكريمة في طرابلس ، اشتهر منها الشيخ خليل الذي تلقى علومه على اساتذته العلماء الشيخ محمود نشابه ، والشيخ درويش التدمري ، والشيخ عبد الرزاق الرافعي ، ثم اكملها في الازهر الشرف ، وكان لغويا مدققا ، وفقيها محققا ، خصوصا في الفقه الحنفي ، وولده الشيخ سامي الذي تلقى علومه عن والده ، ثم التحق بالازهر ، ومارس المحاماة ، فعرف بالنزاهة وسعة الاطلاع ، كما اشتغل بالصحافة بعد الانقلاب العثماني فأصدر جريدة الوجدان لمدة قصيرة .

آل الصراف :

اسرة قديمة في طرابلس يونانية الاصل ، قدم الجد الاعلى المسمى (اندولي يورغوث) من الاستانة يحمل فرمانا سلطانيا بتعيينه صراف (للميري) ولبث في منصبه مدة حياته ، ثم خلفه ابنه ، وهكذا كان ابناء هذه الاسرة يتعاقبون على هذا المنصب حتى زمن التشكيلات الادارية ، وتبديل شكل هذه المأمورية الى امانة صندوق اللواء ، ومع ذلك تقلدها منهم بضعة اشخاص ، ولقب الصراف الذي لقبوا به حديثا غلب على (يرغوث) .

ومن اشتهر من هذه الاسرة ، الياس ووديع وحنا ، والاستاذ الصديق

جورج الذي مارس التعليم في المدارس الرسمية وشغل مديرية المدرسة الرسمية بطرابلس مدة طويلة .

آل صوايا :

اسرة قديمة في طرابلس عرف ابنائها بتعاطي التجارة ، فمنهم من تعاطى اعماله التجارية في الاسكندرية او في اللاذقية ومن ابنائها الصديق اسكندر الذي شغل وظيفة احدى المديريات الرئيسية في شركة نفط العراق مدة طويلة عرف خلالها باصالة الرأي وبعد النظر والحزم في تصريف الامور فاحترمه رجال الشركة وقدروا مزاياه حق التقدير .

آل صدقة :

اسرة قديمة العهد في طرابلس ، حورانية الاصل من بلدة ازرع قدم جدهم الاعلى المسمى الحاج سليمان الى طرابلس بأمر من الملك المنصور قلاوون ، رزق فيها غلاما اسماه صدقة فلقبت الاسرة بأسمه ، وقد انجبت هذه الاسرة الكثير من الادباء الافاضل .

آل الصفدي :

اسرة قديمة في طرابلس اشتهر منها الشيخ عبد الرؤوف وقد تولى منصب القضاء الشرعي في الاسكله ترك من بعده ستة اولاد ذكور هم المشايخ محسن واحمد وعبد الحليم وعبد الحي وعبد الرحمن وعبد القادر ، والخمسة المذكورون اخرا هم من زوجته كريمة جدي الاعلى الشيخ رشيد ، ومن احفاده في عصرنا الشيخ حسن الذي تولى القضاء الشرعي في طرابلس الغرب ورياسة محكمة الرقة من اعمال الحكومة السورية ومنهم بن عمتي فهمي وحيد والديه الذي قصفته يد المنون في شرخ شبابه .

آل الصوفي :

اسرة قديمة العهد في طرابلس ، انجبت عددا من الرجال الافذاذ ، منهم رأس الاسرة في القرن السابع عشر ميلادي والي طرابلس محمد باشا ، وقد نبغ من هذه الاسرة افراد تميزوا بالوجاهة والعلم ، منهم في عصرنا الحاضر عبد اللطيف باشا الذي تولى عدة مناصب ادارية كبيرة ، ونال اعلى الاوسمة من الدولة العثمانية ، والقانوني القدير رشدي وقد شغل وظيفة مدعي عام

محكمة بداية طرابلس وولده عبد الله ، ونوري منشىء جريدة الثريا والاديب اكرم رئيس الدائرة الاقتصادية في محافظة الشمال .

آل عز الدين :

اسرة معروفة وقديمة في طرابلس ، من مشاهيرها العلامة الشيخ امين عز الدين وقد ورد ذكره في بحث علماء طرابلس ، وقطب الاقتصاد الوطني في لبنان مصطفى ، وقد ورد ذكر منجزاته الاقتصادية بطرابلس في باب الحياة الاقتصادية وولده واصف ، ومنهم الصديق حسان بن امين عز الدين مدير مصلحة الهاتف في الشمال .

آل عبد الوهاب الهندي :

اسرة كريمة في ميناء طرابلس جاء جدها في القرن الثامن عشر من الهند واستوطن طرابلس ، من اشهر ابنائها خير الدين وعادل وقد اشتغلا في اعمال افراغ البضائع من البواخر فلاقيا في عملهما نجاحا كبيرا ، عرف عنهما السخاء في مساعدة الجمعيات الخيرية وفي مديد العون للاسر المستورة ، تولى خير الدين رياسة بلدية الميناء وبقي فيها حتى وفاته عام ١٩٤٤ ومن افرادها اليوم عبد الغني والدكتور عفيف وفؤاد .

آل العمري :

اسرة كريمة تنتسب للخليفة عمر بن الخطاب ، حضر عميدها في طرابلس العارف بالله الشيخ علي من دمشق في القرن التاسع عشر ميلادي ، ولم يلبث فيها قليلا حتى تركها وذهب الى اللاذقية حيث بقي مدة ثم ساح في الباديتين السورية — العراقية وبرجوعه بعدها لطرابلس بقي فيها حتى وفاته .

لم يكن الشيخ العمري من العلماء ، ويقال انه كان اميا ، لكنه ترك اثارا لا تمحى من الكرامات الخارقة .

وقد خلف عدة اولاد ابرزهم الشيخ عمر الذي قضى حياته في خدمة الناس وفض مشاكلهم ، وكان رحب الصدر عالي الهمة رحمه الله .

آل علم الدين :

اسرة قديمة وكريمة في ميناء طرابلس ، عرف افرادها بتعاطي التجارة وقد اشتهر منهم الحاج عثمان وعبد الستار وولده رشاد وقد ولي مديرية

بوليس مدينة حلب في احرج الايام خلال الانتداب الافرنسي ، فعمل على التوفيق بين مصالح الافرنسيين ورغبات الوطنيين ، وكان موضع تقدير كلا الفريقين ، ومنهم اليوم الدكتور عباس رئيس فرع الجامعة اللبنانية في الشمال والطبيب الانساني المرحوم سميح والرجل الخلوق المهندس رئيف .

آل عدره :

اسرة قديمة وكريمة في طرابلس ، اشتهر افرادها بتعاطي تجارة الصابون وعرفوا بالصدق في المعاملة ، وفي الحدب على الفقراء وابناء الاسر المستورة ، ومن ابرز ابنائها عبد الرحمن والاخوة عمر وصديق وصبحي واولادهم عبد الله والسفير عبد الرحمن والصديق محمد صبحي .

آل عويضة :

اسرة قديمة وكريمة في طرابلس تعاطى افرادها تجارة الصابون ايضا ومن ابرز ابنائها في مطلع العصر العشرين العلامة الشيخ عبد الكريم وقد وردت ترجمة حياته في فصل علماء طرابلس وشقيقاه الحاج حسين والحاج كامل ، اما في ايامنا فان منها الحاج اكرم وعبد الحميد وقد شغل كلاهما رياسة بلدية طرابلس وعرف ابناء هذه الاسرة بسلامة الطوية والصدق في المعاملة .

آل الغندور :

اسرة بني الغندور حلبية الاصل ، وكانت تلقب بآل الخلاصي وهي اسرة معروفة في حلب طلع منها ادباء وتجار ، ومما هو معروف عن رأس الاسرة في طرابلس المدعو محمد شلبي انه قدم طرابلس واسس فيها عدة مصانع لحياكة الاقمشة الحريرية ، ومات عن ولد اسماه باسمه محمد ، ومحمد هذا اشتغل بالادب وعمل الخيرات والمبرات نحو ابناء وطنه فاعطاه ادبه وسخاء كفه واريحته لقب غندور .

ومما يؤثر عنه رحمه الله انه في اثناء الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا حصل من جرائها مجاعة في طرابلس ، فكان المترجم يذهب بذاته الى دور الفقراء والعجز على اختلاف مذاهبهم ويحسن اليهم ، ويقال انه انشأ فرنا في محلة السويقة كان يطعم منه الفقراء والمساكين .

ومن احفاده التاجر المعروف والمحسن الكبير عبد الله الغندور الذي اتبع نهج اجداده في عمل الخير والاحسان الى ابناء الاسر المستورة ثم تبعه اولاده

ناظم ورضوان وهاشم وفاضل وواصف فكانوا سر جدهم ووالدهم في انشاء مصانع السكر والحديد الصلب والخشب المضغوط فاحيوا اقتصاد المدينة وهم جميعا سباقون في عمل الخير وفي بناء المساجد ورعاية المؤسسات الخيرية ومديد العون للعائلات المستورة والمعوزين وفقهم الله وحماهم من كل مكروه .

آل غريب :

حورانية الأصل استوطن جدها الاعلى طرابلس في القرن الثامن عشر ميلادي وعرف افرادها بدماثة الخلق والبعد عن التعصب الديني وقد شغل البعض منهم اعلى المناصب الادارية ومن اشهرهم في عصرنا الحاضر المرحوم عبد الله بن حنا خريج المعهد الملكي في استنبول وشقيقه الدكتور اسكندر الذي ساهم مساهمة فعالة في تخفيف ويلات الحرب العمومية الاولى عن المجندين الطرابلسيين في الجيش العثماني وممن تربطني بهم صداقة من هذه الاسرة الكريمة المرحومان الصيدلي هاني والرجل الخلوق سامي شقيقا عبد الله واسكندر والياس بن الدكتور اسكندر والمرحوم حنا بن عبد الله .

آل القتال :

من الاسرة المعروفة بطرابلس اشهر ابنائها في القرن الماضي الشيخ ابراهيم الذي كان على جانب كبير من العلم والفضل ، تعاطى بالاضافة الى تدريس علوم الدين واللغة مهنة المحاماة فاشتهر ببراعته وصدق معاملته وعزة نفسه فتهافت عليه اصحاب الدعاوى وطلاب علم الفقه وقد تخرج على يده كبار القضاة والمحامين في زمانهم ومن ابنائه المربي الفاضل الاستاذ رفيق مؤسس جمعية اسعاف المحتاجين وملجأ الايتام الاسلامي بطرابلس الذي شغل مديرية كلية التربية والتعليم مدة تربو على العشرين سنة وانجب اولادا يعتبرون من خيرة شباب البلد هم المهندسين احمد وعبد الكريم والطبيب نزار .

آل القاوقجي :

من الاسر العريقة والقديمة في طرابلس من اشهر ابنائها في القرن الماضي الشيخ شمس الدين بن محمد ابراهيم الشهير بابي المحاسن تلقى علومه الابتدائية على مشائخه في طرابلس ولما بلغ من العمر خمسة عشر سنة سافر الى مصر وطلب العلم في الازهر حيث لبث فيه سبعا وعشرين سنة ، واكثر ما اشتهر به علم الحديث والرواية ، اما في عصرنا الحاضر فمن اشهر ابناء هذه الاسرة الكريمة العالم الشيخ فخر الدين خريج الازهر الشريف وقد مثل العلماء في مجلس الاوقاف الاسلامي لاكثر من دورة، وولده الاداري الكبير الصديق رياض

والقائد العسكري الملهم فوزي وهو واحد من ابرز ابناء طرابلس في عصر الانبعاث العربي ، تخرج من صفوف الخيالة في المدرسة الحربية في استانبول عام ١٩١٢ وقد اختار هذا السلك لطابع البطولة التي يمتاز بها الفرسان ، ولما في الفروسية من مخاطره ولذه ، امضى حياته كلها في مقارعة الاستعمارين الافرنسي والانكليزي في سوريا والعراق وفلسطين ، وقد اقام مدة اربع سنوات في المملكة العربية السعودية عمل خلالها في بناء القوات العسكرية الحديثة فيها ، وسجل في معاركه التي خاضها ضد المستعمرين انتصارات باهرة دلت دلالة قاطعة على طول باعه في وضع الخطط العسكرية الناجحة ، وكانت اخر المعارك التي قادها ، قيادته لفريق من قوات انقاذ فلسطين في عام ١٩٤٧ .

وكانت نهاية هذا القائد العسكري الملهم ، مماثلة لنهاية الكثيرين من اقرانه من رجالات العرب الافذاذ ، من اهمال ونسيان .

وقد اصدر هذا القائد قبل وفاته عددين من مذكراته يجعلان من يطلع عليهما على قناعة بأنه لو وجد في امة تواقة حقا للافلات من قيود العبودية والاستعمار لكان شأنها غير ما هي عليه اليوم .

واني لارجو مخلصا ان تستفيق بلدي يوما من رقدتها فتخلد ذكرى ابنائها البررة الذين ضحوا براحتهم في سبيل سعادتها وهناءها .

آل كرامه :

من اكرم الاسر القديمة في طرابلس ، انجبت الكثير من العلماء والادباء وكاد مركز الافتاء في طرابلس يكون وقفا على ابنائها

اشتهر منها في القرن الثاني عشر الهجري المفتيان علي ومصطفى جد الزعيم عبد الحميد وفي القرن الثالث عشر هجري المفتي رشيد والد الزعيم عبد الحميد ، وفي ايامنا من ابرز ابنائها الاستاذ مصطفى شقيق الزعيم عبد الحميد ورفيق جهاده والاستاذان معن وعمر ولدا عبد الحميد والاستاذ شفيق رشيد كرامي وابن اخيه رشيد فهمي كرامه .

ومن حق المرحوم شفيق علي وقد كان عونا لي في صغري في اثناء الحرب العمومية الاولى ان اذكر نبذة من حياته وفاءا لذكراه ، فقد كان رحمه الله على جانب كبير من الصدق والنزاهة مع منتهى التواضع على الرغم من المراكز المرموقة التي شغلها ، بعد ان اتم تحصيله العالي في بيروت وكان رفيقاه في المدرسة شقيقاي عبد الحميد وكامل تعين كاتبا في قلم العدلية بطرابلس وما لبث ان رقي لكفائته لرياسة قلم المحكمة ثم عضوا ملازما فيها ، وبعد خلاف وقع

بينه وبين رئيس المحكمة انذاك استقال من الوظائف الحكومية واشتغل بالمحاماة ، وقد اشتهر في مهنته هذه بالدفاع عن حقوق المظلومين فاحبه الناس واحترموه ، وقد شغل لمدة طويلة نيابة رياسة بلدية طرابلس ، كما انتخب في عام ١٩٣٦ ممثلا عن طرابلس في المجلس النيابي اللبناني .

اما ابرز ابنائها فهو المرحوم عبد الحميد فيعتبر بحق في مقدمة الرجال في البلاد العربية الذين قارعوا الاستعمار الاجنبي ، وقد امتد نضاله ضد الانتداب الافرنسي طيلة عشرين عاما ، وقاسى من اضطهاد رجال الدولة المنتدبة الكثير فنفي وسجن في سبيل معتقده اكثر من مرة ، احبته الجماهير الطرابلسية لدرجة العبادة ، اما الطبقة المثقفة منهم فكان الود بينه وبين معظمهما مفقودا وكذلك الكثير من اعيان المدينة ووجوهها ويرجع السبب في ذلك باعتقادي الى عدم سماحه لاحد منهم بانتقاده او التكلم باسم المدينة ، ولو كان في انتقاده او في كلامه على صواب ومن صفاته انه كان يتحمل تبعية اعمال انصاره مهما كانت خاطئة ، وكان اخصامه يعيبون عليه شدته في محاربة الانتداب والمطالبة بالوحدة مع سوريا الامر الذي اضر في اعتقادهم بمصالح طرابلس الحيوية ، وكان رحمه الله رقيق الجانب مع الضعفاء يصفح عن هفواتهم معه ، اما الاقوياء فكان يجابه معارضتهم له بكل شدة وعنف وبكلمة مختصرة فان شأن الزعيم عبد الحميد كرامي شأن كل عظيم كان له اخطاء كما كان له حسنات فالكمال لله وحده جل جلاله . وقد قاد المدينة من بعده بكل كفائة ولده رشيد الذي تولى عن جدارة رياسة الوزارة اكثر من مرة ، عرف بالنزاهة وقوة الاعصاب عف اللسان اذا تناول الناس بحديثه قليل الكلام ، ولا عيب فيه بنظري الا تمسكه باصرار لان يكون الرجل الوحيد المتكلم باسم المدينة ، وعدم حماسه في تلبية طلبات اصحاب المصالح حتى المحقة منها .

آل كاتسفلس :

ان هذه الاسرة يونانية الاصل من جزيرة كورفو ، جاء كبيرها جيوفاني طرابلس في اواخر القرن الثامن عشر ميلادي بوظيفة مستشار للقنصل الانكليزي وبعد وفاة القنصل صار خلفا له ، وقد انجبت هذه الاسرة افاضل الرجال علما وادبا وحصافة وكانت علاقات الصداقة والود قائمة بين البعض منهم وبين الاعيان المسلمين على اتمها متانة واخلاصا ، ومن اشهر افرادها في عصرنا شارل وكان قنصلا لعدة دول اوروبية بطرابلس .

آل كباره :

اسرة كباره قديمة العهد في طرابلس لها عدة فروع في الشام وطرابلس

تلقب بهذا الاسم ، وليس من المعروف اذا كانت هذه الفروع تنتمي لجد واحد ، انما المهم ان المنتسبين لهذا الاسم جميعهم من خيرة الرجال في مجالات العلم والادارة والمال ، ومن اشهرهم في مطلع العصر عبد القادر بك الذي شغل وظيفة مديرية التحريرات في طرابلس لمدة طويلة ومنهم الرجل الخلوق ولده مصباح ومنهم في ايامنا هذه المهندس اشرف وقد شغل رياسة الدائرة الفنية لدى بلدية طرابلس لمدة طويلة وشقيقه الدكتور فوزي وولده الدكتور منذر ومنهم ممثل طرابلس في المجلس النيابي المحامي سالم منشىء المدرسة الاهلية المجانية ومؤسس حزب العمال الطرابلسي ، ومنهم الصناعي العصامي نشأت والحافظ لكتاب الله الشيخ صلاح الدين .

آل المسقاوي :

اسرة قديمة وكريمة في طرابلس ، المرجح ان جدها الاعلى عمر نزح اليها من مصر ، وكلمة مسقاوي في مصر تعني الانتاج الطيب الممتاز ، فيقولون قمح مسقاوي اي قمح جيد ، ولعل تسمية هذه الاسرة بالمسقاوي ترجع الى نبل وطيبة عنصر ابنائها ، ومن اشهر افرادها في عصرنا الحاضر الشيخ عبد القادر واولاده رشاد وناظم وواصف ومحمد ، وقد نزل هؤلاء الاخوة في مطلع الثلاثينات مدينة مرسين في تركيا وتعاطوا فيها التجارة فلاقوا نجاحا كبيرا ، وقد توفي منهم رشاد دون عقب ، اما محمد فقد آثر الرجوع الى طرابلس والعمل فيها وقد تولى رياسة بلدية طرابلس مرتين وعرف بالنزاهة والتجرد وعمل الخير .

آل المجدوب :

اسرة قديمة في طرابلس عرف افرادها بالتواضع ولين العريكة التحق بعض رجالاتها بالازهر الشريف الا انهم بصورة عامة كانوا ينصرفون للاعمال الحرة ، من ابرزهم في ايامنا المرحوم صديق بن رشيد والمربي الخلوق الاستاذ ناظم عبد القادر .

آل المقدم :

كلمة مقدم في زمن الاقطاع ، كانت تعني قائد الجيش وآمره ، وعلى هذا فأننا نرى في لبنان اكثر من اسرة تكنى بالمقدم ، لا تربطها مع بعضها على ما ارجح رابطة النسب .

وفي طرابلس بالذات اسرتان كريمتان قديمتان تلقبان بالمقدم ، اشتهرت الاولى منهما بما انجبت من رجال اشداء ابرزهم في عصرنا المغفور لهما راشد

وامين عبد القادر ، عرف راشد بالمهابة وفرط الكرم والعطاء وقد انجب ولدان المغفور لهما نافذ ومايز ، وانجب نافذ ولدا وحيدا هو فاروق قائد حركة ٢٤ تشرين الوطنية ، اما مايز فقد توفي منذ زمن قريب وهو في عنفوان شبابه تاركا خلفه عدة اولاد صغار .

واشتهر من هذه الاسرة المرحوم مصطفى عبد القادر واولاده ممتاز وحمدي والمحامي راشد .

اما اسرة المقدم الثانية فقد عرف افرادها بالوجاهة ولين العريكة ابرزهم في مطلع القرن العشرين المغفور لهما احمد العضو في محكمة بداية طرابلس في العهد العثماني ، وبن اخيه الشيخ منير الذي شغل مديرية الايتام ثم القضاء الشرعي بطرابلس ، ومن رجالات هذه الاسرة الكريمة ايضا المربي الكبير فضل بن حسن ، وقد انخرط في سلك التعليم في المدارس الرسمية ثم تولى رياسة دائرة التربية الوطنية في الشمال ، وبعد احالته للتقاعد عهد اليه الاشراف على ادارة كلية التربية والتعليم الاسلامية ، ومنها ايضا المحامي مصباح عبد القادر والقاضي المدني طه .

آل المنلا :

اسرة معتبرة ووجيهة في طرابلس يقال ان اصلها من حلب وان عميدها الحاج حسن هو اول من قدم منهم الى طرابلس واتخذها وطنا وتعاطى التجارة فيها .

ونبغ من هذه الاسرة افراد عرفوا ببراعتهم في اساليب التجارة وحسن الادارة ، اشهرهم عبد القادر باشا وهو وان لم كن من العلماء فلقد كان عالي الهمة تقي وعصاميا فاضلا ، كان يحدثنا جدي الشيخ علي عنه انه قد تجمعت فيه مكارم الاخلاق ، وقد بلغ بجده وذكائه اسمى المراتب وحاز من الدولة العثمانية الرتبة الاولى (بكلاريك) وعلى عدة اوسمة رفيعة ، وقد ناب مرارا كثيرة عن متصرفي طرابلس .

ومنهم شقيقه محمود الذي شغل مدة طويلة رياسة مجلس ادارة شركة الترمواي الوطنية الممتدة بين البلد والميناء .

ومنهم سعد الله والد الصديق احمد والدكتور طارق ، وقد ولي عدة وظائف ادارية كبيرة وانتخب عضو في مجلس المبعوثان العثماني ، ومنهم الرئيس سعدي بن محمود وهو احد مشاهير العاملين في الحركة الوطنية العربية وقد سجن في اثناء الحرب العمومية الاولى بسبب معتقده السياسي وكاد القائد جمال باشا يقضي باعدامه مع من اعدم من رجالات العرب لولا التهديد الذي

تلقاه من قائد الثورة العربية وقتئذ الملك فيصل بن الحسين باعدام من عنده في الحجاز من الاسرى الاتراك اذا استمر في اعدام رجالات العرب ، وقد انتخب بعد الاستقلال عضوا في الندوة النيابية لدورتين وشغل وزارة الاقتصاد اثناء وزارة سامي الصلح فبرهن عن نزاهة وتجرد وبعدها ولي رياسة الوزارة .

ومنهم الاصدقاء نجيب الذي شغل رياسة مجلس الاوقاف الاسلامية وعضوية مجلس ادارة مياه طرابلس وما زال يشغل اليوم رياسة غرفة التجارة وولده الدكتور حسن ، واصف وولده المحامي القدير محمود .

آل الميقاتي

اسرة قديمة في طرابلس ، اصلها من مصر جاء جدها الاعلى الشيخ محمد في حمله الملك المنصوري حيث ولاه الامامة والخطابة في الجامع الكبير الذي بناه فيها ومن اشهر ابنائها العارف بالله الشيخ رشيد وقد ذكره المؤرخ عبد الله نوفل في كتابه (عائلات طرابلس) وذكر باسهاب يده البيضاء في الحيلولة دون الاعتداء على العائلات المسيحية في حوادث ١٨٦٠ المشهورة ، وولده جدي الشيخ علي الذي تولى بأمر من الوالي مدحت باشا رياسة الجمعية الخيرية الاسلامية وبقي يشغلها حتى تقدمه في السن وعجزه عن الاستمرار في هذه المهمة ، ومن آثاره الحميدة رعايته لمدرسة البنات التابعة للجمعية المذكورة الوارد ذكرها في بحث الحياة العلمية من هذا الكتاب ، وقد أمن للجمعية بنفوذه عقارات كثيرة كانت وما زالت تدر من ريعها سنويا مبالغ كبيرة ، وقد بخلت عليه جمعية ملجأ الايتام واسعاف المحتاجين التي حلت محل الجمعية الخيرية المذكورة ، تخليد ذكراه بتعليق رسمه بن ضمن من علقت رسومهم ممن اسدوا الخدمات الجليلة لهذا المشروع سامحهم الله .

ومن ابناء هذه الاسرة الشيخ رشيد بن الشيخ علي والشيخ كاظم بن الشيخ خير الدين مفتيا طرابلس الاسبقان .

آل منقاره :

اسرة كريمة وقديمة في طرابلس اشهرهم في القرن الماضي الشيخ حسين بن الحاج محمد وهو من افاضل علماء المذهب الحنفي شغل وظائف عالية في الازهر والشيخ محمود والد الصديق سعد الله وقد وردت ترجمته في بحث علماء طرابلس .

آل نجا :

تتصل هذه الاسرة الكريمة بنسبها الى آل بيت الرسول الكريم عليه

افضل الصلاة والتسليم اشتهر من ابنائها في القرن الماضي الشيخ عبد القادر ابن مصطفى بن عبد الرحمن ، ويروى عنه انه كان عالما عاملا فقيها فاضلا ، ترك من بعده اثار علمية مفيدة منها كتاب اسماه (روضة الانوار وجامع الاسرار) وقد قرظه بضعة من رجال العلم والادب كالعلماء الافاضل الشيخ محمد القاووقجي والشيخ عبد القادر الرافعي والشيخ خليل الثمين ومن ابناء هذه الاسرة المعروفين في ايامنا الدكتور رفيق الوزير الاسبق لوزارة الاقتصاد وقد كان في اثناء ممارسته لهذه الوزارة الخطيرة مثال النزاهة ومنهم رفيق الدراسة طبيب الاسنان الدكتور اديب .

آل النحاس :

من الاسر القديمة في طرابلس ، هاجر جدها الاعلى سليمان من بلاد حوران لكثرة المنازعات والفتن متخذا حمص له موطنا وبعد وفاته انتقل ابنه عبود الى طرابلس وتوطن فيها ، وآل النحاس الموجودون في طرابلس جميعهم من سلالة عبود هذا ، ونبغ منهم رجال اثروا في عالم التجارة ، ومنهم بضعة تقلدو المناصب الرفيعة ، وفيهم ادباء افاضل المشهور منهم في عصرنا الحاضر قيصر وكان ترجمانا للدولة في طرابلس وولده جبران الذي شغل وظيفة متصرفية شمالي لبنان ومثل طرابلس في المجلس النيابي لاكثر من دورة وولى عدة وزارات ومنهم التاجران المعتبران موسى ونجيب ومنهم الياس بن موسى الذي شغل نيابة رياسة بلدية طرابلس لاكثر من مرة وكان عالي التهذيب رضي النفس محبوبا بين الناس لدماثة خلقه وقد توفاه الله في عنفوان شبابه في حادثة سقوط الطائرة التي كانت تقله من القاهرة الى الاسكندرية مع بعض رفاقه من الشباب الطرابلسي فبكتهم طرابلس وكان يوم وداعهم الى مقرهم الاخير يوما مشهودا في طرابلس .

آل نشابه :

اسرة كريمة وقديمة في طرابلس اشتهر من ابنائها في القرن الثامن الهجري قاضي القضاة شمس الدين بن احمد ، تولى قضاء مصر ، كما اشتهر من ابنائها في القرن الماضي العلامة محمود بن عبد الدائم ، وكان يدرس في اروقة المسجد الكبير العلوم الشرعية والعقلية ، اما في عصرنا الحاضر فان من اشهر ابناء هذه الاسرة العلامة الشيخ عبد اللطيف وقد وردت ترجمته في بحث علماء طرابلس وابنائه الكرام القاضي الكبير عبد الوهاب وولديه عدنان السفير لدى وزارة الخارجية السورية والمربي الكبير هشام مدير عام المدارس التابعة لجمعية المقاصد الخيرية في بيروت ومنهم المحامي القدير عضو مجلس الاوقاف الاسلامية

بطرابلس الاستاذ محمود وولده الضابط في الجيش اللبناني الدكتور يحي .

آل نوفل :

اسرة قديمة في طرابلس اصلها من حوران من بقايا العرب المتنصرة الغساسنة ، وقد قدموا منذ ثلاثة قرون لشمال لبنان واستقروا في قرية انفه ، ثم هبطوا طرابلس واستقروا فيها ، واقدم من عرف منهم موسى بن جرجس نوفل ، وقد اشتهر من هذه الاسرة بالعلم والفضل الكثير من الرجال اما في عصرنا الحاضر فمن اشهرهم المؤرخ والاديب عبد الله بن حبيب له عدة مؤلفات تاريخية منها كتاب « عائلات طرابلس » وكان في حياته على جانب كبير من الوداعة وكرم الاخلاق فأحبه الناس واحترموه وقد مثل طرابلس في المجلس النيابي ، وولده الوحيد حبيب يشابه ابيه برقة الشمائل وكرم الاخلاق وهو يشغل اليوم وظيفة مدير عام البنك الافرنسي في لبنان .

آل اليكن :

يرتقي نسب هذه الاسرة الكريمة الى حمزه باشا والي طرابلس سنة ١٠٩٩ هجرية توفي في طرابلس ودفن في جبانة جامع طينال ، كلمة يكن كلمة تركية معناها ابن اخت ، ولا تكون لقبا الا لابن اخت ملك او امير ، ويرجح ان حمزه باشا هذا كان ابن اخت السلطان محمد الرابع العثماني ، تقلب ابناؤها في وظائف الدولة ومن اشهرهم في عصرنا الحاضر حكمت بن محمد وهو صاحب مؤلفات تاريخية عدة استوطن اللاذقية وتوفي فيها .

آل ينـــي :

آل يني يونانية الاصل كأنسبائهم آل كاتسفليس اصلهم من ميكونو بجوار جزيرة كورفو ، قدم جدهم الاعلى ميخالي نحو سنة ١٧٧٠ ميلادية من بلاده وكان ربانا على مركب تجاري يحمل بضاعة الى طرابلس فثارت عليه الانواء فغرق المركب امام ميناء طرابلس فنجا من الغرق ولجأ الى ابن وطنه المرحوم جواني كاتسفليس الذي احسن وفادته وعمل على تعيينه في القنصلية الانكليزية التي كان ترجمانا لها وممن اشتهر من هذه الاسرة العالمان الفاضلان جرجي وصموئيل ابنا انطونيوس جرجي ميخالي وقد ورد ذكرهما في بحث ادباء طرابلس وليوبولد اسحق وولده القاضي الكبير اميل الذي تولى رياسة محكمة بداية طرابلس فعرف فيها بالنزاهة والتجرد .

الباب الثاني ـ الحياة الاجتماعية

الفصل الاول ـ مناهل العلم

كانت للعلم في طرابلس حتى نهاية العقد الاول من القرن العشرين ثلاثة مناهل :

المنهل الاول : اروقة الجامع المنصوري الكبير ، المخصصة لتدريس علوم الدين الاسلامي واللغة العربية بجميع فروعها .

المنهل الثاني : المدرسة الرسمية المؤلفة من ثمانية صفوف في البلدة ، والمدرسة التهذيبية الابتدائية في الميناء المؤلفة من ثلاثة صفوف ، ومدرسة البنات الابتدائية التابعة للجمعية الخيرية الاسلامية في البلدة .

المنهل الثالث : مدارس البعثات الاجنبية وهي :

أ — البعثة الافرنسية (الفرير) مدرسة بعشرة صفوف للذكور في البلدة ، واخرى بثلاثة صفوف في الميناء ، ومدرسة ابتدائية للبنات بادارة راهبات المحبة في البلدة .

ب — البعثة الانجيلية الاميركية ، مدرسة ثانوية للذكور ، وابتدائية للبنات في البلدة ايضا .

ج — البعثة الايطالية (الكرمليتين) مدرسة ابتدائية للذكور في البلدة .

وكان التعليم الابتدائي الرسمي بالمجان ، اما التعليم الثانوي في بيروت ، والجامعي في الاستانة عاصمة الدولة ، فكانت رسومه رمزية وزهيدة ، وكان يعفى من هذه الرسوم المعسرون ، بمجرد تقديمهم شهادة فقر حال ، مصدقة من مجلس ادارة المتصرفية .

وفي عام ١٩١١ انشئت مدرستان رسميتان ابتدائيتان نموذجيتان الاولى للذكور في البلدة ، واخرى للاناث في الميناء .

وكان الاقبال على طلب العلم بصورة عامة فاترا ومحدود الاهداف ، فهدف معظم المنتمين للمدرسة الرسمية هو ، ان يحصلوا على وظيفة متواضعة في احدى دوائر الحكومة ، وهدف المنتمين لمدارس البعثات الاجنبية هو ، اما مساعدة آبائهم في اعمالهم التجارية ، او التهيؤ لمزاولة مهنة حرة ، كالطبابة والصيدلة ، وهدف كثرة المنتسبين الى دروس اروقة المساجد ، هو التخلص من الخدمة العسكرية ، اذ كان طلاب العلوم الدينية يعفون من الخدمة العسكرية بعد نجاحهم بامتحان تجريه لهم لجنة عسكرية خاصة .

ومن الظواهر التي تلفت النظر خضوع طلب العلم في تلك الايام لقاعدة الطبقية التي تحدثت عنها في باب الحياة الاجتماعية .

وكان جميع طلاب المدرسة الرسمية من المسلمين ، واغلبيتهم من ابناء الاسر المتوسطة الحال ، وكان طلاب مدارس البعثات الاجنبية خليطا من المسيحيين وابناء الاغنياء من المسلمين ، وكان الطلاب المسيحيون يزيدون بطبيعة الحال عن الطلاب المسلمين بالعدد .

وكان على الطامحين في اكمال دراساتهم الثانوية والجامعية من خريجي المدرسة الرسمية قبل عام ١٩١٥ الالتحاق بالمدرسة الاعدادية في بيروت ومدة الدراسة فيها سنتان ، ومن ثم الالتحاق باحدى الكليات الملكية — الحقوق الهندسة — الطب — الحربية في العاصمة استانبول ، او في كلية الطب في دمشق التي انشئت بعد اعلان الدستور ، وكانت مدة الدراسة في كل منها اربع سنوا ت، وفي عام ١٩١٥ المذكور سدت هذه الثغرات بطرابلس بان ابدلت المدرسة السلطانية ، ذات الصفوف العشرة ، بالمدرسة الرشدية الرسمية ، كما انشئت دار للمعلمين .

وبصورة عامة لم تعرف طرابلس مدارس وطنية خاصة في مستهل القرن سوى المدرسة الوطنية لمؤسسها العلامة الامام المرحوم الشيخ حسين الجسر ، ومدرسة بكفتين التي اسسها المرحوم البطريرك غريغوريوس حداد عندما كان مطرانا على طرابلس .

فالعلامة الجسر قد انشأ مدرسته هذه وادخل على برامج التدريس فيها لاول مرة من تاريخ طرابلس تلقي العلوم العصرية واللغة الافرنسية ، بالاضافة الى علوم الدين واللغة .

وكانت حصيلة هذه الخطوة العظيمة التي خطاها الشيخ الجسر ، قيام بعض الحاسدين بوشايات خلاصتها ان هذه المدرسة الوطنية لا تدرس العلوم الدينية فحسب ، ولكن تدرس معها العلوم واللغة الافرنسية وهي لذلك لا تستحق اعفاء طلابها من الخدمة العسكرية ، وكان لذلك اثره في عدم الاقبال عليها ، فاقفلت ابوابها بعد ان اخرجت خلال الفترة القصيرة من حياتها خيرة العلماء الذين تفخر طرابلس اليوم بهم وبانجازاتهم الاصلاحية امثال المغفور لهم المشايخ رشيد رضا وعبد القادر المغربي ، وعبد الكريم عريضه ، وعبد المجيد المغربي ، ووهيب ومحمد البارودي وسعيد كرامي ومحمد رحيم ، وكامل الميقاتي وغيرهم .

ومما يلفت النظر ان العلامتين الشيخ رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربي لم يتلقيا العلم الا في مدرسة الشيخ الجسر ، انما على الرغم من ذلك فقد اشتهرا بانهما في مقدمة المصلحين في العالم الاسلامي بآرائهما السديدة وانجازاتهما العظيمة كما سيأتي ذكره بالتفصيل في بحث علماء طرابلس .

اما مدرسة بكفتين فكانت اطول عمرا من المدرسة الوطنية وكان في مقدمة اساتذتها المغفور لهم : الشيخ ابراهيم الفتال والشيخ يوسف الاسير وانطوان شحير وعثمان الارنؤوط وقد تخرج منها الكثير من رجالات طرابلس اذكر منهم : المغفور لهم صموئيل وجرجي يني وخير الدين عبد الوهاب وهاشم ذوق .

وكان يقوم بتدريس علوم الدين واللغة في اروقة المسجد المنصوري الكبير علماء المدينة الاجلاء كل بحسب اختصاصه ، وكان العالم المختص يعطي الطالب بعد اكمال الدراسة في فرعه اجازة تنبىء بذلك .

وبالاضافة الى ما تقدم من معاهد العلم ، فقد كان في المدينة كتاتيب منتشرة في جميع الاحياء يتولى ادارتها انصاف المتعلمين من الرجال ، حيث يدرسون فيها اطفال الاحياء القرآن الكريم مع القراءة والكتابة ومبادىء علم الحساب ، وكان يتولى بعض هذه الكتاتيب مشايخ عميان يقتصر التعليم فيها على القرآن الكريم غيبا ، دون ان يلم التلميذ بالكتابة اي الملم ، وعندما يتم التلميذ ختم القرآن ، يحتفل اهله بذلك فرحا به وتوزع على الحاضرين الحلوى .

كما كان في احياء المدينة خوجيات من النساء ، تقوم كل خوجاية (اي معلمة) في بيتها فيما يشبه الحضانة لصغار الاولاد ذكورا واناثا ، اما التعليم فيها فكان يقتصر على تحفيظهم بعض قصار الصور من القرآن الكريم ، لتساعدهم على تلاوتها في اثناء الصلاة .

هذا ما كانت عليه الحياة العلمية في طرابلس في مطلع القرن العشرين حتى اواخر العقد الاول منه .

وكان الازهر الشريف في مطلع هذا القرن المركز الوحيد الذي كان يتخرج منه علماء طرابلس .

وكان هذا المركز الخطير يشكو من جمود علمائه الفكري في عصر بدأ فيه الانبعاث العلمي والفكري في العالم اجمع .

وكان هناك صراع طاحن بين القديم والجديد في داخل الازهر ، وقد اوضح هذا التطاحن المفكر والاديب العربي الكبير طه حسين في كتابه (الايام)

الذي وصف فيه حياته الطالبية في الازهر ، وجمود علمائه في تفكيرهم اوضح وصف .

وكان المغفور له العلامة الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في ذاك الحين وقد شغل منصب مشيخة الازهر برهة من الزمن ، من العاملين على اصلاح اوضاع الازهر .

وكان الجدل على اشده بينه وبين مشايخ الازهر المتزمتين ، حتى بلغ بهم الامر الى تكفيره ، واعتباره خارجا على الدين .

ويقول الامام عبده في رده على من كفره من هؤلاء العلماء :

ولست ابالي ان يقال محمد ابل او اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد اردت صلاحه احاذر ان تقضي عليه العمائم

وبعد جلاء الدولة العثمانية عن البلاد العربية في عام ١٩١٨ ووضع اقطار لبنان وسوريا وفلسطين والعراق بقرار من جامعة الامم تحت انتداب الدولتين انكلترا وفرنسا ، اخذت الحياة العلمية في المدينة تتسلق سلم التطور والتقدم والانفتاح سنة بعد سنة ، واخذ الشبان من الجنسين يقبلون على العلم باعداد كثيفة ، وزالت فيما بينهم الطبقية ، باقبال الفقراء ومتوسطي الحال على العلم اقبال الميسورين عليه ، حتى رأينا الكثير من ابناء الفقراء يصلون بفضل العلم الى اعلى المناصب في المؤسسات العامة والخاصة .

واستكملت الجامعتان الاجنبيتان (اليسوعية والاميركية) جميع فروع كليات العلوم ، كما فتحت الجامعة السورية بفرعيها الطب والحقوق ابوابها مشرعة للشبان الطرابلسيين الذين لا يحسنون احدى اللغات الاجنبية ، ثم تلتها الجامعة المصرية فحذت حذوها في ذلك بفتح عدة فروع لها في بيروت ، فتخرج من هذه الكليات اعداد كبيرة من المثقفين ملأوا الفراغ العلمي الذي كانت عليه البلدة ، فكثر الاطباء بعد ان لم يكن فيها الا نفر قليل منهم ، وكثر المهندسون بعد ان كانت خاوية منهم ، وارتفع مستوى رجال القانون من قضاة ومحامين .

كما ان الجمعية الخيرية الاسلامية في عهد رئيسها المغفور له الشيخ امين عز الدين قاضي طرابلس الاسبق ، كانت شعرت بالفراغ الذي احدثه خلو اروقة المساجد من طلاب علوم الدين بعد الحرب العمومية الاولى والغاء التجنيد الاجباري ، الذي كان الباعث الاول لانتساب الطلاب اليها ، فانشأت

مدرسة شرعية لذلك ، واضافت الى مناهجها تدريس العلوم العصرية واللغة الافرنسية ، متمشية في ذلك على غرار الخطة التي انتهجها المرحوم الامام الجسر في مدرسته الوطنية ، واولت التدريس فيها الى عدد من العلماء والمدرسين ، وجعلت على رأس ادارتها المغفور له الاستاذ سعد الله عبد اللطيف سلطان خريج الجامعة السورية واحد ادباء طرابلس المعروفين وكان من جملة اساتذتها العلامة الشيخ محي الدين الخطيب رحمه الله والعلامة الاستاذ الشيخ نديم الجسر والاستاذ انور النعنعي ، وقد تخرج من هذه المدرسة عدد كبير من الطلاب شكل البعض منهم نواة الطبقة الثانية من علماء الدين في النصف الاول من القرن ، وما تعيه الذاكرة من خريجي الرعيل الاول من هذه المدرسة العلماء الافاضل مصطفى الرافعي وصبحي الصالح واخوه ناصر ورامز الملك ونور الدين بكري وعبد اللطيف زيادة وطه الصابونجي ، وهم جميعهم ولله الحمد على قيد الحياة وفي اوج انتاجهم العلمي والفكري ، ومن الملاحظ ان عددا منهم قد اعتمد في طلب العلم على هبات الموسرين وفي مقدمتهم المحسن الكبير المغفور له الحاج عبد الله الغندور ، والعالم المفضال الشيخ عبد الكريم عويضة رحمهما الله .

وكان تأسس في طرابلس عقب الحرب العمومية الاولى مباشرة جمعية باسم (جمعية اسعاف المحتاجين وملجأ الايتام الاسلامي) اخذت على عاتقها جمع ايتام المدينة من ذكور واناث ، بعد ان ذهبت الحرب العمومية الاولى بآبائهم ، وعملت على ايوائهم واطعامهم ، وانشأت لهم مدرسة ابتدائية ، كما اوجدت مصنعا ملحقا بالمدرسة لتعليم من يرغب منهم شتى الصناعات اليدوية الخفيفة ، كي يتمكنوا بعد بلوغهم سن الرشد وتركهم الميتم من تأمين معيشتهم بانفسهم ، وكان من جملة انجازاتها احداث مطبعة لتغطي من ريعها قسما من نفقات مشروعها .

وقد لاقى هذا المشروع تأييدا اجماعيا من الطرابلسيين لشعورهم بالحاجة الماسة اليه ، وقد بقيت هذه الجمعية تلاقي التأييد الجماعي من الجمهور الطرابلسي حتى الانتخابات النيابية التي جرت في عام ١٩٢٥ وكان يتم الانتخاب على درجتين ، اذ اقدم المندوبين الثانويون من اعضاء الجمعية على انتخاب مرشح الحكومة المرحوم خير الدين بك عدره دون اي من المرشحين الوطنيين على كثرة عددهم ، فكان لعملهم هذا ردة فعل في الاوساط الطرابلسية ، فانصرف الكثير من الناس عن تأييد الجمعية .

وبحلول عام ١٩٢٤ حصلت الجمعية على رخصة من الحكومة بتحويل

المدرسة الى كلية تحت اسم (دار التربية والتعليم الاسلامية) وتضمنت الرخصة الاجازة لها بتدريس العلوم الابتدائية والتكميلية والثانوية والشرعية والمهنية ، كما اصبح لها فرع للاناث يهيء للشهادتين الابتدائية والتكميلية ، فاقبل الطلاب عليها من سائر انحاء البلاد العربية ، وقبلت شهادتها في الجامعتين المصرية والسورية ، وجامعة الازهر الشريف ، وفي الكثير من الجامعات الاجنبية الاخرى .

وفي عام ١٩٣٢ اضرب الطلاب المسلمون في معهد الفرير لخلاف وقع بينهم وبين الادارة فعقد اولياؤهم مع بعض وجوه المدينة اجتماعا في قصر المرحوم الزعيم عبد الحميد كرامي اتفقوا في نهايته على ضم الجمعية الخيرية الاسلامية مع مدرستها الشرعية وما تملكه من عقارات الى كلية التربية والتعليم حيث افردوا لطلابها جناحا خاصا بهم ، واتخذت الترتيبات المقتضية المتعلقة بتأمين الاساتذة القديرين ، وقد اختاروا على ما اذكر الاستاذ ممدوح النملي لاداب اللغة الافرنسية والاستاذ المرحوم محي الدين مكوك للطبيعيات والاستاذ نور النعنعي للرياضيات والاستاذ درويش التدمري لآداب اللغة العربية ، وكان الاختيار هذا موفقا كل التوفيق ، فقام هؤلاء الاساتذة بالمهام الموكولة اليهم احسن قيام وتخرج على يدهم مشاهير الرجال الطرابلسيين اليوم امثال الاساتذة الدكتور مصطفى وامين الرافعي واحمد ونزار وعبد الكريم الفتال ، ودولة الرئيس رشيد كرامي ، وحقق هؤلاء الاساتذة بجهودهم المشكورة ما كانت تصبو اليه طرابلس من ان يكون فيها معهد علمي وطني تباهي به باقي المدن العربية ، وطرابلس كما تشهد به بطون التاريخ في غابر الازمان من عهد حكامها (بني عمار) اشتهرت بمكتبتها العظيمة وهم الذين مدحهم المتنبي منذ الف عام وقال في قصيدته مادحا طرابلس :

اكارم حسد الارض السماء بهم   وقصرت كل مصر عن طرابلس

ولكن ويا للاسف الشديد ان هذا الصرح الذي بني عليه الطرابلسيون اطيب الآمال واحلاها لم يلبث في ازدهاره اكثر من عقدين من الزمن فاخذ يتراجع في مستواه العلمي شيئا فشيئا حتى اودى به الامر في نهاية الستينات الى النتائج المؤلمة التالية :

١ ـ الغاء وزارة التعليم العالي في مصر التصريح الذي كانت اصدرته باعفاء حاملي شهادة الكلية في معاهد مصر العالية ، من الامتحان عند دخولهم هذه المعاهد .

٢ ـ ارتفاع معدل الراسبين من طلابها في امتحانات البكالوريا اللبنانية ، على

الرغم من اعتناء الادارة بعدم تقديمها للامتحانات الا من كانت تتوسم فيهم القدرة على اجتيازها بنجاح .

٣ ـ استغناؤها مع الايام وبصورة تدريجية عن خدمات الاساتذة المقتدرين امثال الاستاذين ممدوح النملي والمرحوم محي الدين مكوك لاسباب واهية وابدالهم باساتذة ضعاف في مستواهم العلمي متذرعة في عملها هذا بالتوفير في النفقات .

ومن المؤلم وقوع هذا التدهور في وقت كانت فيه باقي المدارس الثانوية الخاصة تتسلق سلم التقدم والنجاح ، على الرغم من انها لم يكن لها اي مورد خلاف الرسوم التي كانت تتقاضاها عن الطلاب على عكس كلية التربية والتعليم التي كان تحت تصرفها موارد عقارات الجمعية الخيرية الاسلامية .

انا لا اريد تعداد اسباب هذا التقهقر لانها كثيرة ولاني اربأ بنفسي ان اتعرض لبعض من كان قائما على ادارتها بسوء ، انما لا يسعني الا ان اذكر احد هذه الاسباب ، وهو ان مجلس ادارة الجمعية وكان يضم في عضويته رجالا على كثير من التدين والتقوى ، والقليل القليل من الاطلاع على اصول التربية والتعليم الحديثة التي كانت تفتقر اليها الكلية في مسيرتها .

وهكذا فاننا نلاحظ انه لم ينته النصف الاول من القرن العشرين حتى كانت النهضة العلمية في طرابلس قد سارت مسافة بعيدة في طريق التقدم ، وذلك بالمدارس الابتدائية العديدة والمدارس الثانوية الرسمية والخاصة ، وداري المعلمين والمعلمات ، والمدرسة المهنية ، وما رافق ذلك من اقبال الطلاب من الجنسين على طلب العلم والتحاق الكثيرون منهم بجامعات اوروبا والولايات المتحدة الاميركية حتى اصبح فيها عدد كبير من الاساتذة والدكاترة في شتى فروع العلوم والفنون .

وهكذا انخفض عدد الاميين انخفاضا ملموسا ، آملين ان يأتي قريبا اليوم الذي تزول فيه الامية من البلد الى الابد .

وقبل من اختم بحثي في الحياة العلمية ، يجدر بي ان اعرف شبابنا الطالع باخوانهم شباب الرعيل الاول من القرن الذين ذللوا الصعاب ، وركبوا البحار في طلب العلم في استانبول ، يوم كانت الغربة شاقة ، والسفر مخاطرة ، وكان مجرد الانتقال من البلدة الى الميناء مثلا يعتبر سفرا تتهيأ له الاسر الراغبة بزيارة الاقارب والاصدقاء فيها قبل موعده المقرر بيوم او يومين .

فمما تعيه الذاكرة ممن اكمل دراسته العالية في العاصمة استانبول في اواخر العقد الاول من القرن المغفور لهم :

ا ــ خريجو الكلية الملكية : سعد الله المنلا ــ عبد الله غريب ــ حسين المعصراني ــ مصطفى عادل الهندي ــ توفيق البيسار .

ب ــ خريجو كلية الحقوق : بهجت الميقاتي ــ عثمان سلطان ــ سعدي المنلا ــ عبد الستار السندروسي ــ حسن زكي مولوي ــ عمر زكي الافيوني ــ عبد الوهاب نشابه .

ج ــ خريجو كلية الهندسة : رشدي سلهب ــ مصباح حولا .

د ــ خريج كلية الهندسة الزراعية العالية : عزت المقدم .

هـ ــ خريج الكلية الحربية : القائد العربي البطل فوزي القاوقجي .

و ــ خريجو الكلية الطبية : عبد اللطيف البيسار ــ حسن رعد ــ رمزي زيني ــ عادل الشيخ ــ محمد فريد البابا ــ عبد اللطيف الزاهد ــ الدكتور

رشاد الحجة ، الذي ما زال ناشطا في مزاولة المهنة امد الله بحياته .

ز ــ خريجو كلية الصيدلة : نوري عويضة ــ بيوس دوبا .

وممن اعرف من الشباب الطرابلسي المسيحي الذين اتموا دراساتهم العالية في معهدي اليسوعية والاميركان المغفور لهم الاطباء : ابراهيم الخولي مخائيل ماريا ــ ديمتري السيوفي ــ اسكندر غريب ــ ميشال الخولي ــ عفيف عفيف ــ يعقوب لبان ، حيث لم يكن في طرابلس خلال العقد الاول من القرن سواهم مما كانوا يعنون بالصحة العامة .

الباب الثاني ــ الحياة العلمية

الفصل الثاني ــ العلماء والشعراء والادباء

١ ـ العلماء :

كانت طرابلس تزخر في مطلع القرن العشرين بجمهرة من علماء الدين واللغة العربية ، وكان اكثرهم يتعاطى شدريس هذه العلوم في اروقة المسجد المنصوري وغيره من المساجد والمدارس .

واني مورد فيما يلي نبذة مختصرة عن حياة كل من عرفت من هؤلاء العلماء الاجلاء مرتبة اسماؤهم حسب حروف الهجاء :

الشيخ وهيب البارودي :

تلقى شيخنا رحمه الله علومه في اروقة المسجد المنصوري الكبير ولازم بصورة خاصة دروس الامام الشيخ حسين الجسر ، واتقن علوم الفقه والحديث ، ومارس التعليم في المدارس الحكومية كما تولى وظائف الامامة والخطابة في مساجد المدينة ، ووضع مؤلفا في الحديث الشريف اسماه (الفوز الادبي في الحديث المحمدي) وكان على جانب كبير من التقى والورع .

الشيخ درويش التدمري :

تلقى شيخنا العلم رحمه الله على العالم الكبير الشيخ عبد الغني الرافعي ، وقد جاور الازهر مدة طويلة ، عاد بعدها الى طرابلس ضليعا في العربية والفقه الشافعي ، اتخذ من مسجدي الدبة والاويسية مركزا لتدريس الدين واللغة العربية ، وكان الى جانب علمه وادبه وتقواه ، ذا ثروة كبيرة انفق معظمها على اهل بيته وقاصديه من ذوي الحاجات .

الشيخ حسين الجسر :

كان العلامة الامام الشيخ حسين الجسر ، بعد عودته من الازهر بدأ التدريس في اروقة المسجد المنصوري ، كما انشأ المدرسة الوطنية بمساهمة مالية كبيرة من المغفور له الحاج غنوم الضناوي جد الصديق عبد السلام حفظه الله ، ادخل على منهاج التدريس فيها العلوم العصرية واللغة الافرنسية ، وقد انكر عليه الكثير من العلماء خطوته العظيمة هذه ، فحاربوها بشدة ، وعملوا شتى الطرق لمنعه من الاستمرار في مشروعه حتى وفقوا الى ذلك عن طريق عدم قبول تلاميذ المدرسة من دخول امتحان الاستثناء من الخدمة العسكرية ، التي كان لها اهمية خاصة عند الطلاب .

وكان من الموالين له الذين ينصاعون لتوجيهاته المرحوم محمد بك البحيري

احد اثرياء المدينة فاقتنعه باصدار جريدة اسبوعية باسم طرابلس وقد تولى رياسة تحريرها ، وكان يدرج فيها المقالات العلمية والاجتماعية والفلسفية .

فذاع صيتها في جميع الاقطار الاسلامية ، فاخذت بذور افكاره تنمو وتينع ثمارها بين طلابه ومريديه والكثير من الناس .

ومما يلفت النظر انه كان بين من اكتفى بالدرس على الامام الجسر عالمان طرابلسيان هما الشيخ رشيد رضا والشيخ عبد القادر المغربي ، وقد بقيت افكارهما صافية لم يخالطها شيء من افكار مشايخ الازهر ، فطلعا على العالم العربي والاسلامي بابحاث وافكار جريئة لفتت اليهما الانظار .

وقد رافق الشيخ الجسر عصر الانبعاث والنهضة ، وجاهد في سبيل بث افكاره التقدمية المتفتحة بشتى الطرق ولاقى في جهاده هذا الكثير من المتاعب ، وتعرض لكثير من الاخطار ، وكان اوج نشاطه في عهد السلطان عبد الحميد ، ومن اهم مؤلفاته الرسالة الحميدية وقد بث فيها افكاره الدينية والفلسفية بأسلوب شيق ، وهي ما زالت حتى يومنا هذا تحتويها اكبر مكتبات العالم .

هذا وقد اتفق الشيخ الجسر مع معاصريه من العلماء المتحررين على ضرورة اصلاح المجتمع ، الا انه لم يجارهم في الطريقة التي اتبعوها في ذلك ، اذ اكتفى ببث افكاره في محيطه الطرابلسي حيث كانت تنطلق شرارتها بمقالاته ومؤلفاته المتعددة الى جميع الاقطار الاسلامية .

الشيخ نديم الجسر :

شغل علامتنا عدة مناصب قضائية وادارية وسياسية منها مستشار في محكمة الاستئناف في بيروت ، وعضو المجلس العدلي وقائمقام عكار وقاضي الشرع الشريف في طرابلس ونائب عن طرابلس في مجلس النواب ، ومن النيابة انتخب مفتيا لطرابلس وهو ما زال يشغل هذا المنصب حتى يومنا هذا امد الله بحياته ، وله عدة مؤلفات اهمها (شرح قانون الجزاء العثماني) و (قصة الايمان بين العلم والفلسفة والقرآن) .

الشيخ اسماعيل الحافظ :

كان شيخنا الحافظ رحمه الله على جانب كبير من العلم والفضل ، وقد انقضت حياته في الوظائف الدينية العالمية خارج طرابلس ، حيث كان يشغل حتى تاريخ انسلاخ البلاد العربية عن السلطنة العثمانية عضوية المجلس

الاسلامي الاعلى في العاصمة استانبول ، وبعد الحرب العمومية الاولى انتقل الى طرابلس وتعاطى المحاماة ، ثم انتقل الى القدس وتولى رياسة محكمة الاستئناف الشرعية العليا ، وبقي فيها الى قبيل ولادة دولة اسرائيل ، ثم عاد الى طرابلس وتقاعد عن العمل حتى لقي وجه ربه رحمه الله ، هذا وكان الشيخ الى جانب علمه وطنيا صلب العقيدة في عروبته ، ساهم برزانة مع رجالات العرب في خدمة القضية العربية ايام المنتدى الادبي في استانبول ، وكانت روحه الصافية لا تميل الى الجهر بآرائه الوطنية ، وهذا ما انجاه من نقمة الاتراك يوم اعدموا رفاقه امثال المغفور لهم عبد الوهاب الانكليزي ، وعبد الحميد الزهراوي وغيرهما من احرار العرب .

الشيخ محمد الحسيني :

تخرج شيخنا رحمه الله من الازهر الشريف ، واشتهر بتضلعه باللغة العربية وتبحره بالفلسفة ، صرف معظم حياته في تدريس اللغة العربية في اروقة المسجد المنصوري اولا وبالمدارس الرسمية ثانيا ، وقد تخرج على يده في اللغة العربية الكثير من شبان طرابلس ، وقد حاول كتابة تفسير حديث للقرآن الكريم ، بقالب عصري يختلف عن بقية التفاسير فكتب ثلاثة اجزاء ، ثم داهمه المرض والشيخوخة ، ولم يمد الله في اجله لاستكمال ما بدأ به ، والواقع ان مؤلفات الشيخ لم يترك منها على ما اعرف سوى التفسير الآنف الذكر وبعض الردود على المستشرقين من الفلاسفة الذين يروجون للالحاد .

الشيخ رشيد رضا :

ان شيخنا رحمه الله من مواليد قرية القلمون الواقعة غربي جنوبي طرابلس ، وهذه القرية تعتبر حيا من احياء طرابلس ، درس العلم على استاذه حسين الجسر ثم سافر الى مصر واستوطن القاهرة ، واصدر فيها مجلة (المنار) فطار صيتها وانتشرت في جميع البلاد الاسلامية ، وقد صاحب الشيخ محمد عبده والشيخ جمال الدين الافغاني وساهم مساهمة فعالة في حركة النهضة العربية .

الشيخ امين عز الدين :

تلقى شيخنا علوم الدين واللغة على المرحوم الشيخ محي الدين الخطيب ، ثم زاول التدريس مدة قصيرة في المدرسة الرسمية ، وبعد ذلك امتحن المحاماة ، ثم تولى القضاء الشرعي وبصفته هذه تولى في الوقت نفسه رياسة الجمعية

الخيرية الاسلامية حوالي العشرين سنة ، من ابرز منجزاتــه انشاء القسم الشرعي التابع للجمعية ، وكان تقدمي التفكير متمشيا في ذلك على هدى استاذه الجسر ، ولكنه سلك طريق المهادنة مع المنتدبين الافرنسيين مما سبب له الكثير من المتاعب .

الشيخ عبد الكريم عويضة :

تلقى شيخنا المفضال العلم في مدرسة المرحوم الشيخ حسين الجسر ، ثم التحق بالازهر ونال منه اعلى الشهادات ، وكان على ثرائه المادي شغوفا بتدريس علوم الدين واللغة في اروقة المسجد المنصوري ، فكانت حلقات درسه تغص بالمستمعين من الجنسين ، لسهولة دروسه ووضوحها .

ومما يروى عنه بكل تقدير واعجاب انه بعد ان شعر بالنجابة في احد تلاميذه علامتنا الكبير الدكتور الشيخ صبحي الصالح ، وكان يشكو من ضيق ذات اليد ، ارسله على نفقته الخاصة الى الازهر الشريف ، ومن ثم الــى جامعة السربون في فرنسا ، تغمده الله برحمته على قدر احسانه .

الشيخ منير الملك :

تلقى شيخنا علومه على علماء طرابلس في اروقة المسجد المنصوري الكبير واصدر في مطلع شبابه جريدة هزلية اسماها (المدلل) اخذ ينتقد فيها الداعين الى كشف حجاب المرأة ، وكان بينه وبين الشيخ عبد القادر المغربي صاحب جريدة البرهان واحد المتجددين بارائهم التقدمية مساجلات كان لها اثرها في المحيط الطرابلسي ، عمل في الوظائف الحكومية مدة قصيرة من الزمن ، ثم انصرف الى الخدمات الدينية في مساجد الميناء كأمام وخطيب ومدرس ، وله مواقف طيبة في خدمة المظلومين والمقهورين ، وقد ساعده على ذلك صلته الوثيقة بالشيخ محمد الجسر ، وكان يذهب اسبوعيا مرة او مرتين الى بيروت لملاحقة قضايا هؤلاء الناس ، فكانت تفتح له ابواب دوائر الحكومة مشرعة ، ويهتم الموظفون بمطاليبه كل الاهتمام مراعاة للشيخ الجسر ، ولم يكن يتقاضى على خدماته اجرا ، بل على العكس فانه كثيرا ما كان ينفق من جيبه في سبيل ذلك ، وكان يوم وفاته في عام ١٩٤٧ يوما مشهودا في طرابلس بكى الناس فيه رجل الشهامة والنجدة والاخلاق رحمه الله .

الشيخ عبد القادر المغربي :

تلقى شيخنا العلم رحمه الله في مدرسة الشيخ حسين الجسر ، ولم

يعرف عنه انه التحق للعلم بسواها ، وكان عالما عاملا اشتهر بالعمل على تحرير المرأة المسلمة من قيود الجهــل التي كانت ترسف فيها ، واصدر في طرابلس بعد الدستور جريدة (البرهان) الاسبوعية ثم لما اشتدت عليه الحملة بسبب آرائه الحرة التي كان ينتحلها ويجاهر بها ، رحل عن طرابلس واستوطن دمشق ، ورأس في ايام الحرب العمومية الاولى بامر من جمال باشا تحرير جريدة (الشرق) ، وبعد جلاء الاتراك عن البلاد ودخول المغفور له الملك فيصل الشام قدر الملك للشيخ الظروف التي اضطرته للمواقف التي وقفها في زمن الحرب ، فاطلق له الحرية احتراما لعلمه ، واعترافا بفضله ، فانصرف للتدريس في الجامعة السورية ، وشغل عضوية المجمعين العلميين في مصر ودمشق ، وله عدة مؤلفات في اللغة والاجتماع .

الشيخ عبد المجيد المغربي :

تلقى شيخنا العلم في مدرسة الشيخ حسين الجسر ، وتولى زمنا طويلا امانة الفتوى ثم نحاه الافرنسيون عنها ، لمعارضته لهم ، وقد اشتهر باطلاعه الواسع في علم الفرائض وله عدة ابحاث مطبوعة بهذا العلم ، وكان خطيبا مفوها ، اذا تكلم بموضوع يتمنى السامع ان لا يسكت .

الشيخ محمود منقاره :

تلقى شيخنا العلم رحمه الله على العالم الكبير الشيخ محمود نشابه ، ثم التحق بالازهر وقد برع بعلم الفقه الاسلامي .

الشيخ كامل الميقاتي :

تلقى شيخنا العلم رحمه الله في مدرسة الشيخ الجسر وكان رضي النفس لين العريكة كامل التهذيب ، وقد شغل بعد الشيخ المغربي امانة الافتاء وبقي يشغلها حتى وفاته ، كما كان يدرس علوم الدين في المدارس الرسمية .

الشيخ كاظم خير الدين الميقاتي :

اكمل شيخنا رحمه الله الدراسة في المدرسة الرسمية وانتسب بعدها الى معهد الطب في دمشق لسنة واحدة ثم رجع الى طرابلس والتحق باروقة المسجد المنصوري ، ثم تولى التدريس في المدارس الرسمية وشغل وظيفة مديرية المدرسة السلطانية ، واستقال بعدها منصرفا الى شتى الخدمات الدينية والاجتماعية وفي عام ١٩٥٥ انتخب بما يشبه الاجماع مفتيا لطرابلس ،

فانصرف في اثناء ذلك للاهتمام بشؤون الاوقاف الاسلامية فحالفه في ذلك الكثير من التوفيق ، وكان يسلك طريق الاعتدال مع الافرنسيين ، وكان جسورا ومقداما حافظ على كرامة الطائفة في كثير من المواقف فاحبه الناس وبكوا حزنا يوم وفاته بعد ان جابهوه وجابههم بشدة بسبب سياسته المعتدلة مع الافرنسيين .

الشيخ عبد اللطيف نشابه :

تلقى شيخنا رحمه اللهعلوم الدين واللغة على والده العلامة الشيخ محمود ، ثم التحق بالازهر حيث اتم علومه ، وبعد ذلك رجع الى طرابلس وانقطع للتدريس والوعظ والارشاد .

هؤلاء هم من اعرف من علماء طرابلس في مطلع القرن العشرين ، وقد تكونت فيما بعد في طرابلس مجموعة من العلماء الاعلام الشباب ، الذين نهلوا من علوم الدين والدنيا الشيء الكثير ، واصبحوا مفخرة هذا البلد ومحط آماله ، اذكر منهم الدكتور الشيخ صبحي الصالح والدكتور عبد الحميد مرحبا والشيخ عبد اللطيف زياده والشيخ طه الصابونجي والشيخ ناصر الصالح والشيخ رشيد الميقاتي ، وما زال اكثرهم في مقتبل العمر امد الله بحياتهم ونفع بهم المحيط الاسلامي في مشارق الارض ومغاربها .

٢ ــ الشعراء :

كانت طرابلس عبر تاريخها القديم ، تضاهي اكبر المدن العربية بحلقات الدروس التي تلقى فيها علوم الدين والادب العربي .

وكان اكثر الطلاب في اروقة المساجد على الم بقرض الشعر بمراتب متفاوتة من حيث المتانة والاتقان .

ومن يطلع على ما انتجته قرائح شعراء طرابلس في مطلع القرن يرى ان شعرهم على جودة بعضه حسب طرائق البديع ، كان يقتصر على الغزل بشتى اشكاله ، وعلى المديح او الرثاء .

اما في الثلث الاول من القرن وما بعده ، فقد اخذ الشعراء يتطرقون في اشعارهم الى النواحي الاجتماعية والسياسية ، يصورون فيها الحياة العامة التي تعيشها البلاد العربية تحت كابوس الحكم التركي ثم الانتداب الاجنبي اروع واصدق تصوير .

وكان اول من ولج باب النصح والنقد والتحليل في شعره المرحومان بلبل سوريا عبد الحميد الرافعي وشاعر الفيحاء سابا زريق رحمهما الله ، ثم تلاهما شاعر الشباب وقتذاك الشاعر الاستاذ درويش التدمري امد الله بحياته ، وبعدهم فريق من الشباب الذين اطلعوا على الادب الغربي ، فساعدهم ذلك على النهوض بالادب العربي نهضة طيبة مباركة ، اخذنا نقتطف ثمارها بما ادخلوا عليه من الوان جديدة في الوصف والابداع .

اما الادباء الذين عالجوا مباحث الاجتماع والفلسفة والتاريخ في مطلع القرن فاقول بكل اسف انه لا يحضرني من عالج من ابناء طرابلس هذه النواحي بشكل واف سوى العلامة الشيخ حسين الجسر وتلميذاه السيد رشيد رضا ، وعبد القادر المغربي المار ذكرهما في بحث علماء طرابلس والمرحوم المؤرخ جرجي يني .

وقد صح عزمي على تعريف القراء الكرام بمن احتلوا مركز الصدارة من شعراء مطلع النصف الاول من القرن ، اما من جاء بعدهم منهم فقد اكتفيت بتدوين اسمائهم تاركا للمستقبل التعريف عنهم بعد ان يكونوا قد استكملوا مقومات نشاطهم الادبي .

بلبل سوريا عبد الحميد الرافعي :

نشأ رحمه الله في حجر والده العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي ، وبعد ان حصل على شهادة المدرسة الرسمية ، لازم درس علوم الدين على المرحوم الشيخ حسين الجسر لمدة اربع سنوات ، وحضر في احدى السنين درس العلامة الشهير الشيخ محمود نشابه ، ثم سافر الى مصر وانتسب الى الازهر مدة خمس سنوات ، ورحل بعدها الى الاستانة ولازم معهد الحقوق ، وبعدها دخل امتحان الكلية الملكية ونجح فيه ، وشغل في حياته وظيفة قاضي تحقيق طرابلس ، ثم انتقل الى السلك الاداري ، وبقي يتنقل فيه الى ان احيل الى التقاعد في اثناء الحرب العمومية الاولى ، وبعد الحرب شغل وظيفة كتابة عدل طرابلس الى ان وفاه الاجل رحمه الله .

وكان نفي الى المدينة المنورة ، ثم الى قرق كليسه في زمن الحرب العمومية الاولى بسبب التحاق ولده الاديب الكبير سمير رحمه الله بثورة الملك حسين ، وبقي منفيا مدة سنة وثلاثة اشهر ، وقد اشتهر رحمه الله بشاعريته الرائعة ، وحسن اسلوبه ورقة غزله الذي يتغنى به المنشدون حتى يومنا هذا ، وعرف في البلاد العربية بلقب (بلبل سوريا) .

وهو اول من اعرف من شعراء طرابلس الذين تطرقوا في اشعارهم لنقد الحكم التركي للبلاد العربية ، وللحياة الاجتماعية التي كانت تعيشها البلد .

وكان قد نظم في مستهل حياته الشعرية قصيدة انتقد فيها بعض الاوضاع الاجتماعية السائدة في طرابلس آنذاك ، فاحدثت دويا في المجتمع الطرابلسي لما احتوت من نقد لاذع ، لا سيما للقاضي الذي عرف عنه الرشوة والنفاق ، وبقي ناظمها مجهولا ، فاراد المتصرف ان يعم انتشار القصيدة في الاوساط الطرابلسية انتقاما من احد من جاء ذكره في القصيدة ، فأمر بدعوة جميع شعراء المدينة المعروفين الى اجتماع عقده ، حيث كان يكلف كل شاعر منهم ان يقسم بالله العظيم انه ليس هو ناظم القصيدة ، وانه لا يعرف من نظمها ، وكان بين المدعوين من الشعراء ، شويعر يستبعد ان يكون هو الناظم ، وعندما هم بالقسم فاجأه احد الشعراء الظرفاء الحاضرين بان اقسم نيابة عنه انه ليس بالناظم ، فضج الحضور بالضحك لهذه النكتة ، ولم يكن شاعرنا الكبير قد عرف وقتئذ بشاعريته ، فلم يدع الى حفلة القسم ، وهكذا فقد انجاه الله من هذا الموقف الحرج .

وتقديرا لشاعريته الفذة ، احتفل في عام ١٩٢٧ بيوبيله الذهبي من قبل لجنة ضمت ادباء طرابلس برياسة سماحة الشيخ محمد الجسر رئيس مجلس النواب اللبناني وقتذاك ، قلده خلالها وزير التربية الوطنية الدكتور ابو الروس بأسم رئيس الجمهورية وسام الاستحقاق اللبناني .

وقد دعي الى هذا المهرجان جميع ادباء البلاد العربية ، وتغنى فيه الشعراء بمزايا المحتفى به ، ومكانة بيته في العالم العربي والاسلامي .

وكان من بين القصائد التي القيت ، قصيدة امير الشعراء المرحوم احمد شوقي وقد جاء في مطلعها :

اعرني النجم او هب لي يراعا … يزيد الرافعيين ارتفاعا

ومنها :

امير المهرجان وددت اني … ارى في مهرجانك او اراعى
عدت دون الخفوف له عواد … تحدين المشيئة والزماعا
وما انا حين سار الركب الا … كباغي الحج هم فما استطاعا

واختتم تعريفي بشاعرنا الكبير بذكر مقاطع من اشعاره في شتى المواضيع التي تعرض لها ومنها قوله :

في الغزل الصوفي الوجداني :

سلوا الساقي واحداق الندامى … ايصحو هائم القلب الكليم
شربناها ولا حرج علينا … فيا سكري وما انا بالأثيم
اذا الراووق نادانا سحيرا … تفتح في الحشا سمع الكلوم
ولبته نفوس في قلوب … تحن لنفحة الصوت الرخيم
وكم ناديت والأكوان صرعى … نديمي يا نديمي يا نديمي
تنبه للغبوق فدتك روحي … فقد قرب الصباح من الهجوم
فقام يهز قدا في هواه … مشيت على الصراط المستقيم

ومما قاله في استنهاص همة قومه ، للثورة على حكم الغريب ، هذا النداء في مطلع قصيدة من قصائده :

هبوا بني العرب الى م الكرى … وقد دها الآمال دهاسها
طلبتم الاصلاح من عصبة … توتر بالأفساد اقواسها
هيهات منها مبتغاكم ولو … شدت على الاعناق امراسها
فكم تقيمون على ذلة … وروضة الصبر ذوى آسها
الستم نسل القروم الألى … تنقل الهامات افراسها
فجردوا العزم الذي طالما … شق صدورا طال وسواسها
وجددوا مجد بنى يعرب … فالعار ان يطفأ مقباسها

وكان شاعرنا قد وضع قصيدته الفريدة (عبرة الحب) التي ما زال يتغنى بها المغنون حتى يومنا هذا ، واراني مضطرا لنقل اكثرها حتى لا اخل بوحدة العاطفة ، او انثر اوراق هذه الزهرة الطريفة قال :

سلوها لماذا غير السقم حالها … ترى شففت حباً والافمالها
تبدل ذاك الورد بالورس وانطفى … سناها ورقت فهي تحكى خيالها
اظن هوى الغزلان قد هد حيلها … فأني رأيت الريم يوما حيالها
تناجيه سرا وهي في زي واله … فخلت اخاها كان او كان خالها
فيا حب غلغل في صميم فؤادها … ويا رب لا تعطف عليها غزالها
ويا حبها بالله كن متدللا … وزدها كما كانت تزيد دلالها
وبالغ رعاك الله في طول هجرها … فكم هجرت حبا يروم وصالها
وكم من عليل في هواها لقد قضى … غراما وما القت لبلواه بالها
ولكن ارحها بعد حين فأنني … شمت بها والقلب يأبى زوالها
ومن حب لم يبغض ولو حب هاجرا … فقد رق قلبي مذ رأيت هزالها
عسى انها من بعد ان ذاقت الهوى … تنوح على من كان يهوى جمالها
وتذكر اذ كانت وللحسن عزة … ترى مهج العشاق صرعى قبالها
فتبكي زمانا فيه ابكت ببعدها … عيونا تولاها الاسى فأسالها
ولعت بها حينا من الدهر لم افز … بساعة لطف كنت ارجو نوالها
ولو عطفت يوما علي بزورة … لقبلت حتى بالعيون تعالها

ولكنها جارت وللجور عودة ... على اهله لن يستطيعوا نزالها
صبرت عليها صبر حر فلم يفد ... ولو رامها ذو خدعة لاستمالها
ولما بلغت اليأس من ليل وصلها ... فررت بنفسي لا عليها ولا لها
وقلت لقلبي وهو يذكر عهدها ... رويدك هذي بغية لن تنالها
تركت هواها واشغلت بغيرها ... ومن قطعت حبلي قطعت حبالها

شاعر الفيحاء سابا زريق :

ولد شاعرنا في طرابلس ، وتلقى علومه فيها ، فملك ناصية الادب العربي منذ نعومة اظفاره ، ويعتبر بحق في مقدمة ادباء المدينة بعد بلبل سوريا عبد الحميد الرافعي ، في مطلع القرن العشرين ، وحسبي تعريفا له ، ما قاله عنه علامتنا الشيخ نديم الجسر في المحاضرة التي القاها عن ديوان الشاعر في نادي المدرسة الارثوذكسية للبنات في مساء الحادي عشر من نيسان سنة ١٩٥٦ اذ يقول (وما انا حين اسميه شاعر الوفاء بمقتبس هذه التسمية من شعره ، كما يقع لنا في الكلام عن شاعر بعدت به العصور ، ولا بمأخوذ بقوله (رجال الوفاء رؤوس الرجال وغيرهم في الانام الزنابي) ولا بمخدوع بقوله في الوفاء (ان دجا الكون عاطلا عن سناه : اعد هذا الانسان من حيوانه) ولكن اسميه عن خبرة نضجت في مدى ثلاثين عاما ، عرفت خلالها ان هذا الاسمر المعروق ، الذي انحلت الطبيعة جسده لتجعل له دماغ العباقرة ونفس الجبابرة ، قد خلق مرهف الحس ، رقيق الشعور الى حد يكاد يكون فيه عبدا لعاطفته بل اوهامه ... ومن هنا جاء سرف الوفاء الذي جره الى شعر (المناسبات) في كثير من المراثي وقليل من المدائح ... اما ما وراء ذلك من نوازع الكسب ، او دواعي التزلف والتقرب ، فأني لاشهد صادقا اني ما عرفت بين الشعراء من هو آنف من هذا الزريقي الفقير المتكبر المتمرد ... ولكنها ذكريات لود صحيح قديم ، او تودد لا يعدو حد الايناس والتكريم ، كان ابو قيصر يعدها ديونا وذمما في عنقه ينهض بوفائها اذا دقت ساعة الوفاء .

ولمح المحاضر الكريم الى ما يؤخذ على شاعرنا (من سخاء في شعر المناسبات ، ومن تكرار القول في اصلاح المجتمع) فيقول (ان ديوانا ضخما كديوان ابن زريق من المفروض ان لا يخلو من الهشيم بين الزهور ، وان هذا الهشيم لا يخلو منه ديوان شاعر من شعراء الدنيا اذا طال كلامه عن البيتين او الثلاثة ، وليس هذا بضاره ابدا ، بل هو ضرورة لا بد منها ، لان القصيدة قصر شامخ الذرى تقع منه اذا جئته جدران من حجر وطين ، وابواب من خشب وحديد ، فاذا نفذت الى القلب بهرك ما فيه من روض نضير وماء نمير

وجنة وحرير ... وان رجوت ان تكون كل الجدران من ذهب والابواب من حرير وقصب ، فقد رجوت مستحيلا ، وعدت على صورة القصر ممسخ يقصيها عن واقع الحياة الدنيا ، ويردها الى لون من قصور الالهة عند الاغريق ، او قصور الجن في ليالي شهرزاد .

هذا قليل من كثير مما اشار اليه علامتنا الجسر في محاضرته عن شاعرنا الزريقي ، اكتفي به خشية التطويل .

وقد صرف اديبنا الكبير معظم حياته في تدريس اللغة العربية في المدارس الرسمية وتخرج على يديه جمهرة من الشباب الطرابلسي ، وفي عام ١٩٣٣ شغل مديرية المدرسة الثانوية الرسمية ، وبقي فيها حتى تاريخ احالته للتقاعد ومنذ ذاك التاريخ انصرف للخدمات العامة باشغاله على التوالي عضوية المجلس البلدي ونيابة الرياسة فيه .

واني اثبت فيما يلي نتفا من تفتاته في محاربة الطغيان ، وانتقاد الحكام والدعوة الى اصلاح المجتمع ومحاربة الفساد .

خاطب الاتحاديين في اوج سطوتهم بالابيات الشعرية التالية :

نور على طلل الامال ام نار ... وعزة في جبين الدهر ام عار
وعلة جرها خرق ومفسدة ... في الرأي ام تلك احكام واقدار
العدل اشرف ما جاءت به رسل ... وما تحلت به كتب واشعار
هرعت اسأل عنه في مرابعكم ... فقيل لي ما له في الربع آثار

وقال في تكريم المرأة العربية ، من قصيدة في مدح جمعية خيرية نسائية :

ان التي تضرم اللوعات مقلتها ... تحوك عونا على البأساء كفاها
عزم الاسود ظبأ القاع تشحذه ... فتشرك الاسد في اسمى مزاياها
يفضي الرجال حياء كلما برزت ... في ساحة الجود تحدوها سجاياها
اما مشت مشت الدنيا مواكبه ... وان دعت عاصي الآمال لباها
اني لافزع بعد الله مبتدرا ... الى رضاها وبعد الله اخشاها

وبينما تسمعه يصف سحر المرأة وتحكمها بالرجال ، تراه حين تلدعه الغيرة التي لا يخلو منها قلب الرجل ، من تهتك بعض النساء ، وتشبههن بالرجال يقول :

لولا الدلال وما تحت الجفون وما ... في الخد والصدر من ورد ورمان
لكنت تحسب ليلي في مسارحها ... فتى الحمى جائلا ما بين فتيان
لكنت تنكر ليلا حين تبصرها ... في البحر سابحة في الصيد في الحان
الشرق غرب في لبنان انطلقت ... جرد التفرنج فيه دون ارسان

ويقسو في احدى قصائده فيخاطب احد الحكام بقوله :

ليس في لبنان الا سالب   مستبد وسليب مستلكين

ويقول في مخاطبة احد رؤساء الجمهورية :

من لي بمن يصغي لصيحة شاعر   يستلهم الاخلاص فيما ينشد

في غمرة الانشاء تختلط القوى   المصلح الباني العلى والمفسد

والمستفيض على الوفاء جرأة   والعاجز المتملق المتردد

فاستجلهم فالحادثات رواصد   وانقد على وضح فمثلك ينقد

لبنان ان لم تصف في انشائه   نيات حاكمه فليس له غد

ومن قلب شاعرنا الانساني العطوف ، البراء من التعصب جاء حبه الصادق لبعض اخوانه المسلمين الذين صادقهم وخبرهم ، فجاء يعلن ان حبه لهم يفوق حبه لاهل دينه ، ويدعو الى النظرة الانسانية السامية التي تعتبر الناس امة واحدة يجب ان يسودها الاخاء حيث قول :

والناس عائلة يؤلف بينهم   اصل نمت من طينة ذراته

كم مسلم عندي غداة وزنته   رجحت على ابن عقيدتي وزناته

الدين للديان اما في الثرى   فالدين ان تبني الاخاء بناته

شاعر الشباب درويش جميل التدمري :

حفيد العلامة الشيخ درويش التدمري ، الذي ورد ذكره في عداد علماء طرابلس ، انهى دروسه الثانوية في المدرسة السلطانية ، ثم رحل الى مصر فدرس الادب العربي في الجامعة المصرية ، وعاد بعدها الى طرابلس ، فعهدت اليه ادارة كلية التربية والتعليم بتدريس الادب العربي ، وتاريخ الفلسفة الاسلامية فيها ، فقام بهذه المهمة خير قيام ، وظل متابعا عمله مدة تقرب من خمسين سنة ، وفي عام ١٩٦٨ طلب اعفاءه من التدريس للاستراحة من عناء العمل المتواصل فأجيب الى طلبه بعد اصراره عليه ، اجل خمسون عاما قضاها في خدمة الناشئة بكل اخلاص فاحبه طلابه الكثر واحترموه ، وما برحوا يذكرون تلك الساعات التي كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر للاستماع الى شرحه المباحث الادبية باسلوبه المرح السهل الممتع ، ولا اغالي اذا قلت ان معظم رجالات هذا البلد البارزين كانوا من طلابه ، وفيهم الاطباء والمهندسون والمحامون ، ورجال الاعمال ، والوزراء والنواب ورؤساء الوزارات ، هذا فضلا عن طلابه من ابناء سوريا والعراق واليمن ، لان الكلية في عهده كانت موئلا لطلاب العرب يتوافدون اليها من سائر اقطارهم للحصول على شهادتها التي كانت مقبولة من الجامعات المصرية ، هذا ومما يؤسف له ان الاستاذ التدمري كان يؤثر الراحة

والاستجمام في احضان الطبيعة ، ومقهى التل العالي على الوضع والتأليف والجمع والنشر ، وآية ذلك ان اثاره الادبية والفلسفية التي كان يحاضر بها طلابه ، وقصائده التي كان ينظمها في المناسبات الاجتماعية والوطنية ما تزال غافية مبعثرة هنا وهناك في بطون الدفاتر لم يفكر حتى اليوم بجمعها ونشرها ، وكان طلابه وعارفو مقدرته الادبية يلومونه اشد اللوم على تقاعسه وتقصيره في هذا المجال سامحه الله وعفا عنه .

هذه مكانة الدرويش في عالم الادب والتعليم ، واما مكانته في دولة القريض فسأكتفي لاجلائها بذكر بضعة ابيات من آخر قصيدة له نظمها في رثاء زميله المغفور له الاستاذ فؤاد الولي بمناسبة مرور عام على وفاته ، وتلاها على مسرح نادي الرابطة الثقافية ، فكانت تقاطع في معظم ابياتها بالتصفيق الحاد المتواصل لتأثيرها البالغ في نفوس المستمعين اليه ومن المعلوم ان التصفيق غير مستحب في مواقف الرثاء والتأبين ، اجل انني اكتفي بهذه الابيات التالية لتتجلى للقارىء مقدرته في عالم الشعر ، فلنستمع اليه يقول :

قدر ارادك يا فؤاد معلما   فجنيت ما ادمى الفؤاد وحطّما

للواردين جعلت نفسك منهلا   أعظم به من منهل شرب الظما

كم كنت اصفي للشروح تزفها   علما وآدابا ورأيا محكما

كم كنت اعجب بالفؤاد اذ اعتلى   هام المنابر يستثير النوما

كم كنت اشفق ان أراه كشمعة   جهدت لتمحو كلَّ ما قد أظلما

فبدت امام العاصفات جليدة   خفَّاقة تذري الدموع تبسما

اشجاك ان العرب في اوطانهم   فوضى تشتت رأيهم وتقسما

جدل ، واحزاب ، وفيض مذاهب   والعار ران على النفوس وخيما

وسياسة لو عريت اهدافها   ابصرت كرسيا ينازل درهما

وهناك في اقصى الجنوب عصابة   من كل جنس ما تعاف محرما

الفانتم الهدار ملء سمائهم   وهديرنا المسعور قد ملأ السما

يا واهب النورين نور حياته   وضياء عينه لمجد بنى الحمى

لو كنت في وطن يعزز اهله   قدر المعلم قلدوك الانجما

وعلى هذا النسق المؤثر يمعن التدمري في قصيدته ليختمها بهذين البيتين :

انى اكاد اراك في دار الرضى   ولسان حالك راح يهتف مرغما

ان رمت عن ذل السؤال تجافيا   فاربأ بنفسك ان تعيش معلما

وفي مطلع القرن كان في طرابلس عدد كبير من الشعراء ما زلت اذكرهم ، الا اني لم احاول السعي للحصول على شيء من انتاجهم لخروج ذلك عن غايتي الاساسية في وضع هذه الرسالة ، ولما يتطلبه ذلك من مجهود لم يتسع وقتي للقيام به .

واني اكتفي بذكر اسماء المجيدين منهم ، معرفا بكلمات مقتضبة من كانت تربطني بهم روابط صداقة حميمة .

سمير عبد الحميد الرافعي :

اديب كبير وشاعر متين القافية عميق التفكير وطني صادق في وطنيته التحق في اثناء الحرب العمومية الاولى بالثورة العربية التي اعلنها وقادها ملك الحجاز المغفور له الشريف حسين ، وبانتهاء الحرب التحق بمعهد الحقوق العربي في الشام ونال اجازته ثم حضر الى طرابلس وكان لاوضاع البلاد المتردية اثرها في ايثاره الانقطاع عن كل نشاط في المجالين الفكري والعملي مع كفاءته التامة لذلك ، وبعد تقاعد والده عن كتابة العدل تعين لها وبقي فيها حتى بلوغه سن التقاعد وله ابحاث ادبية قيمة وقصائد شعرية متينة ما زالت في خزائنه دون نشر عل اولاده الكرام يقومون بهذا الواجب ، توفاه الله في عام ١٩٧٧ رحمه الله .

عبد اللطيف احمد سلطان :

من ادباء طرابلس وشعرائها ، تعلم في طرابلس واتقن اللغتين العربية والتركية ، التحق بالخدمة العامة ، وشغل لمدة طويلة وظائف ادارية كبيرة ، كان آخرها وظيفة مدير تحريرات متصرفية طرابلس ، يحب النكتة ولو على نفسه وله في ذلك مجالات غاية في الروعة ، وله الكثير من الشعر ، خصوصا المناظرة التي جرت بينه وبين الشيخ عبد المجيد المغربي في التفضيل بين السيف والقلم ، وافاه الاجل في عام ١٩٣٧ رحمه الله .

سعد الله عبد اللطيف سلطان :

اديب وشاعر تعلم في طرابلس ونال اجازة الحقوق من معهد الحقوق العربي في الشام ، شغل وظيفة مدير المدرسة العلمية التابعة للجمعية الخيرية الى حين ضمت هذه الجمعية لجمعية اسعاف المحتاجين ، كما شغل وظيفة مساعد قضائي لدى محكمة بداية طرابلس مدة قصيرة ، ثم استقال منها مختارا ، وانزوى في بيته معتزلا العمل على الرغم من امكانياته العلمية التي كانت تؤهله لان يكون من مشاهير المحامين ولعل لوسوسته على صحته اثرها في هذا الانزواء ، توفاه الله بغتة في عام ١٩٧٧ في اثناء الحوادث الدامية التي حلت في البلاد .

عبد الستار احمد السلطي :

ولد في طرابلس وتعلم فيها ، اتقن قرض الشعر ، وبصورة خاصة في الادب المكشوف الذي كان يشير اليه بعبارة (ما يقال ولا يكتب) ، وكان في هجائه سباقا في اختيار الكلمات المنيعة ، كان اجتمع يوما الشاعر الكبير المرحوم امين نخله وسمع منه بعض اشعاره فأعجب بها ، وعند سماعه لبيت من الشعر يصف به ذقن من هجاه طرب لمعانيه وايقاعه ، فطلب منه ان ينسب له هذا البيت فيقابله بالتنازل له عن ديوان شعره بأكمله ، وعندما نعلم ان الامين من اكابر الشعراء العربية ندرك درجة اعجابه بهذا البيت ، دعي للخدمة العسكرية في اثناء الحرب العمومية الاولى ، وله في وصف حالة الجندي العثماني قصيدة لو وصل خبرها الى السلطة العسكرية لكان نصيبه الاعدام ومما قاله في آخرها :

لا تعجبوا يا ناظرين لحالتي   فلباسي من امجاد حال دولتي

وكانت الدولة العثمانية قد اصدرت في اثناء الحرب العمومية الاولى عملة ورقية (بنكنوط) هبطت قيمتها في مدة وجيزة الى الخمس ، قال في وصفها :

هبطت بعد صعود   صعدت بعد هبوط
لا تسلني كيف حالي   حالي حال البنكنوط

صادفته يوما في السوق يبتاع بعض مواد المعيشة ، فبادرني بقوله :

وما الانسان الا جحش بيت   يحمل ما يطيق ولا يطيق
ومن في البيت كلهم حمير   ولكن عندهم ضاع العليق

وكان رحمه الله حاضر النكتة ، جامعا للكثير من اخبار السلف ، توفي في عام ١٩٥٥ رحمه الله .

الشيخ عبد الوهاب ساري :

هو من مواليد غير طرابلس تلقى علومه فيها ثم التحق بالازهر الشريف ، شغل عدة وظائف دينية متواضعة ، رافقه البؤس طول حياته ، واقعده مرض الربو عن نشاطه وراء اسباب العيش ، له ديوان شعر مخطوط .

جمال ونديم وفؤاد الملاح :

اشتهر آل الملاح في طرابلس بالعلم والادب ، ذكرهم الحنبلي في كتابه

شذرات الذهب ، ومن بينهم اشقاء ثلاثة عرفوا بتمكنهم من اداب اللغة العربية ويترضهم للشعر المتين القوافي ، انصرف منهم المرحومان جمال وفؤاد للتجارة ، الا المرحوم نديم ، فقد سافر في الثلاثينات الى الاردن فقربه المغفور له الملك عبد الله منه وولاه مراكز عالية في الدولة آخرها عضوية مجلس الاعيان ، وبعد اغتيال الملك عبد الله ، كان احد ثلاثة اعيان في مجلس الوصاية على العرش الهاشمي حتى بلوغ الملك حسين سن الرشد ، وقد توفاه الله في الاردن ، اما الشقيقان الاخران فقد توفيا في طرابلس رحمهم الله .

اما من اعرف ممن اتقن صياغة الشعر الحديث من شبابنا فمنهم السادة رجائي وهيب البارودي وعطفت شعبان وعبد المجيد القصير ومحمد علـي منقاره ، وهم جميعهم ما زالوا في شرخ الشباب .

ومن الشعراء الشباب الافذاذ المرحوم رشيد محمود الشهال ، توفاه الله في ريعان شبابه فكانت وفاته في سنه المبكرة خسارة للادب العربي ، لما كان يرجى له من مستقبل زاهر في مجال الشعر ، وقد قام صديقه رجل الوفاء الاستاذ بهاء مولوي بطبع ما حصل عليه من القصائد التي نظمها الشاعر مادحا ثم راثيا فقيد العروبة المغفور له جمال عبد الناصر ، ومن يطلع عليها يدرك اية خسارة ادبية حلت بنا بفقدان هذا الشاعر الملهم .

الباب الثالث ـ الحياة الاقتصادية

الفصل الاول ـ الوضع التجاري

الحياة الاقتصادية :

يتضمن باب الحياة الاقتصادية بحثين هما :

الاول ــ الوضع التجاري .

الثاني ــ الوضع الصناعي والعمراني .

وعلى الرغم من ان كلا البحثين يشكلان وحدة متكاملة في حد ذاتها ، الا اني قد رأيت ان من الانسب فصلهما ، تسهيلا لتسلسل الحديث في كل منهما بحيث يلتقيان في النهاية عند نقطة واحدة في توضيح وضع الحياة الاقتصادية في المدينــة .

البحث الاول ــ الوضع التجاري :

كان تعداد سكان طرابلس والميناء حتى نهاية عام ١٩١٤ العام الذي اعلنت فيه الحرب العمومية الاولى لا يتجاوز الاربعين الف نسمة ، وعلـى الرغم من ضآلة حجمها ، فقد كانت مركزا نشيطا لتجارة الصابون والثمـار الحمضية والحرير الطبيعي ومشتقاته والغلال كالقمح والذرة وخلافها ، وكان في طرابلس اكثر من عشرة مصانع للصابون تشتغل طيلة ايام السنة وتصدر مصنوعاتها الى العراق ومصر وبلاد الاناضول وقبرص ، وكانت تصدر الاثمار الحمضية الى روسيا والى اسواق استنابول عاصمة الدولة العثمانية ، كما كان في ضواحي المدينة ، امثال قرية بطرام في الكورة ، وقرية رشعين في الزاوية ، من قرى متصرفية جبل لبنان ، وقرية مرياطة التابعة اداريا لقضاء طرابلس ، وقرية القبيات في قضاء عكار ، وفي طرابلس نفسها باشراف راهبات المحبة ، معامل لتصنيع شرانق الحرير الطبيعي ، تصدر مصنوعاتها منه الى اسواق فرنسا .

وكان في طرابلس بالاضافة الى ما تقدم مصانع متواضعة لنسج الحرير وتحويله لاقمشة الست كروزا ، والاغباني ومشتقاتها ، ومصنع بدائي لانتاج القطع الزجاجية كالاقداح والاراكيل وخلافهما .

وفي عام ١٩١٢ تم بمسعى من التاجر الطرابلسي الكبير المرحوم مصطفى عز الدين تدشين الخط الحديدي بين طرابلس وحمص فازدادت الحركـة

التجارية اتساعا واصبحت طرابلس تنعم برخاء اقتصادي منقطع النظير .

يضاف الى ذلك نشاط السوق السوداء في تهريب الاسلحة والتنباك العجمي ، وفي تسفير ابناء جبال العلويين الى افريقيا والاميركتين طلبا للرزق فاستفاد البحارة في الميناء والشركات التي تكونت لذلك اكبر استفادة .

وفي عام ١٩١٤ وبينما كانت طرابلس في اوج ازدهارها الاقتصادي اخذت الويلات الاجتماعية ، والضربات الاقتصادية ، تتوالى على المدينة فافقدتها الكثير من مقومات حياة الازدهار الذي كانت تنعم به .

والى القارىء الكريم صورة صادقة عن الاحداث الاقتصادية التي تعرضت لها المدينة منذ عام ١٩١٤ فصاعدا تلك الاحداث التي حولت حركتها جمودا واخضرارها يباسا .

ففي عام ١٩١٤ هذا انضم حكام الدولة العثمانية ، الاتحاديون الى دولتي المانيا والنمسا في حربهما مع دول بريطانيا العظمى وفرنسا وروسيا ، فاغلقت بين ليلة وضحاها موانىء الدولة العثمانية ، ومنها ميناء طرابلس بوجه الملاحة البحرية ، وانقطع وصول البواخر اليها انقطاعا تاما امتد حتى نهاية الحرب في عام ١٩١٨ وجلاء الدولة العثمانية عن البلاد العربية .

وفي عام ١٩١٦ ، اقتلع قائد الجيش العثماني الرابع احمد جمال باشا المرابط في البلاد العربية خط طرابلس الحديدي ، ونقله الى صحراء سيناء مع الحملة التي وجهها الى احتلال مصر ، فاصبحت طرابلس في عزلة تامة عن الخارج وعن باقي البلاد العثمانية .

وتوقف تصدير الحمضيات توقفا تاما ، وكان ملاكو جنائن الاثمار الحمضية يدفعون اجورا للعمال الذين يقومون بقطف هذه الاثمار واتلافها خارج الجنائن تجنبا للضرر الذي يلحق الاشجار من بقائها عليها .

وكان من اشهر تجار الصابون في تلك الايام المغفور لهم عبد الرحمن وعمر وصديق وصبحي عدره ، والحاج حسين والشيخ عبد الكريم وعبد القادر وعبد الرحمن وكامل عويضة ، وعبد الله محمد الذوق ، كما كان المغفور لهما عبد القادر وفؤاد الذوق من اكبر تجار شرانق الحرير الطبيعي ، اما تجارة الاقمشة الحريرية فقد كان عبد الفتاح المظلوم رحمه الله في مقدمة من تعاطاها .

وفي اعقاب الحرب العمومية الاولى ، وجلاء الدولة العثمانية عن البلاد العربية ، اخذت تجارة تصدير الصابون تخف تدريجيا ، وفي اثر القطيعة التي

تمت في عام ١٩٤٩ بين سوريا ولبنان اغلقت معظم المصابن ابوابها ، وما بقي منها كان لمجرد سد حاجة الاسواق المحلية من الصابون .

اما تجارة الحرير الطبيعي فقد اصيبت في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين بضربة اقتصادية قاضية ، بعد تطوير صناعة الحرير الصناعي وتدني اسعار الحرير الطبيعي ، تدنيا كبيرا ، انصرف بسببه مربو دودة القز عن متابعة نشاطهم في هذا الحقل ، وقلع معظمهم اشجار التوت من اراضيهم واستبدلوا بها غيرها من الاشجار المثمرة .

وقد كان لهذا التحول الذي طرا على تجارتي الصابون والحرير الطبيعي اثره السيء في اقتصاديات البلد .

ومما زاد الطين بلة ، الضائقة المالية التي عمت العالم في عام ١٩٢٩ وكان لطرابلس منها النصيب الملموس ، الا ان معظم التجار الطرابلسيين الذين اشتهر عنهم الاشتغال في التجارة في حدود امكانياتهم المادية بقوا في وضع اقتصادي سليم ، ابعد عنهم شبح الافلاس ، حتى ان المغفور له الحاج مصطفى عز الدين ، وكان على رأس التجار الذين يتعاطون التجارة الواسعة مع الخارج ، بقي على الرغم من الخسائر الفادحة التي مني بها ، واقفا على قدميه ، وقد تسلم في حياته ولده المرحوم واصف شؤون محلهم التجاري ، وامكنه من استعادة الكثير مما خسره في اثناء الازمة المالية المحكى عنها .

وكان المرحوم مصطفى عز الدين ، بعيد النظر في اعماله التجارية ، سباقا الى ابتكار الطرق التجارية الرابحة ، فهو اول من انشأ مستودعا للمواد الملتهبة (الكازخانة) قرب برج السباع على الساحل الغربي من المدينة اذ كان تجار هذا الصنف ، يستحضرونه ضمن صناديق خشبية يحتوي الواحد منها على صفيحتين تتسع كل منهما لعشرين ليترا .

ومما يذكره كتبة المحاسبة المتعاقبون في محله التجاري وكان آخرهم المرحوم سجعان عون ، انهم امضوا قرابة نصف القرن في عملهم لديه ، دون ان يسجلوا في حقل الخسائر من دفاتره التجارية بارة واحدة ، وعلى الرغم من غناه الكبير فقد كان رحمه الله ، جم التواضع بارا في مساعدة الاسر المستورة .

وفي عام ١٩٣٧ حصل تحسن في صناعة الصابون ، وذلك بابدال زيت البالم الرخيص الثمن بزيت الزيتون المادة الاساسية في صناعته ، وكانت مؤسسة مصطفى سعدي المنلا واخوانه اول من استعمل هذه المادة في صناعة

الصابون ، بعد ان اكتشفها رئيس المؤسسة المرحوم سعدي بك في احدى سفراته الاستكشافية الى ايطاليا .

وقد اصبحت مؤسسة مصطفى سعدي المنلا واخوانه منذ ذاك التاريخ والى ما بعد الحرب العمومية الثانية ، في مقدمة مصدري زيت الزيتون الى بلاد الغرب ، ومنها ايطاليا بصورة خاصة ، وكانت هذه المؤسسة حريصة على سمعتها التجارية ، في تعاملها مع المؤسسات التجارية الايطلية ، الامر الذي ادى بهذه المؤسسات لان تضع اسم مؤسسة سعدي المنلا واخوانه في لوحة الشرف المخصصة للتعريف بالمؤسسات التجارية الصادقة والشريفة في تعاملها التجاري .

وكانت وزارة الاقتصاد الوطني تبيح تصدير الزيت حينا وتمنعه حينا آخر ، تبعا لظروف حاجة البلاد وعدمها .

وفي اثناء تولي المرحوم سعدي بك في عام ١٩٤٦ وزارة للاقتصاد الوطني ، كان لدى مؤسسته كمية كبيرة من زيت الزيتون ، وبسبب منع تصديره آنذاك ، تدنت اسعاره تدنيا ملحوظا ، فذهب في احد ايام منع التصدير احد افراد المؤسسة نجيب بك الى اخيه الوزير يعلنه عن وجود مشتر لما بحوزتهم من زيت الزيتون باسعاره المتدنية ، فوافقه على البيع ، ولم تمض ايام معدودات على انجاز الصفقة حتى صدر قرار وزير الاقتصاد المرحوم سعدي بك نفسه باباحة تصديره ، فارتفعت اسعاره ارتفاعا كبيرا ، وخسرت المؤسسة فارق الاسعار ، ولما عاتب نجيب بك اخاه الوزير على اخفائه امر اباحة النصدير ، اجابه بان هذه الاباحة كانت من اسرار الدولة التي لم يجوز لنفسه اطلاع الغير عليها حتى ولو كان اخاه ، وقد اكد لي الصديق محمد صبحي عدره احد اكبر تجار هذا الصنف هذه الواقعة ، مضيفا الى قوله ان مؤسسة سعدي المنلا واخوانه كانت المؤسسة الوحيدة التي لم تستفيد من ارتفاع اسعار الزيت في تلك الايام ، وعلى الرغم من ذلك فقد اخذ حساد المرحوم سعدي بك باطلاق اسم سعدي الزيت عليه بقصد التشهير به ظلما وعدوانا .

وبعد مضي بعض السنين على انتهاء الازمة الاقتصادية العالمية اخذ تجار المدينة يلتقطون انفاسهم ويعملون على النهوض بالحركة التجارية الى سابق عهدها من الازدهار ، وكان من اعمالهم تأسيس جمعية لهم في عام ١٩٣٩ تعمل على رعاية مصالحهم وكان لنشاط رئيسها الحالي السيد جمال القرحاني وديناماكيته اثره في النهوض بالحركة التجارية واسماع كلمة التجار الى المراجع المختصة .

وفي عام ١٩٤٥ تعين السيد نجيب المنلا رئيسا لغرفة تجارة وصناعة طرابلس ، وكانت اسما لغير مسمى لعزوف التجار عن الانتساب اليها ، فعمل على تحسين اوضاعها ولم يتوان عن حضور جميع مؤتمرات غرف التجارة والصناعة في الدول العربية ، والمؤسسات التجارية لدى الدول الغربية والاشتراكية على حد سواء ، بقصد تنمية اواصر النشاط التجاري معها .

وفي عام ١٩٦٧ صدر مرسوم اشتراعي قضى بتنظيم اوضاع غرف التجارة والصناعة اللبنانية ، كما قضى بان يتم اختيار رئيس واعضائها بالانتخاب من قبل التجار انفسهم ، وكان في كل مرة يجري انتخاب جديد ، يختار الاعضاء بالاجماع الاستاذ المنلا رئيسا لهم .

ومما يدل على تقدم اوضاع الغرفة ، ما بلغته وارداتها السنوية من الرسوم التي تتقاضاها عن شهادات المنشأ وخلافها وهي في حدود الـ /١٥٠/ الف ليرة لبنانية ، هذا بالاضافة الى مبلغ /٥٠٠/ الف ليرة لبنانية متجمع لديها ومخصص لبناء ادارة لها تليق بمدينة طرابلس في احسن بقعة من بولفار الشيخ بشاره الخوري .

وفي عام ١٩٦٥ بدأ تجار طرابلس يستوردون ما يحتاج اليه السوق التجاري من البضائع المختلفة من مصادرها في البلاد الاميركية والاوروبية والاشتراكية توا ودون وساطة ، وفي ذلك ما فيه من دليل قاطع على التحسن الذي طرأ على وضع طرابلس الاقتصادي .

كذلك فان المملكة العربية السعودية ، ودول الخليج العربي قد اخذت منذ عام ١٩٧٠ تستورد من طرابلس حاجتها من زيت الزيتون الانتاج الرئيسي لمحافظة الشمال وقاعدتها مدينة طرابلس بكميات وفيرة .

اما الاثمار الحمضية والليمون من انتاج طرابلس ، والتفاح من انتاج الاقضية المحيطة بها فقد اخضعت في التصدير لرقابة مكتب الفاكهة ، الذي احدثته الدولة ، وتصريف هذه المنتوجات يسير بشكل مرض على الرغم مما تعترضه احيانا من عقبات .

واما الغلال واهمها الحنطة فقد كسد مع الاسف سوقها واصبح تجار هذا الصنف يستوردون الدقيق الاجنبي ، وتوقفت المطاحن المائية والالية عن نشاطها في ذلك .

البحث الثاني ــ الوضع الصناعي :

١ ــ شركة كهرباء قاديشا :

كانت طرابلس الى ما بعد الحرب العمومية الاولى ، وعلى وجه التحديد حتى نهاية عام ١٩٢٩ خالية من اي نشاط صناعي حديث ، اذ من المعلوم ان انشاء اية صناعة في بلد ما يتوقف بالدرجة الاولى وبوجه عام على توفر الطاقة الكهربائية المحركة للآلات ، وكان النشاط الصناعي يعتمد في جميع مراحله على اليد العاملة ، وكان انجاز اي عمل صناعي معين يحتاج الى وقت طويل وجهد مضني ، فنشر اللاطة من الخشب الى عشرة قطع مثلا كان يقتضي له ما يقارب خمس ساعات يشتغل خلالها عاملان في نشرها ، وكان عصر الزيتون يتم في المطاحن المائية ، وكانت قوة الضغط في هذه المطاحن محدودة ، الامر الذي كان يؤدي الى بقاء ما يقارب ربع كمية الزيت في تفل الزيتون بعد عصره ، يذهب هدرا ، ويقتصر على استعمال التفل للتدفئة في المنازل ايام الشتاء ، ولمواقد حلات الصابون ، وفي ذلك ما فيه من خسارة يلحق بالوضع الاقتصادي .

وكان اول من انشأ معملا لتصنيع الخشب بالطريقة الحديثة الاستاذ رفيق الفتال ، وبذلك اختصر الوقت في التصنيع اختصارا كبيرا ، وقد توقف هــذا المعمل عن العمل بسبب نشوب الحرب العمومية الاولى .

كما ان المرحوم مصطفى عز الدين كان في ذاك التاريخ اول من انشأ في الميناء معملا يدار على البخار لاستخراج الزيت من تفل الزيتون ، وبذلك حفظ للبلد قسما مهما من ثروتها الزيتية كانت تذهب قبل ذلك طعما للنار .

ثم اخذت تتكاثر مع الايام بمجهود فردي ، وبصورة تدريجيــة اجهزة تصنيع الحديد ونشر الاخشاب وكبس الزيتون على الطرق الحديثة .

وقد بقيت طرابلس حتى عام ١٩٢٩ تعتمد في الانارة على الكاز ، وفي نهاية العام المذكور انيرت بالكهرباء ، حين قام المرحوم البطريرك انطــوان عريضة بالحصول على امتياز توليد الكهرباء من نبع قاديشا ، وذلك خــلال عهده بمطرانية طرابلس للطائفة المارونية وقد شاركه في ذلك فريق من اثرياء طرابلس والشمال منهم على ما اذكر المغفور لهما المنسنيور اغناطيوس كيروز والشيخ رشيد كيروز ، وجورج صعب وغيرهم .

وكان الاقبال على الاشتراك بالكهرباء محدودا ، وجابهت الشركة مصاعب

مالية اضطرتها لبيع اكثرية ما تملكه من الاسهم لشركة افرنسية .

ثم رغبت تلك الشركة الافرنسية بدورها في بيع كامل ما تملكه من الاسهم فتقدم لذلك الاقتصادي الكبير الشيخ بطرس الخوري مع فريق من اثرياء المدينة امثال آل الفندور والمسقاوي والمنلا وغيرهم في عام ١٩٥٠ لشراء الاسهم المذكورة ، وبذلك اصبحت الشركة بتمامها شركة لبنانية بحتة .

وقد اتسعت البلدة ، وبالتالي اتسعت اعمال الشركة ، وانضمت اليها شركة نبع الفار التي كان انشأها المغفور لهما الشيخان يوسف وسايد اسطفان على نهر ابي علي بالقرب من قرية كوسبا .

ثم اتسعت الحاجة للطاقة الكهربائية ، بعدما انشيء في المدينة الكثير من الصناعات ، فقامت الشركة بتشجيع من رئيس مجلس ادارتها الشيخ بطرس وهمة مديرها العام ولده الشيخ سليم بانشاء عدة مولدات مائية وحرارية ، بحيث اصبحت طاقتها المنتجة من الكهرباء ما مقداره /٦٠٥٠٠/ كيلوات ونيف موزعة على الشكل التالي :

الموقع	الطاقة الكهربائية بالكيلوات
محطة بشري المائية	١٦٠٠
محطة ابو علي المائية	٧٤٠٠
محطة مار ليشع المائية	٣١٠٠
محطة بلوزا المائية	٨٤٠٠
محطة البحصاص الحرارية	٤٠٠٠
محطة الشيخ بطرس الخوري الحرارية	٣٦٠٠٠
	٦٠٥٠٠

وبما ان الطاقة المائية عرضة للانخفاض خلال ايام شح الماء في فصلي الصيف والخريف ، فقد ربطت الشركة خطوطها الاساسية ذات التوتر العالي بخطوط كهرباء نهر البارد في عكار ، وخطوط مصلحة كهرباء لبنان في بيروت ، بحيث اصبح بامكانها عند الضرورة الحصول على الطاقة من هذين المصدرين .

٢ ــ مصلحة المياه :

ان مدينة طرابلس كانت حتى عام ١٩٣٥ (العام الذي انتهت فيه اشغال جر وتمديد مياه نبع رشعين) ، تسقى من مياه غير صالحة للشرب ، يرجع تاريخها الى عهد الكونت ريمون دي تولوز حــاكم طرابلس في عهد الحملــة

الصليبية ، ولم يكن يستفيد من هذه المياه سوى القسم المنخفض السفلي من المدنة ، وهو ما يعادل يومئذ ثلثي مساحة المدينة ، اما الثلث الاخير كمحلتي القبة والرفاعية ، فكانت تنقل اليها مياه الشفة ضمن قرب على ظهور الحمير ، وكان يبنى في كل دار خزان لجمع مياه الامطار لاستعمالها في الشؤون المنزلية ، ومن جهة اخرى فان مدينة الميناء لم يكن يصل اليها الا النذر اليسير من الماء .

وكان للبلدية الرقابة الشكلية على الماء ، اما الرقابة الفعلية فكانت لنفر عرفوا بالقنواتية هم المسؤولون عن وصول الماء الى الدور بـاجر محدود يتقاضونه من الشاكين ليهرعوا الى اتخاذ تدابير خاصة لاصلاح الاقنية الفرعية المعطوبة والتي لم تكن سوى وضع نشارة الاخشاب وفي بعض الاحيان روث الخيل ... في الماء المنساب من القائم الى الدور لسد الفجوات الموجودة في الانابيب التي كانت جميعها من مادة الفخار .

وكان السكان يتداولون بيع حق الانتفاع بالماء وشرائه فيما بينهم ، ويحصلون من ذلك على ارباح طائلة .

وكان الماء بصورة مستمرة عرضة للتلوث بما يلقيه في قناتها المكشوفة سكان القرى المجاورة من اوساخ واقذار ، وكانت الصحة العامة في المدينة ايام المياه القديمة على اسوا حال ، كما ان تلوث المياه كان يؤدي الى تكاثر الامراض المستوطنة واخطرها الزحار اذ كان يندر وجود شخص في المدينة غير مصاب بهذا المرض الوبيل ، وعلاوة على ذلك فان وباء الهواء الاصفر كثيرا ما اجتاح المدينة واهلك من اهلها العدد الوفير .

وكانت حالة المياه القديمة هذه موضع شكوى رجالات طرابلس ومفكريها وكان الرجل العمراني الكبير المرحوم عزمي بك قد حاول ايام توليه متصرفية طرابلس في مطلع العشرينات من عصرنا الحالي اصلاح حال مياه الشرب ولكن دون جدوى .

ومرت السنون حتى عام ١٩٢٨ حيث اسعد الحظ مدينة طرابلس فاتيح لابنها البار الشيخ محمد الجسر يوم كان رئيسا لمجلس النواب اللبناني ان يعني بقضية المياه المزمنة ، ليحقق لابناء بلده امنيتهم فاستدعى المهندس المرحوم رشدي بك سلهب من البرازيل وعهد اليه في وضع التصاميم الفنية اللازمة لجر مياه نبع رشعين الى المدن الثلاث ، طرابلس — زغرتا — الميناء ، وقد قام رشدي بك بوضع التصاميم الفنية اللازمة لجر ما مقداره /١٢٠٠٠/ مترا مكعبا لبلدتي طرابلس والميناء و /٢٠٠٠/ مترا مكعبا لبلدة زغرتا وفي عام ١٩٣٥

انتهت اعمال جر المياه وتمديدها واخذ سكان المدينة يشربون الماء الصحي القـــراح .

ان مشروع مياه طرابلس قد درس كما سبق ذكره في وقت كان فيه سكان المدينة لا يتجاوز /٤٠٠٠٠/ نسمة ، ولكنه بني على اساس ان يكون استيعاب خط الجر /١٢٠٠٠/ مترا مكعبا من الماء في اليوم ، للحوظة ان تكون هذه الكمية تكفي حاجة /٧٠٠٠٠/ شخص فقط ، وذلك بمعدل /١٥٠/ ليترا من الماء في اليوم للشخص الواحد ، غير ان التطور الاقتصادي والعمراني ، الذي طرا على المدينة خلال المدة بين ١٩٣٥—١٩٤٩ كان من اثره تكاثر السكان فوق النسبة المقدرة للزيادة المنوه بها حيث تقفز عدد المقيمين في طرابلس الى ما يزيد على ماية الف ، فاخذت منذ ذاك العام اي عام ١٩٤٩ تظهر بوادر نقص وارد الماء عن حاجة الاستهلاك اليومي ، هذا النقص الذي اخذ يتزايد شدة عاما بعد عام ، وكنت قد وليت في عام ١٩٤٨ مديرية مصلحة المياه ، فاخذت اعالج هذا الوضع الخطير دون كلل او ملل الى ان وفقت في عــام ١٩٥٠ باستصدار مرسوم جمهوري تحت رقم /٣٠٥٦/ يخول مصلحتنا اخذ مكية /٤٠٠٠/ مترا مكعبا في اليوم من مياه مغارة هاب لتموين طرابلس بميــاه صالحة للشرب ، كما تمكنا بفضل ساعدة دولة الرئيس رشيد كرامي ونفوذه من الحصول على اعتمادات في موازنات الدولة للمشروعات الانشائية خلال المدة الواقعة بين ١٩٥٠—١٩٥٧ بلغ مجموعها خمسة ملايين ليرة لبنانيــة صرفناها بتفويض من وزارة الموارد المائية والكهربائية في سبيل حفر النفق وبناء مصافي التكرير ، وتحسين شبكة الماء .

وقد ساهم مشروع المياه مساهمة فعالة في تنشيط الحياة العمرانية في المدينة ، وفي اتساع رقعتها توسعا كبيرا ، كما ساهم في تحسين الحالـة الصحية العامة تحسنا ملموسا ، الا ان تدني ما تتقاضاه من رسوم سنوية بالنسبة لما تتطلبه من نفقات يجعلها في وضع مالي غير سليم ، واني ارى وانا الخبير بشؤون المصلحة بعد ان امضيت في الخدمة لديها زهاء ثلث القرن ان لا مندوحة لها من مضاعفة الرسوم التي تتقاضاها حتى يستقيم وضعها وتتحسن حالتها ، ليمكنها من القيام بالواجبات التي ستترتب على عاتقها في مستقبل الايام .

المصانـــع :

كان لآل الغندور وآل عريضة الاكارم الفضل الكبير في تنشيط الحيــاة الصناعية في البلدة ، وقد بلغوا في ذلك الذروة في النجاح ، بما اسسوا من مصانع

وبما امنوا لليد العاملة التي تقوم بالخدمات لديهم من مورد رزق محترم .

فآل الفندور يستخدمون اليـــوم في مصانعهم مـــا يزيد على /٢٦٥٠/ شخصا ، فاذا اعتبرنا ان المعدل الوسطي لافراد اسرة كل مستخدم او عامل خمسة اشخاص يكون مجموع من يؤمن لهم العيش الشريف من نشاط آل الفندور ما يقارب /١٣٢٥٠/ شخصا يتقاضى معيلوهم اجورا سنوية تزيد على اثني عشر مليون ليرة لبنانية وفقا لما هو مفصل فيما يلي :

نوع المصنع	تاريخ التأسيس سنة	الانتاج اليومي طن	متر مكعب / نوع الانتاج	عدد العمال
تكرير السكر	١٩٥٤	٢٠٠	سكر ابيض	/ ٤٥٠/
الخشب المضغوط	١٩٥٥	٢٥٠	معاكس ولاته ومضغوط	/١٠٠٠/
الحديد	١٩٥٧	٣٠٠	مبروم ومجدول وزاوية	/ ٨٠٠/
الزيوت	١٩٦٥	٣٠٠	فيجاتالين ــ بالم ــ قطن	/ ٤٠٠/
				/٢٦٥٠/

هذا بالاضافة الى تجارتهم الواسعة في استيراد الاخشاب وتصديرها على انواعها وتشغيلهم فيها مئات الايدي العاملة .

مصنع عريضة للغزل والنسيج :

في عام ١٩٣٢ انشأ في موقع البحصاص المغتربون الشماليون العصاميون السادة يوسف وسليمان وجورج عريضة مصنعا كبيرا للغزل والنسيج برأسمال قدره ١٧٦٤٠٠٠ ليرة لبنانية ، وقد اعترض المصنع في اول عهده لكثير مـــن الصعاب اجتازها اصحابه بنجاح ، وفي اثناء الحرب العمومية الثانية اتسع عمله واتسع نشاطه حتى اصبح وما زال عدد عماله يربو على ٥٠٠ عاملا .

اما انتاجه السنوي فقد بلغ في حدود :

٩٢٥	طنا	من خيوط الغزل
٣٥٠٠٠٠٠	يردا	من النسيج الخامي

ومثل هذا القدر من الخام المصنع والمطبع بالالوان المختلفة .

مصنع التريكو لآل الصفدي :

تأسس هذا المصنع في عام ١٩٣٥ وهو يحتوي على /٨٠/ ماكنة تنتج الكنزات والجوارب والاقمشة الصوفية والقطنية والحريرية مجموع انتاجه اليومي بمعدل ثماني ساعات عمل حوالي /٥٠٠/ قطعة بطاقة كاملة ، وعماله يتجاوزون الـ /٦٠/ عامل وهذا المصنع من احدث المصانع من انواعها .

الشركة الوطنية للملاحة البحرية :

مؤسسو هذه الشركة المرحومان ناظم وواصف والسيد محمد المسقاوي ، رأسمالها مليون ليرة لبنانية ، ونشاطها النقل البحري في مرافىء البحرين الابيض والاسود .

لدى الشركة ثلاث بواخر منها الباخرة (ندى) حمولتها ٥٠٠ طـــن ، صنعت بأيد لبنانية ، واخرى (ناظم) حمولتها ٩٥٠ طنا ، وثالثة (واصف) حمولتها ١١٠٠ طنا .

وقد توسعت الشركة في اعمالها بأن تعاقدت مع شركة (محمد يحي واخوانه) لصناعة البواخر ، والمرحوم محمد يحي نابغـــة من نوابـــغ هذه الصناعة ، حيث قاموا بأنشاء اثني عشر زورق خفر سواحل لصالح الجيش اللبناني ، منها زورق قاطر وآخر ارشاد ، مع زورقي صيانة وزورق ربط ، وتعاقدوا مؤخرا مع الصناعي الكبير ناظم الفندور لان ينشئوا لحسابه باخرة بحمولة ٢٢٠٠ طنا بأسم (طارق) .

ومصنوعات هذه الشركة تخضع لمراقبة دوليه دقيقة للتحقق من توفر الاتقان الفني فيها ، وقد اثبتت التقارير التي حصلوا عليها من اللجان الفنية المار ذكرها ، ان المواصفات الفنية لمصنوعات هذه الشركة الوطنية بالغة حد الكمال التام .

مخازن التبريد :

لم يكن خلال الثلث الاول من القرن مـــن اثر لمخازن تبريد الفواكـــه والحمضيات (البرادات) ، فكانت هذه المواد مهددة دائما بالتلف اذا وقع ما يحول دون تصديرها في الوقت المناسب .

اما اليوم فقد اصبح في المدينة ما يزيد على خمسين مخزن تبريد يحفظ فيها مئات آلاف الاطنان من الفواكه والحمضيات الامـــر الذي حفظ الثروة الزراعية من التعرض للتلف والضياع .

المؤسسة العربية لصناعة الزجاج :

تد انشأ هذه المؤسسة في عام ١٩٣٠ المرحوم الحاج كامل القزاز ويديرها اليوم ولده حامد واولاده ، يبلغ رأسمالها حوالي مليون ليرة ، وتنتج كل سنة حوالي /٨٠٠ ٣١٢ ١/ قطعة من مختلف الزجاج كالاقداح ، والاباريق والاراكيل وخلافها وتستخدم /١١٠/ عامل يتقاضون كل سنة مقدار /٤٠٠٠٠٠/ ليرة لبنانية .

الحركة العمرانية :

أن الحركة العمرانية في المدينة ذات صلة وثيقة بالحركة الاقتصادية ، وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي شعرت به المدينة ، بعد ان اصبحت مصبا لبترول العراق فقد بقيت حتى منتصف العقد الثالث من القرن العشرين متخلفة في حركتها العمرانية مع حاجتها الشديدة لذلك .

وقد بقيت المدينة في تخلفها هذا حتى انارتها بالكهرباء من قبل شركة قاديشا في عام ١٩٣٢ اذ اخذت تدب الحياة نسبيا في الحركة العمرانية شيئا فشيئا وبصورة بطيئة للغاية .

واني الخص المشروعات العمرانية التي قامت في المدينة خلال النصف الاول من القرن بما يلي :

— في عام ١٩١٠ وبمبادرة من متصرف طرابلس وقتذاك المرحوم عزمي بك تم انشاء المستشفى الحكومي بمحلة ابي سمراء كما قدمنا .

— في عام ١٩١٥ وبمبادرة من والي ولاية بيروت عزمي بك ايضا شقت طريق عزمي التي ربطت بين البلدة والميناء كما ذكرنا في هذه الرسالة ايضا .

— في عام ١٩٢٤ وفي اثناء تولي المرحوم خير الدين بك عدره رئاسة بلدية طرابلس اعيد تبليط طرقات المدينة الداخلية ، وتم انشاء الحديقة العامة في ساحة التل .

— في الثلاثينات من القرن وضع مهندسون مختصون تصاميم فنية لطرابلس الحديثة ادخل عليها مع الايام الكثير من التعديلات ، وكانت جميع هذه التصاميم ترمي الى انشاء طرقات جديدة في ظاهر المدينة ضمن بساتين الليمون ، وعقدت بلديتا طرابلس والميناء مع مصرف لبنان عدة قروض لهذه الغاية ، تم تنفيذ قسم منها وحال عجز البلديتين المادي عن تنفيذ الاقسام الباقية .

— في عام ١٩٣٥ تم تنفيذ مشروع جر مياه نبع رشعين بطريقة فنية الى مدن طرابلس — زغرتا — الميناء .

— في عام ١٩٤٤ في اثناء تولي المرحوم محمد كرامي مديرية بلديتي طرابلس والميناء وضعت تصاميم شق الطريق الممتدة من ساحة النجمة في محلة القنواتي سابقا حتى مطلع محلة ابي سمراء ، ومن بعد وفاته قام بتنفيذها خلفه في المديرية شقيقه السيد مصطفى حفظه الله .

— في عام ١٩٤٩ وبمبادرة من المحافظ رئيس البلدية العميد نور الدين بك الرفاعي بوشر بتنفيذ مشروع الملعب البلدي وقد امن بعض المال اللازم له عن طريق يانصيب اجراه ، وقد اتمت البلدية تنفيذ المشروع من بعده .

— في عام ١٩٥٠ وبمبادرة من رئيس غرفة تجارة طرابلس نجيب بك المنلا تأسست من قبل بعض المتمولين الطرابلسيين شركة المنطقة الحرة ، وقد ساهمت هذه الشركة مساهمة فعالة في تنمية الحركة الاقتصادية وازدهارها .

— في عام ١٩٥٠ قامت وزارة الاشغال العامة والنقل باكمال شق الجزء الثاني من بولفار الشيخ بشارة الخوري الممتد من مدخل طرابلس الشرقي لجهة البحصاص حتى محلة التبانة .

هذه هي اهم المنجزات العمرانية التي تمت في المدينة خلال النصف الاول من القرن العشرين .

ويلاحظ القارىء الكريم ان هذه المشروعات على اهميتها هي دون الحاجة بكثير .

والواقع ان طرابلس في امس الحاجة لمشروعات عمرانية ما زالت حتى يومنا هذا في عالم الغيب منها على سبيل المثال وليس الحصر مشروعات المدينة الصناعية والمسلخ الفني وسوق اللحوم والخضار والاسماك .

اما المحجر الصحي البيطري الذي كان انشىء وتم تجهيزه بجميع المعدات اللازمة له فقد عبثت به يد الجهل فسرقت محتوياته واصبح اثرا بعد عين .

وغاية المرتجى ان يمن الله على طرابلس بمجلس بلدي يتحلى اعضاؤه بالعزيمة والمضاء لا يتأثرون بشفاعة الشافعين ولا بنفوذ المتنفذين ، ولا يكون من هدف لهم الا وضع طرابلس في الموضع الجديرة به بين بلدان العالم المتقدم .

المغتربون الطرابلسيون :

لم يكن من الطرابلسيين حتى مطلع العقد الثاني من القرن الا افراد قلائل في بلاد الاغتراب ، اذ كان الناس راضين بما قسم لهم من حياتهم المعيشية ، وبأنتهاء الحرب العمومية الاولى اخذ الطموح عند البعض من الشباب الطرابلسي يدب في نفوسهم ، بالتطلع الى حياة افضل ، فآثروا مخاطر الاغتراب ميمين بوجوههم شطر بلاد الاميركيتين والقارة الافريقية .

وكان على ما اعرف اول المغتربين من الشباب الطرابلسي الى اميركا الشمالية السيدان مصطفى العجم وناظم عبد الحليم الادهمي ، واول المغتربين الى القارة الافريقية وبوجه التخصيص الى غانا السادة المغفور لهم امين السنكري وخير الدين الولي ونور الدين وسليم الزهري ورباح وامين وواصف عدره وتبعهم السيد مصباح قبطان امد الله بحياته ، وما ان انتصف القرن العشرين حتى كان لطرابلس في غانا جالية كبيرة وقد حالفها النجاح بنسب متفاوتة .

ومما يذكر بكل فخر وتقدير ان الجالية الطرابلسية في غانا قد بقيت رغم مرور السنين على علاقة وثيقة مع بلدها الام طرابلس ، وقد ساهم وضعها المادي الى حد كبير في ازدهار وضع طرابلس الاقتصادي ، بما يقوم به افرادها من خدمات عامة وخاصة ، وبما يقدمون من تبرعات لمؤسسات طرابلس الخيرية .

وكنت تقمت عام ١٩٦٢ بزيارة لغانا بدعوة من الصديق الكريم المغترب العصامي نشأت محمد كباره واطلعت عن كثب على اوضاع الجالية فسرني عظيم السرور ما تحققته من نجاحها في نشاطاتها الاقتصادية التجارية منها والصناعيــــة .

وقد تعرفت في اثناء وجودي في غانا على عدد من ابناء الجالية الطرابلسية منهم بالاضافة لمن ذكرت السادة واصف وغازي وطارق فتال وعبد القادر السياتي والحاج ممدوح الحموي ورهيف زريق ومحمد وعبد الرحمن الشلبي وغيرهم وفقهم الله واعادهم الى بلدهم سالمين وموفقين .

الباب الرابع ـ الحياة السياسية

الحياة السياسية :

لقد مرت الحياة السياسية في المدينة بمراحل ثلاث ، انتهت الاولى منها بانتهاء عهد السلطان عبد الحميد واعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ وانتهت المرحلة الثانية بجلاء الاتراك عن البلاد العربية في عام ١٩١٨ ، وبدأت المرحلة الثالثة بدخول الجيوش الاجنبية الى البلاد ، ومن ثم اعلان الانتداب الافرنسي عليها ، وبعد ذلك عهد الاستقلال .

وكنت خلال المرحلة الاولى في سن الطفولة ، الا انه على الرغم من ذلك فقد علق بذاكرتي خيالات من هذه المرحلة استكملتها بما كنت اسمعه في مجالس المرحوم جدي وممن يكبرني بالسن من اخوتي واقاربي .

ففي مطلع القرن العشرين وحتى تاريخ خلع السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩ لم يكن للسياسة في المدينة من اثر على الاطلاق ، فالحياة السياسية هذه لم يذر قرنها وتصبح شغل الناس الشاغل في المدينة الا بعد دخول الافرنسيين الى البلاد كمنتدبين من قبل جامعة الامم ، ورفض المدينة بزعامة المرحوم عبد الحميد كرامي لهذا الانتداب ، وبالتالي للتقسيمات الادارية التي اعلنها المفوض السامي الافرنسي اذ ذاك الجنرال غورو في عام ١٩٢٠ بانشاء دولة لبنان الكبير ، وضم مدينة طرابلس والاقضية الاربعة اليها ، فمنذ ذلك التاريخ بدأ الصراع الدامي بين الطرابلسيين والافرنسيين ذلك الصراع الذي استمر حتى عام ١٩٤٣ تاريخ جلاء الافرنسيين عن البلاد كما سيأتي شرحه .

ففي العقد الاول من القرن العشرين كانت اكثرية الناس المطلقة في المدينة مشبعة بروح الخضوع لولي الامر ظل الله على الارض الخليفة المعظم خاقان البرين وسلطان البحرين عبد الحميد الثاني ، ومن يوليه السلطة نيابة عنه في حكم الرعية ، وكان الاعتقاد السائد عند معظم الناس ان الخروج على ارادة السلطان ورجاله خروج على الدين .

وكانت سياسة السلطان عبد الحميد في حكمه المطلق للامبراطورية العثمانية الذي استمر ما يزيد على ثلث القرن ، تلك السياسة المبنية على التلاحم بين مسلمي الارض قاطبة وبصورة خاصة بين العنصرين الاساسيين في الدولة الترك والعرب ، موضع رضى الشعب الطرابلسي وارتياحه .

الا ان هذا الرضى عن سياسة السلطان لم يمنع مفكري البلد من النظر بشؤم لمستقبل البلاد المظلم بسبب الفوضى التي كانت تعم دوائر الحكومة وتأثير ذلك في وضع الدولة الآخذ بالانهيار .

وكان السلطان عبد الحميد يعيش في قصره (يلدز) منعزلا عن الرعية ، تكتنفه الهواجس من اغتياله كما جرى لعمه عبد العزيز واخيه مراد ، الامر الذي ساعد اعوانه من الوزراء والمقربين على تسيير امور البلاد الداخلية وفق اهوائهم وميولهم الشخصية ، بعكس العلاقات الدولية التي كان يرعاها باهتمامه الشخصي دون اي تدخل من رجالات الدولة .

وكان رحمه الله وعفا عنه على اطلاع واسع باهداف الدول الاوروبية ومطامعها نحو الدولة العثمانية المترامية الاطراف والمتعددة القوميات والاديان ، اذ كانت حدودها في ايام حكمه تمتد من البوسنة والهرسك وولايات الروملي السبع من اوروبا شمالا ، والاناضول وسطا والولايات العربية مع شبه الجزيرة العربية جنوبا ، وولاية طرابلس الغرب غربا ، هذا بالاضافة الى خديوية مصر المتمتعة بالحكم الذاتي ، وقد كان يمثل السلطان فيها مفوض سام .

وكانت حرية الراي والفكر والنشر ممنوعة منعا تاما ، وكان جميع الناس محظورا عليهم الخوض بالابحاث السياسية حظرا شاملا ، وقد امتد الحظر للابحاث العلمية اذا كان فيها ما يشعر الناس بالواقع الاليم الذي يعيشون .

وكان رجال الخفية (المباحث) يحصون على الناس انفاسهم في هذه المجالات ، وكانت تكفي الوشاية بتعاطي احد الناس بالسياسة ليلقى في غياهب السجن ، او بالنفي من دون محاكمة .

وكان الكثير من الموظفين يمضون الاشهر الطوال دون الحصول على رواتبهم المقننة ، الامر الذي كانت تضطرهم ظروفهم المعيشية لبيع هذه الرواتب المستحقة لبعض المتمولين من موظفي المالية بثلث او نصف قيمتها الاساسية وقد اثرى هؤلاء الموظفون من وراء ذلك ثراء فاحشا .

وكان لرجال الدولة من وزراء ومقربين عيون في البلاد العربية ، ترصد على الناس تحركاتهم وتعمل على ترويض اصحاب الكلمة من ابناء البلاد على الولاء للسلطان .

وكان من المقربين للسلطان من ابناء البلاد العربية رجلان ، الاول كاتبه الخاص المرحوم عزت باشا العابد الشامي المولد ، والثاني امامه الخاص ايضا المرحوم الشيخ ابو الهدى الصيادي الحلبي المولد على ما ارجح .

وكانت تربط المرحوم عزت باشا بالمرحوم عبد القادر باشا المنلا جد

الصديق احمد سعد الله بك المنلا صداقة عميقة الجذور جعلته يعتمد عليه في رعاية شؤون الطرابلسيين ، اما المرحوم الشيخ ابو الهدى ، فكان من المقربين اليه المرحوم عبد الغني باشا الانجا ، الذي امكنته رعاية الشيخ له من تعيين شقيقه المرحوم السيد حسن الانجا بوظيفة قومسيير بوليس طرابلس .

وكان المرحوم عبد القادر باشا المنلا على جانب كبير من كرم الخلق وسماحة النفس ما استعمل نفوذه يوما الا في خدمة الناس وقضاء حاجاتهم .

اما المرحوم الانجا فكان يكن للدولة ولاء عميقا ، وكان بحكم الوظيفة التي يشغلها شديد الوطئة على العابثين بالامن من الاشقياء ، وقد اخرجته شدته هذه عن الحدود المعقولة في معاملة الناس حتى بلغ به الامر في الاستخفاف بالناس حدا عجيبا ، من ذلك انه عندما كان يريد امرا من احدهم يرسل له مع احد خدمه حماره ليكون دليلا على ما يريد ، وما كان على من يرسل اليه الحمار الا الاذعان للامر الذي يتلقاه من الرسول .

وللمرحوم الانجا مع المرحوم جدي واقعتان تدلان بوضوح على نوع تفكيره والطرق التي كان يتبعها في معالجة قضاياه مع الناس .

الواقعة الاولى تتعلق بمشادة حصلت بين المرحوم جدي وبين رئيس دائرة الكرنتينا في ميناء طرابلس وهو رجل اجنبي ، وقد اسمع الرجل جدي كلاما منافيا للآداب ، وما ان بلغت هذه المشادة مسامع المرحوم الانجا حتى ارسل دون علم جدي من اغتال الرجل طعنا بالمدية ، انتقاما لكرامة احد رجال الدين في المدينة .

اما الواقعة الثانية فملخصها ان المرحوم مصطفى باشا الانجا شقيق المرحوم السيد حسن كان اقام يوما وليمة عشاء في داره احتفاء بوالي الولاية لمناسبة زيارته طرابلس ، وكانت ادوات المائدة من ملاعق وشوك وسكاكين من الذهب الخالص ، وكان من الطبيعي ان يستاء جدي الذي كان حاضرا الوليمة من مظاهر البذخ هذه المنافية لتعاليم الدين ، فلفت نظر الوالي في اثناء حديثه معه لهذه الظاهرة وكان بين من سمع حديث جدي من نقله الى المرحوم حسن الانجا الذي استاء من تدخل جدي بشؤونهم الخاصة ، فارسل احد اعوانه عند فجر احد الايام ليكمن امام دار جدي الذي اعتاد في مثل هذا الوقت الخروج لاداء صلاة الصبح في الجامع المنصوري الكبير ، وما ان وطئت قدما جدي باب الدار حتى تقدم منه الرجل وبادره بالقول (ان حسن افندي يهديك السلام) فادرك جدي مغزى هذا السلام فقفل راجعا الى البيت خشية تعرضه لاذى الافندي .

وكان ممن شق عصا الطاعة على المرحوم حسن الانجا المغفور لهم عبد الحليم وعبد الغني وعبد اللطيف الادهمي ، فكان نصيبهم النفي مع افراد عائلاتهم من كبار وصغار ورضع الى عكا وقد بقوا فيها الى ما بعد اعلان الدستور .

وممن اعرفه من رجالات المدينة الذين لعبوا ادوارا بارزة في سياسة البلدة في العقد الاول من القرن المغفور لهم الشيخ حسين الجسر ورشيد كرامي الكبير والد الزعيم المرحوم عبد الحميد وعبد القادر باشا المنلا واحمد اسماعيل المقدم وعبد الحميد الشنبور وعبد الستار علم الدين وجدي الشيخ علي رشيد الميقاتي وشارل كاتسفليس الذي كان يشغل عدة قنصليات للدول الاجنبية وقيصر نحاس والد المرحوم جبران بك النحاس وقد كان يشغل وظيفة ترجمان الدولة وجيوفاني كاتسفليس .

وكان في طرابلس رجال اشداء ، وما اعنيه من كلمة رجال اشداء اولئك الذين عمرت قلوبهم بالجرأة والشجاعة امثال المغفور لهم عماد وكامل المقدم والحاج علي الكيال والحاج محمود منقاره وبشير زيادة ورشيد عوض وعبد اللطيف الادهمي والحاج بديع القصير والحاج علي حرب والحاج مصطفى القلعجية ، وغيرهم ممن لا تعيهم الذاكرة ، وكان هؤلاء الرجال يتعاطون التجارة بالممنوعات كتهريب السلاح والتبغ والتنباك ، وفي تسفير المهاجرين من ابناء البلاد الى افريقيا والاميركيتين ، وكانت المزاحمة فيما بينهم على اشدها ، وغالبا ما كانت تسوى هذه المزاحمة بالحسنى ، وبسعي من السلطة الحكومية ومباركتها احيانا .

وكان من الطبيعي وقوع مناوشات بين بعضهم البعض احيانا ، وبينهم وبين رجال شركة الريجي المسلحين والمولجين بمنع تهريب التنباك احيانا اخرى فكانوا يتجنبون ايقاع اي ضرر جسدي بهم .

ولم يكن التوازن متكافئا بين من عنيت من رجال المدينة الاشداء وبين رجال الدرك والريجي انما كان يسد هذا الفراغ في التوازن امران :

الاول — سطوة الدولة وهيبتها بوجه عام .

الثاني — خلو قلوب رجال المدينة هؤلاء نحو رجال الامن من اية ضغينة ، ايمانا منهم ان ما يقومون به من مطاردة لهم ، يمليه عليهم واجب الوظيفة .

ولا اذكر فيما اذكر ان وقع من قبل رجال المدينة على رجال الامن اي اذى جسدي ، مع قدرتهم على ذلك .

تجمع ابناء الحدادين :

وكانت غالبية رجال السلطة من مدنيين وقضاة وعسكريين على قناعة ضمنية وايجابية بما يقدم عليه هؤلاء الرجال من عمليات التهريب ، وذلك اما لما كانوا يرونه من بعد هذه الاعمال عن المساس بجوهر الامن ، واما لما كانوا يحصلون عليه لقاء تغاضيهم من هدايا وغيرة هم بأمس الحجة لها ، يضاف الى ذلك رضى الراي العام في المدينة عن عمليات التهريب هذه لما توفره لهم من الحصول على هذه المواد واهمها التنباك باسعار رخيصة ، لا سيما وان الرسوم المفروضة على التجارة الشرعية لهذه المواد كانت تعود لصندوق الديون العمومية المترتبة على الدولة للدول الاجنبية ، وكانت كراهية الشعب لهذه الدول بالغة درجتها القصوى ، لصلف رعاياها والدائرين في فلكها من ابناء البلاد .

وكانت الدول الاجنبية وفي مقدمتها روسيا القيصرية والنمسا قد فرضت على الدولة العثمانية في ايام ضعفها عدة امتيازات لممثليها وافراد رعاياها ومن هو مشمول برعايتها من ابناء البلاد ، كما حصرت بعض الرسوم التي تتقاضاها الدولة في صندوق خاص اسمته (صندوق الديون العمومية) خصصت حصيلته لتسديد القروض المترتبة على الدولة لهذه الدول ، وكان من هذه الرسوم واردات ادارة حصر التبغ والتنباك .

وكان من جملة الامتيازات الاجنبية محظورية محاكمة رعايا الدول الاجنبية والمشمولين برعايتها من ابناء البلاد من قبل القضاء الوطني او سجنهم في سجون الدولة ، بل كان يحاكم المجرم الاجنبي في محاكم تشكلها الدولة المنتمي اليها المجرم ، كما كان لهذه الدول سجون خاصة بها لدى ممثليها ، وقد بقيت هذه الامتيازات سارية المفعول الى ما بعد الانتداب الافرنسي اذ ابدلت بها المحاكم المختلطة المشكلة من اعضاء وطنيين وافرنسيين حتى تم الغاء جميع الامتيازات الاجنبية الغاء تاما في مطلع عهد الاستقلال .
ومن جملة الامتيازات الاجنبية انه كان لكل قنصل دائرة بريد للخارج ، وكان من حق من يشاء من الاجانب حتى ومن ابناء البلاد وضع مراسلاته في صناديق البريد هذه دون ان يحق لرجال الحكومة معارضته في ذلك .

وكان من الطبيعي ان يتململ الناس من هذه الامتيازات دون ان يكون في مقدورهم رد اذاها عنهم .

هذا ولم يكن تصدر في طرابلس خلال عهد السلطان عبد الحميد سوى

جريدة اسبوعية تدعى طرابلس لصاحبها المرحوم محمد بك البحيري ، وكان اصداره لها بايعاز المرحوم الشيخ حسين الجسر وترغيبه ، وكانت تقتصر ابحاثها على الشؤون العلمية والاجتماعية ، وكانت هذه الابحاث على جانب كبير من العمق في التفكير والتحليل ، تتصدى لما يكتبه كتاب الغرب وفلاسفتهم في شؤون المعتقدات بحجج دامغة ومفعمة ، وقد انتشرت هذه الجريدة في جميع الاقطار الاسلامية ، وتولى تحريرها بعد وفاة المرحوم الشيخ الجسر ولده المرحوم الشيخ محمد الذي استمر في اصدارها الى حين انتقاله الى بيروت وتعيينه رئيسا لمجلس عموم الولاية كما سيأتي بيانه فيما يلي خلال الحقبة الواقعة بين عام اعلان الدستور عام ١٩٠٨ ونشوب الحرب العمومية الاولى عام ١٩١٤ وفي عام ١٩٣٢ عاد الاستاذ نديم الجسر الى اصدارها حتى تاريخ توليه القضاء الشرعي بطرابلس .

وقبل ان انهي بحثي في الحياة السياسية خلال العقد الاول من القرن العشرين ارى ان من المفيد ذكر اهم التنظيمات الادارية والقضائية التي كانت سارية المفعول خلال هذا العقد .

فمدينة طرابلس كانت مركزا لمتصرفية طرابلس المكونة من اقضية عكار وتلكلخ وصافيتا ، ومديريات طرطوس وحذور والضنية ، وكان في مدينة طرابلس وفي مركز كل قضاء من الاقضية الثلاثة مجالس ادارة مؤلفة من :

المتصرف في المدينة والقائمقام في القضاء — رئيس

القاضي الشرعي — عضو طبيعي دائم

المفتي — عضو طبيعي دائم

المحاسبجي في المدينة ومدير المال في القضاء — عضو طبيعي دائم

مطرانا الطائفتين المسيحيتين الروم الارثوذكس والموارنة عضوان طبيعيان دائمان

عدد معين من الوجوه والاعيان اعضاء منتخبون من قبل هيئات رسمية معينة .

وكان لمجلس ادارة المتصرفية صلاحيات ادارية واسعة يبت بها دون الرجوع الى والي الولاية في بيروت الا في المسائل الهامة .

وكان في مدينة طرابلس ثلاث محاكم هي : الجنايات والحقوق والتجارة .
وكان يتم اختيار اعضاء المحاكم من وجوه المدينة واعيانها بالانتخاب

من قبل هيئات رسمية معينة ، وقد الغيت هذه القاعدة في المدينة بعد اعلان الدستور .

وكان رؤساء الدوائر الادارية والمالية في طرابلس والملحقات يعينون بانهاء من المتصرف وقرار من الوالي ، اما باقي موظفي هذه الدوائر من كتبة وخلافهم ، فكانوا يعينون من قبل المتصرف مباشرة .

اما في الدوائر العدلية ، فكان يتم تعيين رؤساء الاقلام بانهاء من رئيس المحاكم وامر من الوالي ، ويعين الكتبة والمباشرون والحجاب بقرار من قبل هيئة يطلق عليها اسم (انجمن العدلية) وكان الانجمن هذا مكونا من الرئيس والمدعي العام واحد اعضاء المحاكم ، وبعد الغاء قاعدة انتخاب اعضاء المحاكم اصبح تعيين اعضاء المحاكم الطبيعيين بارادة سنية من السلطان ، اما الاعضاء الملازمون فكانوا يعينون بموجب امر من الوالي بعد انهاء من انجمن العدلية الانف الذكر .

وكان رئيس قلم المحكمة في القضاء يعتبر كعضو ملازم يسد الفراغ الذي قد يحصل بنتيجة تغيب احد الاعضاء الطبيعيين .

وكان لكل وظيفة من الوظائف الحكومية راتب شهري محدد لا تلحقه اية ترقية مهما امتدت خدمة الموظف فيها .

والمجالس البلدية في طرابلس والملحقات التي فيها بلديات فكان يتم اختيار اعضائها بالانتخاب المباشر من الشعب ، وكان يشترط في الناخب والمنتخب ان يكونا ممن يدفعون نسبة معينة من الضرائب لصندوق خزانة الدولة ، ومعنى هذا حصر الانتخاب بفئة معينة من المواطنين .

وكانت صلاحيات المجالس البلدية واسعة ، بحيث انها كانت تشمل جميع مرافق الحياة الصحية والعمرانية في النطاق البلدي ، ولم يكن للمتصرف حق التدخل المباشر بشؤون المجلس البلدي الا في حدود المشورة والاستئناس بالرأي ، هذا من الوجهة القانونية ، اما من الوجهة الواقعية ، فكان المجلس البلدي لا يتخذ القرارات الهامة الا بعد حصوله على موافقة المتصرف عليها ، واذا وقع اختلاف في الرأي بين المتصرف والمجلس في احدى الشؤون فكان لقرار والي الولاية في ذلك فصل الخطاب .

ومن المفارقات المضحكة التي اذكرها في مجال الشرط المتعلق بعضوية البلدية ، ان المرحوم الشيخ ياسين الغلاييني وهو من آل الغلاييني الاكارم

كان على جانب من طيبة القلب وخفة الروح ، وقد طمح يوما الى عضوية المجلس البلدي ، وكان يحول دون ذلك فقر حاله ، الا ان اصدقاءه الكثر لم يعجزوا عن ايجاد طريقة تنيله مبتغاه ، فعملوا على توليته احد الاوقاف الذرية الذي يدفع النسبة المطلوبة من الضرائب ، وكان من المفروض حصوله على قرار من محكمة الحقوق بجواز اعتباره بصفته المحكية مستوفيا شروط الانتخاب ، فتقدم بذلك بدعوى الى المحكمة وفي اليوم المعين لجلسة المحاكمة حشد له اصدقاءه جمهورا كبيرا من الناس امام قاعة المحكمة في سراي الحكومة ، بقصد التأثير في هيئة المحكمة باصدار قرارها لصالحه ، ولم تخيب المحكمة رغبة هذا الجمهور الحاشد ، وما ان تلا رئيس المحكمة قراره حتى دوت ساحة التل بهدير اصوات الجماهير بتحية العدل والشيخ ياسين ، وحملوا الشيخ على الاكتاف وطافوا به احياء المدينة مهللين ومكبرين ومهنئين ، وحتى تكتمل فصول هذه المسرحية الهزلية سعى اصدقاء الشيخ لدى المجلس البلدي لتكليفه بمهمة مراقبة المنافذ (اي مجارير المياه القذرة) لقاء تعويض شهري معين كان بحاجة ماسة اليه فقبل رحمه الله هذه المهمة بكل رضى وسرور .

هذا ما كانت عليه الحياة السياسية في المدينة في العقد الاول من القرن العشرين ، ويتبين مما ذكرت كم كانت الحياة هنيئة وسعيدة ومرضية .

فالمتصرف يعاونه فريق من رجال الدين ووجوه المدينة يعملون في السهر على مصالح الناس .

والمحاكم بكامل اعضائها وموظفيها هم من ابناء المدينة المنتخب منهم والمعين .

ورجال الامن على قلة عددهم مهابون ومحترمون من قبل الرجال القبضايات حقا الذين كانت تزخر بهم المدينة .

وكان لعضوية مجلسي الادارة والبلدية اصحابها من وجوه المدينة ، ولوظائف الدوائر الرسمية اربابها من ابناء الاسر الكريمة ذات الدخل المحدود .

اما باقي افراد الناس العاديين فلا اثر او شبه اثر لهم في لحياة السياسية المحلية .

اما المرحلة الثانية منها الممتدة من سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩١٨ فتلخص بما يلي:

ففي عام ١٩٠٨ العام الذي اعلن فيه الدستور من قبل جمعية الاتحاد والترقي ، وعودة الحياة النيابية للوجود ، وخلع السلطان عبد الحميد في عام ١٩٠٩ اثر الفتنة التي دبرها في العاصمة استانبول جماعة السلطان وذهب ضحيتها خطأ من النواب العرب المرحوم الامير محمد ارسلان احد نواب بيروت ، فقد اخذت المصائب تنصب على الدولة انصباب السيل العرم ، وكانت اولى هذه المصائب استيلاء دولة النمسا على مقاطعتي البوسنة والهرسك ، فقامت التظاهرات الصاخبة في طول البلاد العثمانية وعرضها ، واخذت الجماهير الغاضبة في طرابلس وباقي المدن تنزع الطرابيش التي تعتمر بها وهي من صنع نمساوي وبعد ان تمزقها تلقيها ارضا وتدوس عليها بالاقدام ، وتعتمر بدلا عنها اغطية رأس من اللباد الابيض ، ومن الامور المضحكة والمبكية في آن معا ما شاهدته في الاجتماع الحاشد الذي عقد في مسرح زهرة الفيحاء ، من وقوف المغفور له الشيخ ابراهيم حرب خطيبا وقد احضر معه رسما فوتوغرافيا لامبراطور النمسا فرنسوا جوزيف وضعه امامه على منصة الخطابة ، وبعد ان ندد بعبارات حماسية قاسية بما فعلته النمسا استل من وسطه خنجرا حز به رأس الامبراطور ورماه ارضا ، فعلت الهتافات من الناس بالاستحسان لما اقدم عليه الخطيب من جسارة فائقة ورفعوه على الاكتاف وساروا به في شارع التل مهللين مكبرين ، وكانت حصيلة هذه القضية ان خسر الناس ثمن طرابيشهم دون ان يلحق بالنمسا اية خسارة ، بل على العكس فانها قد ربحت ثمن الطرابيش التي اخذ الناس يشترونها بعد فترة من هدوء ثورتهم .

ومن هذه المصائب المتلاحقة التي حلت بالبلاد خلال مدة وجيزة من الزمن وقوع حرب الروملي ووصول جحافل جيوش دول البلقان الحليفة وهي بلغاريا والجبل الاسود ورومانيا واليونان الى مشارف دار الخلافة استانبول ، وانتهاء هذه الحرب بانسلاخ ولايات الدولة في الروملي باستثناء ولاية ادرنة عن جسم الدولة واقتسامها فيما بين الدول ، ومن ثم استيلاء دولة ايطاليا على ولاية طرابلس الغرب ، واعلان استقلال خديوية مصر بعد ان كانت تحت الحكم العثماني ، وقد جرى كل ذلك خلال مدة لا تتجاوز الاربع سنوات ، فاصبح الناس بعد هذه الضربات المتلاحقة في حالة زهول والم ، واخذ الشعراء الاتراك ينظمون الاناشيد الحزينة ويعممونها على المدارس لينشدها التلاميذ في الاحتفالات الرسمية ، واني ما زلت اذكر ما جاء في بعض هذه الاناشيد التي تصور الحالة التعيسة التي وصلت اليها الدولة من الانحطاط اصدق تصوير .

فهناك نشيد يقول ما ترجمته :

ايها التركي المعصوم   احفظ على ظهر قلبك هذا التاريخ
في عام ١٣٢٨   لطخ الشرف التركي بالعار
اوف اوف الى الانتقام   آه آه الى الانتقام

وآخر يقول :

كان للروملي جبال   كم كانت جميلة وهي تبكي الآن
المنشدون التزموا السكوت   والجميع يصعدون الزفرات بصمت

وغيرها وغيرها من الاناشيد الحزينة .

ومن المفارقات الجديرة بالذكر ، ان اساتذتنا في المدرسة السلطانية المغفور لهما المدير عبد الرحمن السفرجلاني واستاذ الطبيعيات عزت المقدم ، واستاذ اللغة الافرنسية السيد رفيق الفتال امد الله بحياته ، كانوا من الوطنيين العروبيين الاحرار ، وكانوا يبثون فينا الروح الوطنية العربية ، وكانت تعترينا الانفة من انشاد الاناشيد التركية ، وكنا عندما تدعى المدرسة الى الحفلات الرسمية ، نسير من باب المدرسة (وهي مدرسة الفرير حاليا التي استولى عليها الترك في اثناء الحرب العمومية الاولى) منشدين نشيد المنتدى الادبي العربي الذي اسسه رجالات العرب في استانبول والذي يقول :

هبوا على الشهب العتاق   قد دقت الطبول
واشهروا البيض الرقاق   وودعوا الطلول
هذه العزارى راكبة   في جمعنا تسير
يا سيف سلمى ظمأ   وللوغى تشير
يا ايها العرب الكرام   سيروا الى الامام
ولا تعودوا للخيام   او تبلغوا المرام

وكان في جملة نشاط التوعية الذي بثه فينا هؤلاء الاساتذة ان حضروا فريقا من التلامذة وكنت احدهم لتمثيل رواية (فتح الاندلس) وقد تم تنفيذ الفكرة بعد ان مانعها المتصرف وقتذاك المرحوم رشيد بك طليع وذلك بتأثير المغفور له الشهيد عبد الوهاب بك الانكليزي وقد كان يشغل وظيفة مفتش الملكية في ولاية بيروت الذي اصر على المتصرف بالسماح بتمثيل الرواية ، وبعد ايام قلائل من ذاك التاريخ احيل الانكليزي للديوان العرفي في عاليه وحكم عليه بالاعدام ، كما احيل اساتذتنا بدورهم الى الديوان العربي المذكور ولكن لطف الله بهم ولم ينلهم اي سوء .

وكان من الطبيعي بعد اعلان الدستور واطلاق حرية الرأي والنشر ان يكثر في المدينة عدد الصحف والمجلات .

ففي العهد العثماني بين عامي ١٩٠٨—١٩١٤ صدر في طرابلس بالاضافة الى جريدة طرابلس الجريدة الوحيدة التي كانت تصدر في العهد الحميدي ، الجرائد والمجلات التالية :

جريدة البرهان : اسبوعية لصاحبها المرحوم العلامة الشيخ عبد القادر المغربي وكانت تشايع الاتحاديين وتدعو الى الاصلاح الديني وتحرير المرأة ، فراجت رواجا كبيرا في جميع البلاد .
وبقي الاستاذ المغربي يصدر جريدته هذه الى عام ١٩١٥ حين استدعاه قائد الجيش الرابع في دمشق احمد جمال باشا لتولي رياسة تحرير جريدة (الشرق) التي اصدرها وقتئذ .

جريدة الحوادث : اسبوعية لصاحبها المرحوم لطف الله خلاط ، وكانت نزعتها وطنية وقد نفته السلطة التركية الى الاناضول لعدم رضاها عن خطة الجريدة .

جريدة الرغائب : اسبوعية لصاحبها المغفور له حكمت شريف بك ، وكان يدافع فيها عن الاصلاح وعن حزب الاتحاد والترقي ، وقد احتجبت عن الصدور في اثناء الحرب العمومية الاولى .

جريدة المدلل : اسبوعية هزلية لصاحبها المرحوم الشيخ منير الملك ، وقد تصدى فيها رحمه الله لاراء المرحوم المغربي الاصلاحية في جريدته البرهان ..

جريدة الوجدان : اسبوعية لصاحبها المرحوم الاستاذ سامي صادق ، كانت وطنية النزعة تقدمية في مخططها .

وكان تأسس في المدينة فرع لجمعية الاتحاد والترقي تولى رياسته المرحوم فؤاد عمر المنلا ضم نخبة من الشباب المتحمسين ، اخذوا على عاتقهم توعية الجماهير الى واقع البلاد الاليم ، واول اجراء فعال باشروه هو تطهير دوائر الحكومة من الموظفين المرتشين وغير المرغوب فيهم ، اذ كان يكفي ان يدخل العضو المفوض من الجمعية دائرة ما من الدوائر الرسمية ، ويشير بشاهد يده الى موظف من موظفيها حتى يشعر هذا الموظف بانتهاء عمله فيترك مركزه ويذهب الى بيته متواريا عن الانظار فيه ، وقد تم هذا التطهير وملئت المراكز

الشاغرة الناتجة عنه بالمؤيدين للجمعية خلال مدة وجيزة لا تتعدى الاسبوع ، دون ان يترك هذا التدبير اي مفعول عكسي .

وقد رافق ظهور جمعية الاتحاد والترقي المؤثر الوحيد في اعلان الدستور ، ظهور جمعية اخرى هي جمعية الائتلاف العثماني ، وكان من المعروف عن هاتين الجمعيتين ان الاولى ذات ميول تقدمية بعد ان جعلت شعارها (حرية — مساواة — اخاء) وان الثانية ذات ميول محافظة ، ولكن ما تبين للناس بعد قليل ، هو ان الاولى تمثل العنصرية التركية الطورانية بأبشع مظاهرها ، وان الثانية تمثل فكرة الجامعة الاسلامية التي وضع اسسها السلطان عبد الحميد اثناء حكمه .

كما ظهر على المسرح السياسي ردا على موقف رجال الاتحاد والترقي فريق من رجالات العرب اخذوا يطالبون بانصاف البلاد العربية ، واشراك ابنائها بحكم البلاد ، وجعل اللغة العربية لغة دواوين الحكومة والمدارس الرسمية .

وقام بعض شباب العرب الذين يتلقون العلم في معاهد استانبول العالية بتأسيس ناد لهم في قلب العاصمة اذكر منهم المغفور لهم عبد الستار السندروسي ومصطفى سعدي الملا ومصطفى عادل الهندي والدكتور حسن رعد وعزت المقدم وعمر زكي الافيوني اسموه (المنتدى الادبي العربي) كما قاموا بتأسيس فرع له بطرابلس انضم الى عضويته العديد من طلاب المدارس ما لبث هذا الفرع ان اغلق ابوابه في عام ١٩١٤ اثر دخول الدولة الحرب العمومية الاولى ، والتحاق معظم اعضائه بالتجنيد العام .

كان مثل الناس جميع الناس اثر اعلان الدستور واطلاق حرية القول والنشر ، كمثل انسان افاق على الحياة اثر نوم طويل وعميق ، او كمثل اسد هائج انفك من محبسه بعد اسر مرير .

وكانت توعية الجماهير تتم بالخطب الرنانة التي كان يلقيها المتضررون من الحكم البائد في الاجتماعات العامة التي كان يعقدها اعضاء جمعية الاتحاد والترقي في مقهى التل العالي او في ساحة التل امام سراي الحكومة ، وكان اجرأ هؤلاء الخطباء وافصحهم كلاما وادمغهم حجة المرحوم عبد الغني الادهمي والد الصديق محمود صاحب جريدة الانشاء ، اذ كان لكلامه وقع السحر في النفوس ، ومما اذكره من مواقفه ما وقع في اجتماع عام عقد في مقهى التل تعاقب فيه الخطباء في بيان مساوىء العهد البائد ، وكان منهم خطيب عرف

على ما يظهر بالتلون في مواقفه استهل خطابه بقول الحجاج مخاطبا اهل العراق :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

فما كان من المرحوم الادهمي الا وان قاطعه بقوله ان هذا البيت لرجل عرف بمضاء العزيمة وشدة الشكيمة وما هو مثلك وانت من شطح وبطح و و و .... من كلمات الهجاء المقذع الامر الذي ادى بالخطيب المسكين الى ترك موقفه متواريا عن الانظار .

وكان المرحوم الادهمي على الرغم من شدة حملاته على المنحرفين ولو كانوا من اكابر القضاة والموظفين رقيق الجانب ، حلو المعشر ، سخي اليد ، وفيا لاصدقائه ، لا تأخذه في الحق لومة لائم .

وفي عام ١٩١٣ عقد رجالات العرب ومفكروهم في باريس مؤتمرا عربيا برياسة المرحوم عبد الحميد الزهاوي كان من اهم مقرراته وجوب جعل اللغة العربية اللغة الرسمية في الولايات العربية ، وان يكون للعرب خمسة ولاة من مجموع الولايات العثمانية ، وثلاثة وزراء عرب في التمثيل الحكومي ، غير ان هذه المقررات لم تجد من الحكومة العثمانية الا التسويف والمماطلة والخداع .

وقد اصبح الناس في المدينة اثر الهزائم التي منيت بها الدولة في حروبها مع ايطاليا ودول البلقان ، يتتبعون الاحداث بعيون حائرة وقلوب واجفة ، ومن الامور اللافتة للنظر ان اغلبية علماء الدين والوجوه حتى وعامة الناس لم يكونوا مرتاحين لخلع السلطان عبد الحميد ، الممثل لفكرة الجامعة الاسلامية بصفته خليفة المسلمين ، وبالاستناد الى ما ذكر يمكننا تلخيص وضع المدينة السياسي في ذاك الحين بما يلي :

— السواد الاعظم من الطرابلسيين يتبنون فكرة الجامعة الاسلامية التي اطلقتها جمعية الائتلاف وان لم يكونوا منتسبين لعضويتها .

— فريق من الشباب المتحمس ومن نكب في العهد الحميدي ، يتبنون الافكار التقدمية التي اطلقتها جمعية الاتحاد والترقي ، قبل ظهور نواياها العنصرية الطورانية .

— قلة من الشباب المتعلم المنتسبين للمنتدى الادبي العربي ، او المتشيعين له من الطلاب ينتحلون فكرة استقلال البلاد العربية عن جسم الدولة العثمانية .

فغي هذا الجو المحموم جرت الانتخابات النيابية الاولى لمجلس النواب العثماني في عام ١٩٠٨ وكان لها في طرابلس مرشحان اثنان هما الشيخ محمد الجسر المنتمي لجمعية الائتلاف وفؤاد خلوصي التركي الاصل المنتمي لجمعية الاتحاد والترقي ابن استاذ التاريخ في المدرسة الاعدادية المرحوم احمد خلوصي ، وكان من الطبيعي ان يلعب الاتحاديون لعبتهم في انجاح مرشحهم فؤاد خلوصي ، وكان هذا النجاح لعبة مكشوفة بالنسبة للرأي العام الطرابلسي اذ لم يكن من المعقول ان يفضل الطرابلسيون الغريب المغمور على القريب المشهور .

ولم تلن قناة الشيخ الجسر لهذا الاخفاق ، فقام بحملة شديدة في جريدة طرابلس التي كان يرأس تحريرها بعد وفاة المرحوم والده ضد الاتحاديين ازعجت الحاكمين واقضت مضاجعهم .

وقد تعين بعد الانتخابات النيابية الاولى متصرفا لطرابلس المرحوم عزمي بك الشهير وكان ماضي العزيمة عالي الهمة عمرانيا من الطراز الاول ، ومع انه من الاتحاديين الاقحاح ، الا انـــه كان يتحلى بالانصاف ، والاستقامة المتناهية ، والنزاهة ، وبعد النظر فقدره الطرابلسيون واحبوه ، وقد قام في اثناء توليه متصرفية طرابلس بعدة انجازات عمرانية مهمـــة ، منها انشاء مستشفى حكومي على رابية جميلة من روابي ابي سمراء ، امّن اكلاف بنائه من حصيلة واردات سبق الخيل الذي اجراه في منبسط موقع البحصاص ، ومما اذكره انه عرض على الجمهور المحتشد في حلبة السبق ، بالمزاد العلني رسما فوتوغرافيا للمرحوم السلطان محمد رشاد رسي مزاده على المرحوم علي باشا المحمد بمبلغ خمسماية ليرة عثمانية ، مضيفا اليه مبلغ ماية ليرة عثمانية ليقوم المتصرف بتعليق الصورة بيده في بهو بيته ، والواقع ان عزمي بك قد احب طرابلس حبا جما فامر بعد تعيينه واليا لولاية بيروت ، في اثناء الزيارة التفقدية التي قام بها لطرابلس بفتح الطريق المعروفة اليوم باسمه الممتدة من التل حتى محطة الخط الحديدي وتنفيذا لهذا المشروع استدعى المعلم جرجي الخرياطي ،وهو معلم بناء كان يشغل وظيفة مدرب في البلدية ، اذ لم يكن في طرابلس كلها مهندس بالمعنى الحقيقي للكلمة ، واصطحبه معه الى مقهى التل العالي ، واشار له بيده الى المكان الذي يبدأ منه في شق الطريق والمكان الذي تنتهي اليه ، وهكذا وبكل بساطة بدأ المعلم خرياطي في اليـــوم الثاني لتلقيه الامر بالتنفيذ ، ولم يستغرق العمل الا اياما معدودات ، وكانت لعنات اصحاب البساتين تنصب على الوالي ، دون ان يتجاسر احد منهم باعلان سخطه ، ومن المضحك ان عملية الطريق هذه كانت منبع ثروة ضخمة لاصحاب البساتين ، بعد انتهاء الحرب ، وبدء التوسع العمراني في المدينة .

وبحلول موعد الانتخابات الثانية في عام ١٩١٢ درس المتصرف الجديد راغب بك اوضاع المرشحين للنيابة ، واجرى مقابلة مع الشيخ محمد الجسر خرج بنتيجتها على قناعة بوجهة نظر الشيخ ، الا ان ما يعيق نجاحه بالنيابة هو موقفه السلبي من جمعية الاتحاد والترقي ، فسعى لاقناعه بالانخراط في عضوية الجمعية ليسهل عليه اقناع السلطة المركزية بقبول ترشيحه فرفض ذلك باصرار ، وبعد وساطات عدة جرت مع الشيخ قبل بتمثيل الجناح المعتدل في الجمعية تحت شعار (الاتحاد الحقيقي) وعلى هذا فقد فاز بالنيابة بما يشبه الاجماع هو والمرحوم سعد الله الملا ممثلين لطرابلس ، والمرحوم عثمان باشا المحمد ممثلا لقضاء عكار .

ومن اهم الاحداث التي وقعت في المدينة خلال هذه الفترة هو وفاة مفتي طرابلس المغفور له رشيد مصطفى كرامي الكبير ، وكان من المفروض انتخاب احد العلماء الذين كانت تعج بهم المدينة خلفا له ، الا ان نائبي طرابلس المغفور لهما الجسر والملا يشايعهما الكثير من وجوه المدينة حتى وبعض علمائها كانوا يرون بمركز الافتاء الرفيع مركزا تمثيليا دنيويا للمسلمين ، اكثر من كونه مركزا دينيا ، وان الشخص المرغوب فيه لهذا المركز هو من تجتمع فيه او في اسرته صفات الماضي الديني التليد والحاضر الدنيوي المجيد .

ولم يكن في المدينة من تجتمع فيه هذه الصفات سوى نجل المفتي الراحل المرحوم عبد الحميد ، اذ انه بالاضافة الى كونه من بيت افتاء ابا عن جد وقد عرف اباؤه بالخلق الرفيع والتمسك باهداب الدين الحنيف ، يملك ثروة ضخمة تمكنه من الظهور بالمظهر اللائق بمركز الافتاء ، ولم يكن فيه ما يعاب سوى حداثة السن ، اذ لم يكن عمره يومئذ يتجاوز السبعة عشر ربيعا ، وهكذا فقد نال اكثرية اصوات العلماء والوجوه المطلقة ليكون مفتيا للمدينة ، وقد اقترن هذا الاختيار بموافقة المشيخة الاسلامية ، وصدور فرمان الذات الشاهانية بذلـــك .

وكان المفتي الجديد عند حسن ظن مريديه ، اذ ما كاد يتبوء مركزه السامي حتى اخذ يتقبل مراجعات المراجعين بوجه صبوح وابتسامة لا تفارق ثغره ويعمل على تلبيتها ، وقد زادت خدماته وتضاعفت في اثناء الحرب العمومية الاولى التي اندلعت نارها في عام ١٩١٤ الامر الذي اوجد له في جميع احياء المدينة رجالا مخلصين يتفانون في حبه وخدمة مقاصده حتى الموت .

وبينما كانت المدينة تحتفل كعادتها بليالي شهر رمضان المبارك من عام ١٩١٤ اذ فوجئوا بملصوقات على جدران الشوارع والاحياء تعلن النفير العام

في البلاد ، وتدعو المواطنين الى حمل السلاح كجنود لحماية الوطـن ، واذ بالمدينة تصبح بعد هذا الاعلان كخلية نحل ، واقبل الشباب على الالتحـاق بقطعاتهم العسكرية اقبالا شديدا ، حتى خلت المدينة بين ليلة وضحاها منهم ، وقد اخذ هذا الفراغ يتزايد سنة بعد سنة ، حتى اصبح من النادر ان ترى في عام ١٩١٧ شابا يجول في الاسواق الا من كان منهم في اجازة رسمية .

وقد استشرى الغلاء في المدينة خلال سني الحرب الاربع بشكل جنوني حتى بيع شنبل الحنطة بعشرين ليرة عثمانية ذهبا ، وفقد من الاسواق التجارية فقدانا تاما الارز والسكر والكاز وسواها من الحاجات المعيشية الضرورية ، وغصت المدينة بالنازحين من قرى الجبل طلبا للقمة العيش العزيزة المنال ، وامتلأت الشوارع بالاموات جوعا ، ووصلت المجاعة بالناس الى حد خطف الاولاد الصغار من الطرقات وذبحهم وطهي لحومهم ليقتاتوا بها ، كما تفشت الامراض واهمها خطرا حمى التيفوس ، التي ما كانت تمهل المصاب بها الا اياما معدودات يلاقي بعدها حتفه المحتم .

وسقطت قيمة العملة الورقية التي اصدرتها الدولة الى الخمس وما كان الحكام يقبلون بهذا التخفيض ، وكان من يجرأ على عدم اعتبار الليرة الورقية كالليرة الذهبية في تعامله التجاري ينفى الى بلاد الاناضول وممن اعرف انه نفي لهذا السبب الحاج محمود البارودي التاجر الطرابلسي المعروف رحمه الله .

ومما زاد الطين بلة ، اعلان الاحكام العرفية في البلاد ، وسوق السفاح جمال باشا قائد الجيش العثماني والحاكم المطلق في البلاد العربية ، خيرة رجالات العرب الذين لم يتمكنوا من الهرب للخارج الى اعواد المشانق ، وقـد حمى الله تعالى الكثير من وجوه المدينة من هذا المصير بفضل حماية والي بيروت آنذاك المرحوم عزمي بك لهم ، لما كانت تربطه بهم من روابط المحبة والمودة في اثناء وجوده متصرفا في طرابلس .

وقد تعطل النشاط السياسي طيلة ايام الحرب بسبب الاحكام العرفية المعلنة والخوف من بطش جمال باشا .

وبسبب معارضة الشيخ محمد الجسر للاتحاديين وتشهيره بهم في جريدة طرابلس كما ذكرنا استدعي يوما الى مواجهة الوالي في بيروت بعد فض مجلس النواب ورجوعه الى بلده ، فشعر بقرب انتهاء الاجل فودع اهله واصدقاءه وداع من لا يرجو لقاء بعده ، وشخص الى بيروت لمواجهة الوالي الذي عوضا عن ان يرسله الى المشنقة اصدر امره بتعيينه نائبا له في مجلس الولاية الذي كان بمثابة برلمان مصغر .

اما المرحلة الثالثة والاخيرة من رسالتي هذه فتشتمل على المدة الممتدة من تاريخ جلاء الاتراك ودخول الجيوش الحليفة الى البلاد في عام ١٩١٨ حتى نهاية النصف الاول من القرن العشرين ، وما وقع خلال هذه المدة من احداث جسام ، راويا وقائعها بتسلسل وقوعها .

اسبوع من الاستقلال العربي الناجز :

لقد اطلق المؤرخون على الاسبوع الذي انقضى بين جلاء الجيش التركي ودخول جيش الحلفاء الى البلاد (بالثمانية ايام من الاستقلال العربي الناجز) ، ففي هذا الاسبوع تولى الحكم في دمشق الامير سعيد الجزائري نيابة عن قائد الحملة العربية الامير المرحوم فيصل الذي تأخر بعض الوقت عن دخول دمشق ، وقد اخذ الامير سعيد يرسل البرقية تلو البرقية الى المدن السورية واللبنانية معلنا فيها استقلال البلاد العربية بزعامة ملك العرب الملك حسين بن علي الهاشمي ، وقد جاء في احدى برقياته ما نصه : (الجيوش العربية قد ملأت السهل والجبل ، اريقوا الدماء ولكن بعدل) ، كما جاء في برقيات اخرى اختياره المرحوم رضا باشا الركابي لحاكمية بيروت والمرحوم سعد الله بك المنلا لحاكمية طرابلس ، الا ان البرقيتين المذكورتين قد اهملتا فاختار البيروتيون المرحوم عمر بك الداعوق لحاكمية بيروت كما اختار الطرابلسيون في اجتماع عقده وجوه المدينة في بيت المرحوم محمد البحيري المفتي عبد الحميد كرامـي رحمه الله لحاكمية المدينة .

وقد استقبلت الجماهير المحتشدة خارج بيت البحيري هـذا الاختيار بالتهليل والتكبير ، وانتقلوا بالحاكم العربي الجديد الى سراي الحكومة حيث تسلم من وكيل المتصرف المرحوم عبد اللطيف سلطان مدير قلم التحريرات العلم العربي ، ورفعه بيده على سارية السراي ، والناس في اشد الحماسة وكأنهم في حلم من هذا المنظر البهيج .

وقد ساد الاعتقاد بين جميع الناس على مختلف مستوياتهم بولادة الدولة العربية التي وعد بها الحلفاء الملك حسين اثر اعلانه ثورته المعلومة على الحكم التركي الجائر ، وتعبيرا عن هذا الاعتقاد وترحيبا به كان الشباب ينطلقون في المظاهرات اليومية في شوارع المدينة مرددين النشيد الوطني الذي نظمه لهم الشاعر المرحوم الشيخ عبد الله المؤذن وهو :

يا بني الاوطان ان العربي مجده حلق فوق الشهب
قد ارى الاعداء سيفا لامعا خط في الهامات سطر العجب

★ ★ ★

قضى الامر وقامت للحسين دولة لبت صحيح النسبين
فاهتفوا يا قوم بين الثقلين ليعش هذا المليك العربي

★ ★ ★

هللوا والمجد منهم كبرا ملوءا الافاق عربا عسكرا
زحفوا توا كآساد الثرى بسلاح الحق لا بالقضب

ايها القائد يا فخر العرب (١) نحن ابناء وانتم خير اب
نحن في ايديك سيف مغمد ان تشأ جرده باسم العرب

وكان آخرون ينشدون النشيد التالي لاحد شعراء الثورة العربية :

ايها المولى العظيم (٢) فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم ملك جدك النبي
لم نعد في ذا الزمان امة مستعبدة
كيف يجدينا التواني والليالي مسعدة
ان نعش عشنا كراما او نمت متنى كرام
همنا نردى اللئاما همنا نردى اللئاما

وفي ليل التاسع من ايام الاستقلال الناجز سمعنا ونحن في بيوتنا جلبة وضوضاء على طريق بيروت الدولية عرفنا منها دخول الجيوش البريطانية الى طرابلس ، وفي الصباح الباكر هرعنا الى التل فوجدنا ارضه الفسيحة ملأى بمخيمات الضباط البريطانيين وشاهدنا هؤلاء الضباط جالسين في خارج المخيمات على مقاعد وطاولات نقالة يتناولون طعام الافطار المكون من البيض والجبن ومختلف انواع المربيات المعلبة ، فراق لنا المنظر ، لا سيما وكان قد مر علينا اربع سنوات لم نذق خلالها المربيات المعلبة ، وعلمنا أن الطريق من بيروت حتى حمص مرورا بطرابلس قد خيم على جانبيها الجنود الاستراليون والهنود

---

(١) الامير فيصل .

(٢) الملك حسين .

والبريطانيون ، مع قوافل امتعتهم المحملة على الجمال التي يقودها عمال مصريون .

واتخذت القيادة البريطانية احدى الدور في محلة البوابة في الميناء مركزا لها ، كما دخل المدينة مفارز قليلة من الجيش الافرنسي شغل قائدها القومندان (دي لاروشن) سراي الحكومة ، وكان اول اجراء اتخذه هذا القائد انزال العلم العربي عن سارية السراي ، كما رفع فوق بابها يافطة مكتوب عليها بالعربية والافرنسية العبارة التالية (بلاد العدو المحتلة الحاكم العسكري) وكان الجنود الافرنسيون لا يختلفون عن الجنود الاتراك لا في الملبس ولا في المأكل فالبستهم مهلهلة واطعمتهم يتناولونها بالقروانة (السطول) .

وكانت المدينة فارغة من كل شيء ، فانتهز العمال المصريون الفرصة السانحة بالتعاون مع الجنود الاستراليين ، واخذوا يزودون الطرابلسيين ، بما يحتاجون اليه من مأكل وملبس ، وهكذا امتلأت البيوت بالسكر والمعلبات المحفوظة على انواعها وحصل كل الناس على اجود الاقمشة والالبسة الصوفية الداخلية والانكليزية من مؤن الجيش البريطاني .

ومن اطرف الحوادث التي وقعت وكنا شهودها ، ان العمال المصريين كانوا ينشدون في اثناء قيادتهم لجمال الحملة اذ كانت السيارات نادرة الوجود مختلف الاناشيد المرحة ومنهم من كان في اثناء سيره يلعن الانكليز علنا ، وكان الضباط يعرفون ذلك دون ان يبدر منهم اي حنق او غضب مكتفين بان هؤلاء المصريين يقودون الجمال بشكل حسن .

وكان لمظاهر الجيش البريطاني الفخمة والجيش الافرنسي المتواضعة اكبر الاثر في نفوس الناس من حيث الاحترام للبريطانيين ، والاستخفاف بل والمقت للافرنسيين .

وقد نجح القائد البريطاني في المدينة في ان يجعل الاوساط الطرابلسية تعتقد ان الجيش البريطاني الحليف القوي والمخلص لملك العرب الحسين ، حتى وصل به الامر لاقناع الحاكم الوطني المرحوم كرامي نفسه بهذا الامر وكان يحثه على معارضة الحاكم العسكري الافرنسي مشيرا الى ان ايام الافرنسيين في البلاد هي ايام معدودة .

ولم يكن احد من قادة الرأي العام في البلدة في ذاك الحين على علم بمعاهدة (ساكس بيكو) التي قسمت البلاد العربية الى مناطق نفوذ بين الدولتين العظمتين انكلترا وفرنسا الا القليل النادر .

وكان الحكام العسكريون الافرنسيون المتعاقبون على الحكم قبل اعلان الانتداب ، قصار النظر وعلى جهل تام بالحساسيات الدينية في المدينة ، فملئوا المراكز الحكومية الرئيسية باشخاص غير مرغوب بهم وكلهم من غير ابناء المدينة ، وكان هؤلاء الموظفون يسعون الى توسيع شقة الخلاف بين زعيم طرابلس المغفور له عبد الحميد كرامي وبين صانعيهم الافرنسيون ، بحيث لم يعد من مجال لرتق الخرق بينهما .

وكانت طرابلس بأعيانها ومثقفيها وشيبها وشبابها وكبارها وصغارها تقر مواقف الزعيم كرامي في مناوئته للافرنسيين .

وكان الرئيس ولسن قد ارسل الى البلاد العربية قبل بحث مصيرها في جامعة الامم لجنة لتقصي الحقائق عرفت باسم لجنة (كرايين) وقد جاءت هذه اللجنة الى طرابلس واستمعت الى آراء رجالاتها ، وكان يوم حضورها يوما مشهودا لم تر طرابلس مثله في تاريخها البعيد والقريب ، اذ بلغ الازدحام اشده ، امام سراي الحكومة ، ولم يتمكن الزعيم كرامي ورفاقه من تخطي الناس الا على اكتافهم لكثافة الصفوف المتراصة ، وكان مطلب الزعيم كرامي الذي تكلم باسم طرابلس الاستقلال التام وان لم يكن ممكنا فالانتداب الاميركي او الانكليزي ، ورفض رفضا باتا الانتداب الافرنسي ، واخبرني احد المطلعين وقتئذ على اسرار الامور ان للافرنسيين ضلعا بطريقة غير مباشرة في جعل الوطنيين يقبلون بمبدأ الانتداب ، وسواء صح هذا الخبر او لم يصح ، فالحقيقة الثابتة هي ان احدا لم يكن في وسعه تحدي مشيئة انكلترا وفرنسا اذ كانتا في اوج عظمتهما .

وقد بلغ الحمق بالافرنسيين بعد مواقف الزعيم كرامي الوطنية الصلبة ان اقصوه عن حاكمية المدينة ومن ثم عن مركزه الديني الرفيع الافتاء متحدين في ذلك شعور المسلمين ، وقد جاءت نتيجة تصرفهم الاخرق هذا على عكس ما ارادوا اذ ازداد بهذا التحدي نفوذه ليس في طرابلس فحسب بل تعداه الى سائر البلاد العربية كما سيأتي بيانه .

وفي اثناء ذلك صدرت عدة صحف مختلفة الانتماء منها المناوىء للافرنسيين كجريدتي الصباح لصاحبها المرحوم سليم غنطوس وصدى الشعب للامير المرحوم اسعد الايوبي ، ولم تكن من جريدة تناصر الافرنسيين سوى جريدة الرقيب لصاحبها المرحوم اسكندر نصر ، ثم صدر بعد ذلك على التوالي عدة صحف اسبوعية منها صوت الفيحاء لصاحبها الاستاذ رهيف الحاج والحضارة للاستاذين انور عدره ورياض الدبليز والرائد لمؤسسها المرحوم جبر جوهر

وجريدة الشباب لصاحبها المرحوم سميح القصير وصدى الشمال لمؤسسها المرحوم فريد انطون ، والتمدن لصاحبها الاستاذ سليم المجدوب ، وقد صدر في طرابلس جريدتان يوميتان الاولى جريدة الاخبار للاستاذ ياسر الادهمي ، وقد احتجبت بعد دخول صاحبها في سلك الوظائف الرسمية والثانية الانشاء لصاحبها الاستاذ محمود الادهمي التي ما زالت تصدر حتى يومنا هذا .

وتعلق الطرابلسيون بالامير فيصل بعد دخوله الشام تعلقا شديدا معتبرينه خشبة الخلاص في انقاذهم من الافرنسيين ، لا سيما بعد اعلان ملكيته على سوريا ، وكان هدف الطرابلسيين الوحيد الالتحاق بسوريا وانكروا لبنانيتهم واصروا على ازالة العبارة التي تشير الى ذلك من تذاكر هويتهم ووفقوا في ذلك ، ومر الامير فيصل في احدى سفراته الى مؤتمر السلام بطرابلس وحل ضيفا على الزعيم كرامي ، فاستقبله الطرابلسيون استقبالا عظيما حاكوا به استقبال الانصار لجده الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يوم قدومه للمدينة المنورة وكان الناس ينشدون في خارج دار كرامي وعلى مسمع من الامير نشيد الانصار المعروف :

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
ايها المبعوث فينا   جئت بالامر المطاع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

وغيره من الاناشيد الوطنية والتاريخية .

وبقي الطرابلسيون على اختلاف طبقاتهم براي واحد هو عدم قبول الانتداب الافرنسي ، ورغبة الالتحاق بسوريا ، الا ان غموض موقف الملك فيصل بامر الحاق طرابلس بسوريا حمل بعض وجوه المدينة على التوجه الى دمشق وفوداً وافراداً لجلاء هذا الامر ، وكان منهم المغفور له سعد الله بك المنلا الذي حظي بمقابلة الملك فيصل على انفراد واستوضحه حقيقة الوضع لتأخذ طرابلس الموقف المتفق مع مصالحها ، فكانت اجابات الملك له مبهمة خرج منها بانطباع عجز الملك عن فك رموز هذه الشؤون .

وقد بدأت الصورة في اثناء ذلك تتضح للرأي العام الطرابلسي شيئا فشيئا ، وكانت كلها نذير شؤم لما اظهرته من النيات السيئة المبيتة للبلاد من قبل الحليفتين انكلترا وفرنسا ولما وقع في اثناء ذلك من احداث فالصورة التي اكتملت وضوحا هي التالي :

— وعد بلفور لليهود بانشاء وطن قومي لهم في فلسطين .

— تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ للدولتين المنتصرتين انكلترا وفرنسا تحت ستار الانتداب ، واخلال انكلترا بعهودها للملك حسين .

— قرار جامعة الامم بانتداب فرنسا لتدريب ابناء سوريا ولبنان على الحكم الذاتي وانتداب انكلترا للغرض نفسه في العراق وفلسطين .

— انسحاب الجيش البريطاني من سوريا ولبنان .

— تعيين الجنرال غورو مفوضا ساميا على سوريا ولبنان وكليكيا .

— انسحاب الملك فيصل من سوريا ودخول الجنود الافرنسيين دمشق بعد حرب قصيرة استشهد خلالها في ميسلون وزير الحربية البطل الخالد يوسف العضمة .

— اعلان الجنرال غورو في عام ١٩٢٠ استقلال لبنان الكبير بحدوده الطبيعية ومدنه الرئيسية بيروت وطرابلس وصيدا وصور والاقضية الاربعة وتعينه القومندان ترابو حاكما على لبنان ، وتأليفه لجنة ادارية حلت محل مجلس الادارة يمثل فيها طرابلس المغفور له الحاج عثمان علم الدين .

وكان الزعيم كرامي خلال مدة السنوات الاربع الواقعة بين دخول الجيوش الحليفة الى البلاد وبين اعلان لبنان الكبير ، قد ارسى قواعد زعامته في طرابلس على اسس متينة متراصة من الجماهير الطرابلسية الملتفة حوله ، والمؤتمرة بأمره ، فاعلن معارضته الشديدة لذلك ، وطالب بالحاق طرابلس بسوريا ، وكان للاخطاء التي ارتكبها الافرنسيون بحقه ، والاجحاف الذي شعر به الطرابلسيون من تسليم امورها للغرباء عن المدينة اكبر الاثر في التأييد الذي لقيه من الجماهير الطرابلسية ، في موقفه المعارض .

وقد تفرد الزعيم في طلبه الحاق طرابلس بسوريا ، دون مساندة من اصحاب الكلمة في بيروت وفي باقي المدن الملحقة الذين يقولون غير قوله ، وحتى من رجال الكتلة الوطنية في الشام الذين كانوا لا يميلون في السر لهذا الطلب .

وكان اهم ما يستند اليه المعارضون للفكرة من المسلمين ، ما سينتج عن ذلك في حال تحقيقه من ضرر يلحق بهم في جعل المسلمين قلة في لبنان .

وكان اكبر شخصية مسلمة مؤيدة لهذا الراي هو الشيخ محمد الجسر الذي تولى في سنة ١٩٢٥ رياسة مجلس الشيوخ اللبناني ، ومن ثم رياسة مجلس النواب طيلة سبع سنوات متواصلة ، وكان على الرغم مما بلغه من نفوذ

ومن سلطة تمكنانه لو اراد من محاربة الزعيم كرامي فيما ذهب اليه ، قد آثر عدم التصدي له في موقفه ، الامر الذي ترك الميدان فسيحا امام الزعيم كرامي في جولاته دون اية معارضة تذكر .

ولم يكتف الشيخ الجسر بعدم التصدي للزعيم كرامي ، بل على ما اعرفه شخصيا كان يوصي اصدقاءه الكثر في طرابلس بعدم الاقدام على اي تحرك من شأنه اضعاف مركز الزعيم كرامي ، لاعتقاده بالضرر البالغ الذي سيلحق طرابلس من تشتت آراء ابنائها .

وليس ادل على نبل موقف الشيخ الجسر وبالغ حكمته بعدم التعرض للزعيم كرامي ، مما تعرض له بعد الاستقلال من مقاومة رفاق جهاده له من رجال الحكم بسبب مطالبه الاصلاحية ، حيث تمكنوا من اخفات صوته ومن الحيلولة بينه وبين النيابة في انتخابات عام ١٩٤٧ التي امتنع عن خوضها حقنا للدماء كما سيأتي ذكره .

وبكلمة مختصرة فان ما اقدم عليه رجال الاستقلال نحو الزعيم كرامي في عهد الاستقلال بالذات ، قد ترفع عنه رجال الحكم في عهد الانتداب .

واخيرا لا بد لي من كلمة اقولها للتاريخ وللتاريخ فقط ، هي ان الشيخ الجسر قد اراد ان يكون لبنان لكل ابنائه على اختلاف مللهم ونحلهم ، فترشح لرياسة الجمهورية في عام ١٩٣١ وكان منها على قاب قوسين او ادنى ، اما في عهد الاستقلال ، فعلى الرغم من الشعارات التي رفعت واصبحت على كل شفة ولسان ، كالقول بان لا يكون لبنان للاستعمار مقرا او ممرا فلم تتم الموافقة على الاستقلال الا بعد ان سجل في الميثاق الوطني المعلن وقتئذ وغير المكتوب ان لبنان ذو وجه عربي (خذ بالك من كلمة ذو وجه عربي) مع تخصيص رياسة الجمهورية للطائفة المارونية .

هذا ما كان عليه الوضع في داخل البلاد ، اما في خارجها فكان اهم حدث وقع وكان له تأثير سيء في نفوس الطرابلسيين ، هو ما قام به قائد الحركة الوطنية التركية مصطفى كمال بعد دخوله استانبول عقب ظفره في حركة التحرير من الاحتلال اليوناني لجزء من الاناضول، من فصل السلطنة عن الخلافة وخلعه السلطان واعلان الجمهورية التركية واختياره الامير عبد المجيد خليفة على المسلمين لمدة قصيرة من الزمن ، ثم الغاؤه الخلافة نهائيا واخراجه الاسرة المالكة من تركيا .

وبعد الغاء الخلافة في تركيا مباشرة ، قام ابناء البلاد السورية ، وبيروت

وطرابلس بحركة مرتجلة بايعوا فيها الملك حسين خليفة على المسلمين ، وبما ان مصر وغيرها من البلاد الاسلامية لم تأخذ بهذه المبايعة ، فقد بقيت دون اي مفعول ايجابي وما لبث الناس ان نسوها اثر تزاحم الاحداث المؤلمة على البلاد .

واذ كان هدفنا بالدرجة الاولى من هذه الاحداث ذكر ما كان لها من علاقة بمدينتنا طرابلس فاني الخصها بما يلي :

— تشكيل الكتلة الوطنية بطرابلس بزعامة المرحوم عبد الحميد كرامي ،

وعضوية المغفور لهم الدكتور عبد اللطيف البيسار وسعدي المنلا ، وحسني الذوق وتحسين الثمين وخالد المقدم .

— ظهور طبقة من الوجوه تقول بقبول الامر الواقع والتعاون مع الافرنسيين تعاونا شريفا رغبة منهم في خدمة المدينة وتحسين اوضاعها الاقتصادية والعمرانية ، وتمثيل الطرابلسيين تمثيلا لائقا في المؤسسات الرسمية ، وفي مقدمة هؤلاء الوجوه المغفور لهم عبد القادر الذوي وفؤاد الذوق وسعد الله المنلا ومحمود الحداد ومحمد البابا وغيرهم ممن كان ينتحل هذه الفكرة دون ان يجسروا على اعلانها .

ولم يكن لهؤلاء الوجوه رابطة تجمعهم بكتلة او حزب ، بل كان بينهم تطابق في التفكير فقط .

وكان الاتصال والتشاور بين الزعيم كرامي ورجال الكتلة الوطنية في دمشق وبينه وبين الوجوه البيروتية المغفور لهم علي سلام وعمر الداعوق وعمر بيهم مستمرا في الكبيرة والصغيرة من شؤون البلاد ، وكانت تعقد بين الفترة والفترة مؤتمرات وطنية في الشام او بيروت يترأسها المرحوم عبد الحميد كرامي ، لما كان يتمتع به من مساندة شعبية طرابلسية لم تكن متوفرة لاي من الرجال الوطنيين في بلادهم .

وكان من المعروف ان طرابلس البلد الوحيد بعد الشام الذي تدين اكثرية ابنائه المطلقة بالمبادىء الوطنية المتطرفة ، وقد اطلق عليها بسبب ذلك بالمدينة المجاهدة ، وكان الفضل في ذلك يعود للزعيم كرامي ومواقفه الجريئة والصلبة ضد الافرنسيين ، وكانت حماقة الافرنسيين في تصرفاتهم معه من اضطهاد ونفي وتشريد تعمل على ازكاء حماسة الطرابلسيين في التعلق به والتضحية في سبيله بكل غال وعزيز .

وكانت شهرة الزعيم كرامي كمناضل وطني كبيرة قد اخذت تنتشر في سائر

البلاد المغلوبة على امرها ، وكانت هذه الشهرة تستهويه وتجعله يزيد من مواقفه العدائية للافرنسيين دون ان تترك له المجال في الوقت للقيام بالخدمات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية التي كانت المدينة في اشد الحاجة لها ، وكان يعاكس كل من تسول له نفسه القيام من وراء ظهره بهذه الخدمات من اصحاب الرأي في المدينة ، فقد كان مشغولا بمقارعة الانتداب ، ولا شيء غير مقارعة الانتداب .

وكان المغفور لهما عمر الداعوق وعمر بيهم على عكسه في موقفهما المعتدل من الانتداب الافرنسي مع احتفاظهما بمبادئهما الوطنية الامر الذي امكنهما من تقديم خدمات كبيرة لاخوانهما مسلمي بيروت ومن اهم هذه الخدمات اعتناء المرحوم عمر الداعوق بشؤون جمعية المقاصد الخيرية في بيروت التي قفزت وارداتها السنوية بفضل نفوذه من نقطة الصفر الى عشرات الملايين من الليرات اللبنانية ، وذلك بعد ان حول الكثير من المقابر الاسلامية الى ابنية شاهقة تدر وارداتها مئات الالوف من الليرات اللبنانية ، وكانت بلدية بيروت وحتى الافرنسيون يتغاضون عن نشاطاته الاجتماعية والعمرانية تجنبا لغضبه وغضب الطائفة الاسلامية من ورائه .

وكان لا بد من وجود من يمثل طرابلس في المجلس التمثيلي ثم النيابي اللبناني ، وكان المرحوم الزعيم كرامي يحرص على مقاطعة الانتخابات التمثيلية ، الا ان حرصه هذا لم يمنع من حصول هذه الانتخابات في اوقاتها المحددة .

وكان الانتخاب للدورتين التشريعية الاولى والثانية يتم على مرحلتين يجري في المرحلة الاولى انتخاب المندوبين الثانويين من قبل الشعب ويقوم في المرحلة الثانية هؤلاء المندوبين باختيار النائب العتيد .

وقد تم الانتخاب للدورة التشريعية الاولى الذي جرى في عام ١٩٢٣ بفوز المرحوم نور بك علم الدين بعضوية المجلس التمثيلي عن طرابلس الذي كانت صلاحياته استشارية فقط .

وفي الدورة التشريعية الثانية رأى بعض من يمثل الاعتدال في السياسة من الوطنيين في طرابلس وكان في مقدمتهم على ما اذكر المغفور لهم سعد الله المنلا وعثمان سلطان وتوفيق البيسار وغيرهم ما يلحق طرابلس من ضرر بعدم اشتراك الرجال الاكفاء في الندوة التمثيلية واسماع صوتها الى اولياء الامر فقرروا خوض المعركة الانتخابية على اساس مبادىء الكتلة الوطنية ، كما ترشح باسم الحكومة المغفور له خير الدين عدره ، وكان مدعوما من قبل حاكم

طرابلس الاداري وقتذاك المغفور له عبد الحليم الحجار ، لروابط الصداقة المتينة بينهما ، وكانت النتيجة فوز لائحة المندوبين الثانويين فوزا ساحقا على لائحة مندوبي الحكومة الثانويين التي لم تحصل على اكثر من اثنين بالمئة من اصوات الشعب ، ولكن مرشحي الكتلة الوطنية لم يتفقوا على واحد معين منهم ، على الرغم من المساعي الحثيثة التي صرفها الزعيم كرامي في هذا السبيل ، الامر الذي جعله يقف على الحياد ، ومما اشيع وقتئذ انه اوعز لجماعته بانتخاب خير الدين بك ، وهكذا فقد كانت نتيجة اقتراع المندوبين الثانويين فوز مرشح الحكومة خير الدين بك بالنيابة ، فجن جنون الناس لهذه النتيجة ، ومما اذكره انه كان في طرابلس وقتئذ المغفور له الدكتور محجوب تابت احد اعضاء الوفد المصري ، وكان مبعدا خارج الاراضي المصرية بامر من حكومتها المالئة للانكليز ، وقد شارك في الانتخابات مشاركة فعلية ، بالخطب الوطنية الرائعة التي كان يلقيها على مسامع الشعب ، فاذهلته النتيجة غير المتوقعة وترك طرابلس فارا الى بلد آخر ، وقد خرج فريق كبير من الناس عن الزعيم كرامي ، الا انه على الرغم منذلك فقد بقي سيد الموقف الطرابلسي ، وان كان ذلك بنسبة عددية اقل مما كانت عليه .

وفي عام ١٩٢٥ انقلب المجلس التمثيلي الى مجلس نيابي عهد اليه في وضع دستور للبنان ، وقد نص الدستور على ايجاد مجلس شيوخ بالاضافة الى مجلس النواب ، وتعين المرحوم الشيخ محمد الجسر شيخا وبقي المرحوم خير الدين عدره نائبا عن طرابلس ، ثم ان السلطة المنتدبة قد رأت في اثناء الدورة التشريعية هذه الغاء مجلس الشيوخ وضم اعضائه لمجلس النواب ، وجرى تعديل الدستور على هذا الاساس بعد ان قضى في احدى مواده بتعيين ثلث النواب من قبل الحكومة .

وقد جرى في عام ١٩٢٤ احصاء لعدد سكان لبنان فاظهرت نتيجة الاحصاء تقارب عدد المسلمين مع غيرهم من ابناء الطوائف الاخرى في لبنان .

وفي عام ١٩٢٩ جرت الانتخابات للدورة التشريعية الثالثة فاز فيها المرحوم رشاد اديب بالنيابة عن طرابلس وتعين الشيخ الجسر نائبا عنها بعد ان اجاز الدستور مبدأ تعيين ثلث الاعضاء وانتخب باكثرية اصوات النواب المطلقة رئيسا للمجلس .

وفي الساعة التي تلت انتخاب الشيخ الجسر رئيسا لمجلس النواب اللبناني بدأ نجمه السياسي بالسطوع وبدأت ملامح تفكيره الوطني بالظهور .

ويجدر بي ان اذكر بعض آرائه السياسية وطريقة تعامله مع المنتدبين .

فالشيخ الجسر كان يؤمن بمبدأ (خذ وطالب) اعتقادا منه بان دفع الواقع السياسي للانتداب لا يكون بالاماني والرغبات والشعارات ، بل يكون بالجدل والحوار اليومي ، والمطالبة الحثيثة التي ترى الاستفادة من المنتدب دون ان تعطيه حق البقاء الدائم في البلاد ، كما كان يرى ضرورة سير الموالاة جنبا الى جنب مع المعارضة ، كوسيلة من وسائل تضييع الفرص على المستعمر الذي يتحين المناسبات لايقاع التفرقة بين ابناء البلاد اضعافا لقوتهم في مناهضتهم له .

وفي عام ١٩٢٩ كانت البلاد تتخبط بازمة حكومية حادة ، رأى المفوض السامي بايعاز من حكومته تكليف المرحوم الاستاذ اميل اده لرياستها ، فصدر القرار بذلك ، وكان الاستاذ اده وقتئذ في فرنسا ، فابحر منها الى لبنان بدارعة افرنسية مبالغة في تكريمه ، واسمت الصحف حكومته بحكومة الانقاذ ، وفي مستهل ايام حكمه ، وفي ظل الصلاحيات الاستثنائية التي نالها من البرلمان ، ارتكب خطيئته الكبرى بالغاء التعليم الرسمي ، واغلاق ابواب المدارس ، وتسريح المعلمين ، وترك الطلاب يهيمون في الشوارع ، وكانت طرابلس مسرحا لاعظم اضراب شهدته البلاد احتجاجا على هذا التصرف غير المدروس ، وتضامن ابناء البلاد من مسلمين ومسيحيين للعمل على الغاء هذا القرار ، وطير فريق من الشباب الطرابلسي وكنت واحدا منهم برقية الى رئيس الحكومة ، احتوى بعضها ما نصه (لم يسجل التاريخ في اشد العصور ظلاما من عمد الى محاربة العلم كما سجل عهدكم ..) ولم يمض يوم واحد على ارسال البرقية حتى جاء امر برقي من قبل النيابة العامة الاستئنافية في بيروت تدعو فيها موقعي البرقية الى المحاكمة ، بمادة التهجم على رياسة الحكومة ، فامتنع الشباب عن حضور المحاكمة وتألف وفد من وجوه المدينة قابل رئيس الحكومة محتجا على الغاء المدارس الرسمية وسوق الشباب الطرابلسي الى المحاكمة ، وكانت مقابلة عاصفة اصر فيها الاستاذ اده على موقفه ، مهددا بالسوق الى المحاكمة كل من يكرر التصرف بما تصرف به الشباب ، وقد جاوبه رئيس الوفد المرحوم الشيخ شفيق المولوي بقوله ان طرابلس بشيوخها وكهولها وشبابها سترسل البرقية تلو البرقية احتجاجا على هذا التصرف حتى لا يبقى خارج السجون احد من ابنائها .

واخيرا وتحت ضغط الرأي العام الطرابلسي سقطت حكومة الاستاذ اده وبقي قراره المنوه به دون تنفيذ .

وفي عام ١٩٣٠ تعين الشيخ كسروان الخازن محافظا على الشمال وصادف حضوره الى طرابلس في وقت لم يكن قد مضى على وفاة المرحومة والدة الزعيم كرامي سوى ايام معدودات ، فكان من الطبيعي ان لا يذهب للسلام عليه ، ولم يقتنع الخازن بهذا العذر ، واتسع سوء التفاهم بينهما ، وكان الخازن يعتمد في محاربة كرامي على جمعية التعاون الخيري التي كان يرأسها المغفور له ظافر شعبان ، وقد حضر المرحوم الجسر خصيصا الى طرابلس لازالة سوء التفاهم الواقع بين كرامي والخازن فجمعهما في بيت المرحوم عبد الفتاح الحداد وطلب اليهما فتح صفحة جديدة من التآخي والصفاء الا ان جهوده الخيرة هذه لم يحالفها النجاح بعد ان وقع بينهما سوء تفاهم جديد هو من سيبدأ اولا بزيارة الاخر ، وكان المرحوم كرامي يصر على تنحية الخازن ، وقد عتب على الشيخ الجسر لعدم تنفيذ طلبه ، ذلك الطلب الذي كان الشيخ الجسر في الواقع عاجزا عن تنفيذه لعدة اعتبارات اهمها نفوذ آل الخازن الكبير في لبنان .

وفي عام ١٩٣٢ اصر الشيخ الجسر على اجراء احصاء جديد ، ووفق لذلك بما له من نفوذ الكلمة ، وجرى الاحصاء .

فاظهرت النتيجة ان الفرق بين الطوائف المسلمة بالنسبة للطوائف المسيحية بسيط ، هذا مع العلم ان المسلمين لم يتقدموا للاحصاء بحماسة وتخلف الكثير منهم عنه .

وبعد اجراء الاحصاء رشح الشيخ محمد الجسر نفسه لرئاسة الجمهورية ولكن المفوضية الافرنسية اظهرت معارضتها الصريحة لترشيح الشيخ الجسر اذ كانت تميل لان يكون الرئيس مسيحيا ورشحت لذلك المرحوم الشيخ بشارة الخوري .

ولما ظهر ترشيح الشيخ الجسر بمظهر القوة والمناعة بانضمام اكثرية النواب الموارنة والمسلمين اليه حتى المترددين ، وتجلى الاتحاد الوطني بهذه العواطف في ابرز مظاهرها ، ولما اتفق الجميع على موعد الانتخاب استدعي المندوب السامي الشيخ الجسر بصفته رئيسا لمجلس النواب ، وطلب اليه تأجيل الجلسة يومين ، وكانت تلك هي غلطة الشيخ اذ قبل التأجيل ، ولو لم يؤجل لجرى الانتخاب في حينه وفاز برياسة الجمهورية باكثرية الاصوات المطلقة .

وفي اليوم الثاني ليوم المقابلة اصدر المفوض السامي قرارا بتعطيل الدستور وحل المجلس النيابي ، وبتنصيب المرحوم شارل دباس حاكما على لبنان .

وقد حز في نفس الشيخ رحمه الله ما لقيه من تنكر وجحود من اولئك الذين انفضوا من حوله ايام سطوته ، كما حز في قلبه موقف الوطنيين الطرابلسيين الذين رأوا في تنحيته تسديدا لحسابات سابقة لم يكن الشيخ يوما مدينا لها .

وفي عام ١٩٣٤ اعيدت الحياة النيابية الى البلاد ، وكان في طرابلس مستشار مدني يدعى (مسيو لافون) كان على جانب كبير من اللياقة السياسية وكان متفهما لاوضاع المدينة تمام التفهم ، فعمل على التقرب من الزعيم كرامي ، فوفق في ذلك .

وكان المستشار يميل لترشيح الاستاذ نديم الجسر للنيابة عن طرابلس فلم يرق للزعيم كرامي هذا الاختيار ، ومانعه بشدة الامر الذي اضطر المستشار لابدال المغفور له امين بك المقدم به ، فلاقى هذا الاختيار ارتياحا من الزعيم كرامي ، وفاز امين بك بالنيابة .

وفي عام ١٩٣٥ تأسس في طرابلس حزب الشباب الوطني تولى رياسته الاستاذ مصطفى كرامي حفظه الله ، وكان المرحوم الشيخ تحسين الثمين المدبر والمخطط للحزب ، وقد انخرط في سلك عضويته فريق كبير من الشباب الطرابلسي المثقف .

وفي العام نفسه ابدل بالمفوض السامي الافرنسي بمفوض آخر هو الكونت دي مرتيل فأخذ يدير البلاد بسياسة جديدة هدفها عقد معاهدة مع لبنان واعلن رجوع الحياة النيابية ولم طمئن الزعيم كرامي لمظاهر نيات المفوض السامي فعزف عن الترشيح للنيابة ، على الرغم من التأييد الشعبي الكاسح له لو اراد ذلك .

وفي عام ١٩٣٦ اصدر المفوض السامي الافرنسي قرارا بتعيين المغفور له الاستاذ اميل اده رئيسا للجمهورية واجرى انتخابات نيابية جديدة ، فاز فيها بالنيابة المرحومان راشد المقدم والاستاذ شفيق كرامي .

وكان يقطن طرابلس الوجيهان الشماليان المغفور لهما يوسف وسايد اسطفان ، وكانا على جانب كبير من دماثة الخلق ، وكانت تربطهما بالمرحوم اميل اده ، روابط صداقة متينة ، وكانا يعملان جاهدين على تقريب وجهات النظر بين اميل اده الذي تولى رياسة الجمهورية وبين الزعيم كرامي ، وكان المغفور له محمد كرامي الاخ الاصغر للزعيم كرامي تربطه بالشيخين الاسطفانيين وبصديقهم وشريكهم الشيخ بطرس الخوري الوجيه الشمالي ايضا روابط

صداقة متينة ، وكان هؤلاء الاقانيم الاربعة على قناعة بضرر مناوئة الزعيم كرامي للكيان اللبناني فراحوا يعملون على ازالة الجفاء بين الحكومة اللبنانية الممثلة برئيس الجمهورية الاستاذ اده ، وبين الزعيم كرامي ، وكان يمثل السلطة الافرنسية المنتدبة في طرابلس المستشار (بتي دي كلام) وكان هذا المستشار احمق بكل ما تعني الحماقة من معنى ، وكان على عداء شديد مع الزعيم كرامي والشيخين الاسطفانيين ، وكانت الحماقة وقصر النظر متأصلين في اسرة المستشار ابا عن جد ، وليس من دليل على ذلك اصدق مما رواه لي المرحوم كنعان ادهم بك مدير مصلحة المياه الاسبق ، من ان جد المستشار لابيه كان بطل فتنة الضابط اليهودي (دريفوس) المشهورة ، وهي الفتنة التي كادت تودي بفرنسا فيالقرن التاسع عشر لحرب اهلية طاحنة ، بعد سوقه للمحكمة العسكرية بتهمة الخيانة ، القضية المعروفة في تاريخ فرنسا .

وكان عربون الصفحة الجديدة من المهادنة بين الحكومة اللبنانية ، وبين الزعيم كرامي ، تعيين محمد كرامي مديرا اداريا لمصلحة مياه طرابلس في عام ١٩٣٨ مع الابقاء على كنعان ادهم مديرا فنيا ، ولم يرق هذا التقارب للمستشار الاحمق فعمل على تنحيته من وظيفته ، وقد وفق في ذلك بعد استقالة رئيس الجمهورية وتعيين الاستاذ الفرد نقاش بديلا عنه والمغفور له عبد الله بيهم امين سر دولة .

ومع ان عبد الله بك كان صديقا حميما للزعيم كرامي فقد وافق في ساعة ضعف امام عنفوان المستشار على تسريح كرامي .

وهناك حادث آخر وقع كان من نتائجه احباط المساعي المبذولة لازالة الجفاء بين الحكومة اللبنانية والزعيم كرامي ، والحادث هو ان الرئيس اده كان عزم على زيارة طرابلس بصورة رسمية ، فاستمزج الشيخان الزعيم كرامي بهذه الزيارة ، فلم يريا منه معارضة لذلك ، الامر الذي شجع الرئيس اده على المضي بتحقيقها ، وبوصول موكب الرئيس الى باب السراي ، ظهر بين الجموع المحتشدة فئة تنتمي لحزب الشباب حزب الزعيم كرامي تنادي بالوحدة السورية ، وبالتنكر للبنان ، وكانت مفاجأة غير متوقعة فغضب لذلك الرئيس اده اشد الغضب ، اذ اعتبر ما حدث تنكرا من الزعيم كرامي لما وعد به ، اما الحقيقة التي اعرفها وعرفها وقتئذ كثير من الناس فهي ان هذه الخطة حاك خيوطها قادة الحزب خفية عن الزعيم كرامي ، الذي غضب منها غضبا شديدا ولام مدبريها اقسى اللوم .

وهناك حقيقة ثانية تبينتها من مجريات الاحداث التي مرت على طرابلس ، وهي ان بعض جماعة كرامي المقربين ، كانوا يتصرفون في كثير من القضايا تصرفا منفردا دون علمه ، وذلك اما بقصد التشفي من بعض خصومهم مستمدين القوة في عملهم من قوة الزعيم كرامي ، واما للابقاء على شعوره بحاجته اليهم ، وكانت نفسه الابية تمنعه من الاعتراف بخطأ جماعته .

ثم توالت الاحداث الجسام على البلاد بعد ان استسلمت فرنسا المهزومة امام المانيا الهتلرية ، وتبع المفوض السامي الافرنسي حكومة (فيشي) المهزومة ، ثم تولى الجنرال ديغول قيادة فرنسا الحرة في المنفى ، واتخذ مقرا له الجزائر ، ثم زحفت الجيوش الانكليزية يعاونها جيش فرنسا الحرة على سوريا ولبنان ، واستسلمت لها البلاد وانسحب الجنرال دانز المفوض السامي لحكومة فيشي ، وجاء الى البلاد الجنرال كاترو ممثلا الجنرال ديغول ، واعلن حال وصوله استقلال سوريا ولبنان .

وكان على رأس البعثة الانكليزية الجنرال سبرس الذي لعب دورا بارزا وفعالا في الحد من تسلط الافرنسيين ، وافساح المجال امام ابناء البلاد في الحصول على الاستقلال التام .

وكان الزعيمان عبد الحميد كرامي ورياض الصلح الشخصيتين البارزتين المتعاونين مع الجنرال سبرس دون ان يسبق لهما التعاون مع رجال الانتداب الافرنسي .

وفي عام ٩٤٣- تقرر اجراء الانتخابات لمجلس النواب على اساس المحافظة وكان لمدينة طرابلس مقعدان من اصل عشرة مقاعد مخصصة لمحافظة الشمال .

وقد اجتمع المجلس وانتخب بشارة الخوري رئيسا للجمهورية فكان اول رئيس في عهد الاستقلال ، والف الرئيس رياض الصلح اول وزارة دستورية في عهد الاستقلال وراح ينقح دستور البلاد من المواد التي تتعارض مع الاستقلال ، وكان المسيو هللو يشغل وظيفة المفوض السامي الافرنسي بالوكالة فاشتد الخلاف بينه وبين حكومة الرئيس الصلح بعد ان قرر مجلس النواب تغيير شكل العلم اللبناني والغاء المواد التي تبيح لفرنسا التصرف بامور لبنان .

وفي ليل ١٢ تشرين الثاني من عام ١٩٤٣ ارسل المسيو هللو عددا من

الجنود السنغاليين ، القو القبض في بيروت على رئيس الجمهورية الشيخ بشارة وعلى رئيس الوزراء الصلح وعلى وزير الخارجية سليم تقلا ووزير الداخليـة كميل شمعون ، وفي طرابلس على الزعيم كرامي واودعوا الجميع في قلعة راشيـا .

فهبت البلاد على بكرة ابيها للدفاع عن كيانها واعلنت حكومة مؤقتة في قرية بشامون ، وتداخل الانكليز في القضية واخيرا في ٢٢ تشرين الثاني افرج عن المعتقلين واعتبر هذا اليوم عيدا وطنيا في لبنان .

وقد قاست طرابلس خلال الايام العشرة التي مرت على اعتقال رجال البلاد الكثير من توحش الجنود الافرنسيين الذين داسوا بدباباتهم الاطفـال في اثناء تظاهرهم في شوارع المدينة .

واخيرا نالت البلاد امانيها وفي ٣١ كانون الاول من عام ١٩٤٦ جـلا آخر جندي اجنبي عن البلاد ، ذلك الجلاء الذي لم يكن ليتم لولا الميثاق الوطني الذي تم الاتفاق عليه بين الرئيسين بشارة الخوري ورياض الصلح والذي ايده وباركه رجالات البلاد من المسلمين والمسيحيين .

وبعد حصول البلاد على استقلالها التام الناجز اخذ الشيـخ بشارة الخوري يلعب لعبته في التفريق بين الزعيمين المسلميين البارزين الصلـح وكرامي فسلط على الزعيم الصلح اخاه الشيخ سليم الذي لقب بالسلطان سليم بسبب اتساع نفوذه فوفق في اضعاف نفوذ الرئيس الصلح .

وكان تأسس بطرابلس عام ١٩٤٤ في اثناء تولي الرئيس الصلح رياسة الوزارة فرع لحزب النداء القومي المنتسب في سياسته لآل الصلح وقد تولى رياسة الفرع بطرابلس الاستاذ قبولي الذوق المعروف بمناهضته لسياسة المرحوم كرامي في طرابلس ، فاعتبر كرامي ذلك مداخلة من آل الصلح في شؤون طرابلس الداخلية فاضمر في نفسه الكراهية لهما .

وبعد ان استقال رياض الصلح من رياسة الوزارة ، تولاها الزعيـم كرامي وكان من منجزاته الاشتراك بوضع ميثاق الجامعة العربية وقد استغل خصومه صراحته وترفعه عن المناورات السياسية ولعباتها ، وعدم اخفائه ما في نفسه نحو النير ، وهي صفات تضعف من شأن السياسي وتجعـل اوراقـه عرضة للخسران والضياع ، فاظهروه في الجرائد اليومية والمجـلات السياسية الاسبوعية بمظهر الحاكم الضعيف وعملوا على ابراز وزير الخارجية هنري بك فرعون في ميدان الحكم كالمؤثر الوحيد في الوزارة ، ومما اذكره

صورة كاريكاتورية نشرتها على ما ارجح مجلة الصياد المنسوبـة بسياستها للرئيس الصلح تمثل اعضاء مجلس الوزراء بشخص هنري بك وحده دون سائر الوزراء بما فيهم الرئيس نفسه وفي اعتقادي كما دلت عليه الاحداث المتعاقبة ، ان الخلاف الذي وقع بين الزعيمين كرامي والصلح كان له اكبـر الاثر في اضعافهما كليهما امام مناورات السياسيين المناوئين لهما وعلـى رأسهم الرئيس بشارة الخوري .

واذا لم يكن للرئيس الصلح قاعدة شعبية كثيفة يرتكز اليها ارتكاز الزعيم كرامي على قاعدته الشعبية في طرابلس ، فقد كان الزعيم الصلح يستعيض عن ذلك بدهائه غير المحدود ومناوراته الواسعة على عكس الزعيم كرامي الذي ما ان يحس بمناورات يقوم بها خصومه ضده حتى ينبري لها بقوة وصلابـة متخطيا جميع الاعتبارات والمناورات السياسية .

وكان المفكرون في طرابلس يشعرون بضرر هذه المواقف واثرها في هضم حقوق طرابلس بسببها ، دون ان يكون بمقدورهم التصدي لها لما قد يجره عليهم ذلك من مجابهة الزعيم كرامي لهم ، وهم في وضع اضعف من ان يتحملوا هـذه المواجهة .

ويحضرني للدلالة على ذلك حادث وقع في اثناء وجود الرئيس الخوري في الشمال عند طوافه على المحافظات اطلعت عليه شخصيا اذ كنت في جملة اعضاء لجنة الشرف المكلفة بتنظيم احتفال استقبال الرئيس ، وقد كان لهـذا الحادث اكبر الاثر في ايغار صدر الرئيس الخوري على الزعيم كرامي اوجزه بمـا يلـي :

بعد استقاله الزعيم كرامي من رياسة الوزارة تولاها سامي الصلح وكان رحمه الله فريدا في شخصيته الجامعة لصفاء القلب والبعد عن الاذى والترفع عن الصغائر والابتعاد عن المناورات السياسية غير الشريفة مع محافظته على كرامته والدفاع عنها بكل قوة ، وكانت نفسه تميل للظهور واحتواء الانصار .

وقد قام الشيخ بشارة في تلك الاثناء بجولة تفقدية في البلاد كما ذكرت فاستقبل في طرابلس استقبالا حافلا قلل من قيمته المعنوية عدم اشتراك الزعيم كرامي بالوفد الذي استقبل الرئيس على مشارف المدينة في موقع البحصاص وكان مبعث تغيبه اصرارو على ان يكون مصاحبا الرئيس بسيارته عند دخول المدينة ، وتمسك المرحوم سامي الصلح بهذا الحق وقد ترك ذلـك في نفس الرئيس الخوري اثرا سيئا وفي المأدبة التي اقامتها البلدية على شرف الرئيس في فندق حكيم القى خطابا وطنيا رائعا اشاد فيه بمواقف الزعيم كرامي المشرفة

من الانتداب ، وزيادة في التقرب من كرامي قام بزيارته في قصره ، كما قام بزيارة المغفور له سعدي بك في بيته ، وبات ليلته عند الزعيم كرامي في مصيفه في قرية بقاعصفرين ، وهناك امر آخر لم يرق للرئيس ايضا ، هو اجتيال اعضاء حزب الشباب الوطني على مشهد منه باكيستهم العسكرية وهم يتمنطقون المسدسات وتزين صدورهم الاوسمة والمداليات الذهبية ، وكان الظهور بالالبسة العسكرية ممنوعا على الاحزاب بقانون ، فاغتاظ الرئيس من هذه المظاهر ولكنه كتم غيظه وبقي على هدوئه .

وكان في منطقة الاصطياف بعض خصوم كرامي السياسيين فتجاهلهم ولم يقم بزيارة احد منهم .

وفي الصباح نزل من بقاعصفرين الى فندق سير الكبير ، وانتظر حضور الزعيم كرامي لوداعه ، ولما لم يحضر ترك الفندق متوجها الى باقي مناطق الشمال ، وكله الم من مواقف المرحوم كرامي العدائية له .

وقد دلت الاحداث التي وقعت بعد هذه الزيارة على رغبة الشيخ بمحاربة نفوذ الرئيس كرامي في عقر داره ، فعين احد مؤيديه الامير عبد العزيز شهاب محافظا للشمال ، وكنت على صلة وثيقة بالمحافظ اعلم ما في باطنه من ميل نحو كرامي ، فاردت متطوعا استغلال ذلك في سبيل ان يكون واسطة خير بين الرئيسين ، واردت ان استعين في ذلك بسيادة الاستاذ مصطفى كرامي الذي كان يشغل وظيفة مدير بلديتي طرابلس والميناء ومصلحة المياه بعد وفاة شقيقه المرحوم المبرور محمد فاخفقت في ذلك .

وعقب استقالة وزارة سامي الصلح تولى رياسة الوزارة سعدي المنلا ، ومع ما كان عليه رحمه الله من دماثة الخلق والبعد عن الاثارات ، فلم يكن الزعيم كرامي راضيا عن ذلك ، معتبرا ان المركز هذا من حقه دون اي كان من الطرابلسيين ، ولم يمنع صفاء صفحة المنلا في حياته السياسية الطويلة من تهجم جماعة كرامي عليه بشتى الوسائل والطرق مما اضعف مركزه وجعله يستقيل ، فعاد وتولى رياسة الوزارة رياض الصلح ، وقد اتسعت في ايامه شقة الخلاف بين الرئيسين الخوري وكرامي ، وقامت عدة مظاهرات صاخبة في طرابلس وصوفر ، هاجم في احداها الزعيم كرامي الشيخ بشارة هجوما عنيفا ، وقد وصف فيها لبنان بعد تجديد ولايته على رياسة الجمهورية ، اذ جعله مزرعة لآل الخوري ، فذهب هذا الوصف مثلا ردده الناس في المناسبات

وقد ظهر في اثناء ذلك في طرابلس بتشجيع من بشارة الخوري ورياض الصلح المغفور له نافذ المقدم كقوة مرهوبة في محاربة الزعيم كرامي .

وفي اليوم الذي استقبلت فيه طرابلس ابنها البار القائد العربي الكبير المغفور له فوزي القاوقجي العائد اليها بعد غيبة طويلة قضاها في محاربة الاستعمار والصهيونية ، ذلك الاستقبال الحافل الذي قام بتنظيمه نافذ المقدم ، والذي كان يزاحمه به المغفور له مظهر العمري وقع حادث خطير جدا اذ لم يصل الموكب الى ساحة التل حتى وقعت معركة بين انصار المقدم وبين مظهر العمري ، انهال خلالها الرصاص من جميع الجهات وذهب ضحيتها المقدم والعمري مع عدد كبير من الاشخاص الابرياء .

ولم يكن للزعيم كرامي او لاحد من جماعته اي اصبع بهذه المجزرة .

الختام :

مما يؤسف له ان الحياة السياسية منذ فجر الاستقلال في عام ١٩٤٣ حتى نهاية النصف الاول من القرن ، اي خلال السنوات السبع التي مرت على جلاء الاجنبي عن البلاد ، اخذت طابعا مأساويا بعيدا كل البعد عن الكرامة والنزاهة والتجرد .

فبعد ان خلا الجو لمتسلمي مقدرات البلاد الجدد ، اخذ اكثرهم يلعبون لعباتهم القذرة ، فعم الفساد ، وتفشت المحسوبية ، وتحولت محافظات لبنان الخمس الى مقاطعات نفوذ لرجال السياسة ، يقربون منهم المتزلفين ، ويبعدون الاباة الصادقين .

وشاءت ارادة الله ان يكون في محافظة الشمال رجلان لم ينغمسا في هذه البؤرة الفاسدة المفسدة هما الزعيمان الشماليان عبد الحميد كرامي تغمده الله برحمته ورضوانه وحميد فرنجية امد الله بحياته .

فالاول كان يقف خطيبا في الجموع شارحا الاوضاع السيئة التي تعانيها البلاد من تصرفات الحكام وقاد اكثر من تظاهرة حاشدة احتجاجا على تردي اوضاع الحكم ، حتى وصل به الامر يوما ليعلن في احدى التجمعات ان لبنان اصبح مزرعة للحاكمين .

والثاني شرح تحت قبة البرلمان وعلى مسمع من ممثلي الامة اوضاع الحكم فوصف القاضي بالرشوة والمحافظ بالخنوع والمنفذ بالسمسرة .

ومما زاد الطين بلة انه قبل قليل من عهد الاستقلال ومن بعده ظهر على المسرح السياسي في لبنان الكثير من الاحزاب منها من كان يعمل بوحي من

ضميره الوطني ومنها من ينتحل مبادىء مستوردة من الخارج ، ومنها من كان هدفه اقتناص الفرص للمشاركة في اكل الجبنة ، كما وصفهم المغفور له الرئيس فـؤاد شهاب .

وكان من هذه الاحزاب من وصف بالتقدمية أو بالرجعية او بالاعتدال ، فاختلط بتعددها في هذا البلد الصغير الحابل بالنابل ، وزالت بوجودها مظاهر الاستقرار الذي كان يعم البلد .

على اننا اذا نظرنا الى الدول الكبرى المتقدمة في مضمار الحضارة نرى ان الولايات المتحدة الاميركية مثلا التي تشتمل على عدد ضخم من السكان ليس فيها سوى الحزبين الجمهوري والديمقراطي ، وان انكلترا ليس فيها سوى ثلاثة احزاب ، العمال والمحافظين والاحرار ، وكذلك الاتحـاد السوفياتي والصين ليس في كل منهما سوى حزب واحد ، حتى ان سوريا البلد الشقيق نفسها قد ضمت جميع احزابها في تكتل واحد في ظل حزب البعث الحاكم .

اما عندنا في لبنان فالاحزاب والتكتلات اكثر من ان تحصى ، والاتجاهات السياسية اكثر من ان تعد ، وقى الله البلاد شر هذه الفوضى .

هذا ما كانت عليه الحياة السياسية في المدينة خلال النصف الاول من القرن عرضتها بقدر ما تسمح به الظروف من اختصار .

فاذا اردنا ان نقوم في نهاية هذه الرسالة اوضاع المدينة بصورة عامة خلال هذه الحقبة من الزمن ، وان نجري مقارنة بين ما كانت عليه في بداية القرن وما انتهت اليه في منتصفه تتجلى لنا الحقيقتان التاليتان :

اولا : ان المدينة قد خطت خطى كبيرة الى الامام في المجالين العلمي والاقتصادي ، فالمتعلمون والمثقفون من الجنسين ، اصبحوا يعدون بالالوف ، والوضع الاقتصادي قد بلغ الذروة في النمو والاتساع .

ثانيا : ان المدينة قد خطت خطى عكسية في المجالات الاجتماعية ، فحسن التعامل بين الناس قد فقد بريقه ، والصدق قد انطفأ نوره ، وقل عدد دافعي الزكاة ، وكثر عدد المتمتعين بالحرام من ملاذ الحياة ، وانعدم وجود من يعرف حده فيقف عنده ، وقل عدد المؤمنين وكثر عدد الملحدين ، واتسعت الهوة بين الثرى المتخوم والفقير المعدم المحروم ، وفقدت المروءة والامانة من النفوس ، وضعفت الاخلاق ، وقديما قال الشاعر العربي :

وانما الامم الاخـلاق مـا بقيت فان هـم ذهبت اخلاقهم ذهبـوا

وقانا الله شر هذا المصير ، وانا لله وانا اليه راجعون .

فهـرس الكتـاب

البحث	الصفحة

طبع هذا الكتاب على مطابع
دار الإنشاء للطباعة والنشر
طرابلس - لبنان - هاتف: ٦٢٤١٢٤